

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالمراسم الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السادسة والستون - العدد 444 - محرم 1445 هـ / غشت 2023 م

الذكرى السبعون لثورة الملك والشعب



دعوة الحق

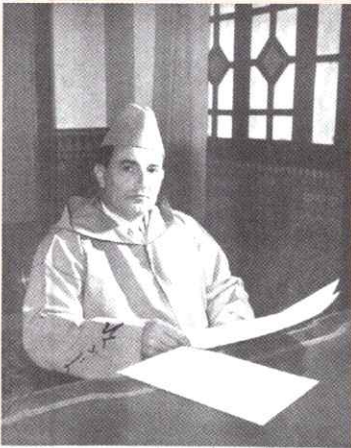
مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السادسة والستون - العدد 444 - محرم 1445 هـ / غشت 2023 م



أسسها جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه

سنة 1376هـ/1957م



في عهد جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
تم إنشاء مجلة دعوة الحق بقرار من المجلس الأعلى
للثقافة المغربية الصادر في 17 مارس 1957

”... ولعلنا سنزل أن تتولّى وزارة الأوقاف إصدار
مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح
الدّيني، كما تُعالج مختلف الشؤون الاجتماعية
والثقافية، ولنا وحييد الأمل في أن يلتفت حولها
لُعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد
وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء“.

وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957



مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

مدير المجلة

الأستاذ عبد العزيز والعصري

رئيس التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي

العنوان

مديرية الشؤون الإسلامية،

وزارة الأوقاف الإسلامية

المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma

البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير

05 37 76 59 05

هاتف مدير المجلة

05 37 76 17 21 / فاكس: 05 37 66 06 74

التوزيع

هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي

القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة

الاشتراك التشجيعي: 500 درهم

المملكة المغربية: 150 درهم

الخارج: 300 درهم

ثمن العدد: 15 درهم

رقم الإيداع القانوني: 3/1981

الرقم الدولي: 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة

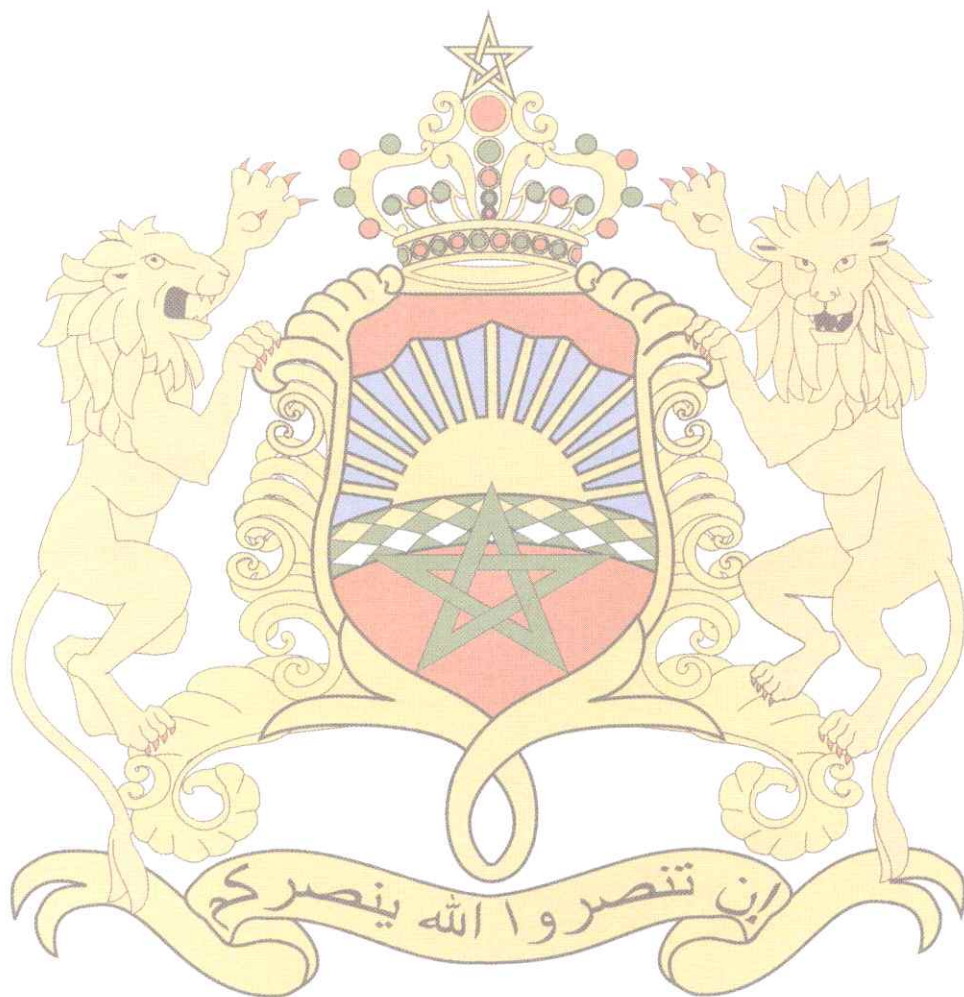
مطبعة المعارف الجديدة/الرباط - 2023

444

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يحتفل الشعب المغربي هذه السنة بكل فخر واعتزاز بالذكرى السبعين لثورة الملك والشعب، إذ هي ذروة سنام الذكريات المفعمة بالبصولات والتضحيات التي تولاها أبو الأمة مولانا محمد بن يوسف لصيب الله ثراه في تلاحم تام مع شعبه الوفي، من أجل استقلال البلاد وتحرير العباد.

والناكس في مسارات تشوف العرش والشعب إلى التخلص من نير الاستعمار يجدها ناهضة بالمواقف الدالة على قيم الشهامة الساعية إلى تحقيق الكرامة، ومن تجلياتها: المعارك التي خاضها المغاربة ضد المستعمر في مختلف ربوع المملكة انطلاقاً من موقعة الهري سنة 1914 م، والرفض التام للضمير البربري سنة 1930 م، وتقديم وثيقة الاستقلال سنة 1944 م، وخطاب لصنجة سنة 1947 م.

إن تمسك جلالة المغفور له مولانا محمد الخامس لصيب الله ثراه بموازية الشعب المغربي باستقلال المغرب وتحرير كافة أراضيه، جعل المستعمر يقدم على نفي جلالته وعزله عن شعبه الذي قام عن بكرة أبيه بثورة عارمة هي شهادة الموالف والمخالف أم الثورات التي بفضلها حصل المغرب على استقلاله ورجع أبو الأمة إلى أبنائه ووطنيته، وقد عبر عن ذلك بعد رجوعه من المنفى في 30 دجنبر 1955 م بقوله: «وهكذا ستبقى علائقنا مستمرة علائق الأب مع أبنائه حتى نشعر بأننا بينكم كأعضاء أسرة واحدة متحدين متوأمين، وبالعروة الوثقى متمسكين، وبوصية الله بالتعاون عاملين ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹.

ومن مقتضيات رايك الأبوة التي تجمع العرش بالشعب، قيام جلالته ببناء المؤسسات وهيكلية القضاة والزوج عن المقدمات بمباركة شعبه في كل الإصلاحات، وهو ما عبر عنه

1 - سورة آل عمران، الآية 104 .

مخالصها شعبه: «ولنا في تأييدك والتفافك حولنا وفي الوعي القومي الذي عم سائر طبقات الشعب بالحواسر والبوادي أعظم مشجع بمتابعة المهمة المقدسة الملقاة على عاتقنا جميعاً، وللوصول إلى الغاية المنشودة ألا وهي عهد جديد نتعاون على بناء صرحه وفق مكامحك التي ما فتئنا نذود عنها ونسعى في تحقيقها».

وهكذا استمر العهد موصولاً بتخليد هذه الذكرى ملكاً وشعباً إلى عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، الذي ما فتئ يدعو إلى أن تكون هذه الذكرى ثورة متجددة تلهم العرش والشعب قيم التضامن استحضاراً لذكرى ثورة جسدت عمق روابط المحبة «بين ملك فضل المنفى على المساومة بوحدة الوطن وسيادته وشعب قدم تضحيات جسيمة من أجل عودة ملكه الشرعي واسترجاع الحرية والكرامة».

وغير خاف أن اعتبار ذكرى ثورة الملك والشعب مناسبة لتجديد العهد من أجل المضي في تحقيق المنجزات والنهوض بمختلف القضايا واستكمال ما قامت الثورة من أجله بالعمل على تحقيق الوحدة الترابية للمملكة المغربية وهي من أولويات أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أعز الله أمره، الذي عبر عن ذلك بقوله: «إن روح ثورة عشرين غشت الخالدة بما تحملته من معاني التضحية والتضامن والوفاء في سبيل الوطن ستبقى تنير طريقنا وتلهم الأجيال المتعاقبة في كل الوحدة الوطنية والترابية والأمن والاستقرار».

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتوجه إلى العلي القدير بالدعاء بالرحمة والمغفرة لكل التحرير والوحدة جلالة الملك المجاهد مولانا محمد الخامس لهيب الله ثراه ووارث سره في الكفاح جلالة الملك الباني مولانا الحسن الثاني أكرم الله مثواه وكافة الشهداء الأبرار.

لذا يسعد هيئة تحرير مجلة دعوة الحق أن تخصص هذا العدد للذكرى السبعين لثورة الملك والشعب، وذلك بمساهمة مجموعة من العلماء العاملين والأساتذة المتخصصين والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير
د. عبد الحميد العلمي



ذكرى ثورة الملك والشعب أبعاد وأمجاد

• ذ. إبراهيم الوافي

رئيس المجلس العلمي لإنزكان أيت ملول

إن رصيد الأمم من ذكرياتها، في الدفاع عن كيانها ووحدتها ترابها، وما سجلته في تاريخها من كفاح وبطولات وأمجاد، ليعد تاجا فوق هامتها، تقاس به مكانتها بين الأمم، كما يعد رأس مالها اللامادي، الذي تذخره لحماية نفسها وجذورها، وصيانة مكتسباتها، وللمحافظة على مكوناتها من التقلبات، وما يعرفه العالم حولها من المتغيرات، لا سيما في عهد الزحف العولمي المتواصل، المدعوم بثورة تقنيات التواصل المعلوماتية، وما وراءها من الهيآت المتعددة الجنسيات، الداعمة لها في كل المبادرات، وما لذلك من أثر على خصوصيات الأمم والشعوب، ومستقبل ثوابتها وهويتها، وقضاياها الاجتماعية والثقافية والفكرية؛

وهذا الأمر يستدعي من الشعوب المتفاعلة مع مد العولمة، مضاعفة جهودها في التكيف والتلاؤم، مع قوة المؤثرات الطارئة والمتنامية، بما يسمح لها بتحقيق التوازن بين الاستفادة من العولمة، وعدم الانسلاخ من الجذور والخصوصيات، التي تميزها عن غيرها، وهذا يقتضي من شعوب العالم، أن تُفَعِّل مبدأ ترسيخ وتأصيل الثوابت، وجعل عقيدتها ومبادئها مقدمة في تربية أجيالها، مهما كلفها ذلك من ثمن، إن هي أرادت الإبقاء على استمرار وجودها، بطابعها الحضاري والعمراني المعروفة به بين بلدان العالم. وهذا لن يتأتى لها إلا بالعناية برصيدها العلمي والمعرفي، وإطلاع أجيالها على بصماتها التاريخية، وربطهم بمناسبات بلادهم وذكرياتهم الدينية والوطنية، لتثبيت ما لديها من مقومات، وجعلهم يحافظون على ما لبلادهم من منجزات، والاعتزاز بما في تاريخهم من بطولات ومؤثرات، التي تشكل نبراسا لمسار شعوبها، واستمدادا لأجيالها، من خلال ما ترمز إليه من أبعاد، وما تخلده من أمجاد، كاشفة عن الهوية والانتماء، ومحافظة على الذات والولاء والبراء.

ولم يفت المغاربة في تاريخهم العريق، أن أغنوه بروائع الأحداث والبطولات، وسجلوا فيه المواقف والذكريات، ما يجعل أجيالهم تعتز بتاريخ بلادهم، وما بالعهد من قدم، فبالأمس رصعوا بمداد العزة

والاعتزاز، ما عرف بثورة الملك والشعب، التي يخلد الشعب المغربي اليوم ذكرها السبعين المجيدة الخالدة، التي توجت كفاحا بطوليا، خاضه الملك والشعب، ولقنا فيه المستعمر الفرنسي والإسباني ما لم يخطر لهم على بال، ولم يغمض للمغاربة جفن حتى أخرجوا المستعمر من أرضهم وديارهم، بفضل الالتحام المكين بين العرش والشعب، والتضامن المنقطع النظير بين مختلف فئات المجتمع، وخلايا المقاومة المنظمة، التي صارت تسدد الضربات الموجعة للمستعمر ومن يدور في فلكه، مسجلة بذلك مواقف بطولية، رصعت هامة هذه الذكرى الخالدة، وأعطتها ما تستحق من الاهتمام والتخليد، وما تنطوي عليه من أبعاد وأمجاد، بإمكانها أن تسهم في تجديد حيوية الشباب، وجعله يعتز بأمجاد وطنه، ويذكر في ما تحلى به أولئك الأبطال، من روح التضامن والنضال، مع تحفيزه في الانخراط بجد ونشاط، في مشاريع النماء والمسيرات، والتحلي باليقظة والتبصر، في شأن ما يحاك ضد بلاده من المؤامرات والمناورات؛ ليكون على بينة واستعداد لمواجهة كل الظروف والمستجدات.

وكل الدروس والعبر المنتظر استخلاصها من روح هذه الذكرى، من خلال استجلاء مكانتها، وقراءة مختلف جوانبها، بحسب ما تقتضيه الأحوال التي تمر منها البلاد، تعتبر من الدروس الخالدة، المسهمة في الإبقاء على التواصل المستمر بين صناع تاريخ المغرب وأمجاده، ورابطة لماضيه بحاضره، ومستشفة لأبعاد مستقبله، وملهمة لتجديد النظر في أحداثه؛ وتوظيفها في مواجهة التحديات، على مختلف الأصعدة والمجالات. علما بأن رصيد المغرب من أنواع هذه البطولات، التي تعلي كعبه في مواجهة التحديات، مما لا يخفى أثره، ولا يخفى إشعاعه، ولا يُجهل قدره ومقداره، وهي أحداث جديرة بأن تكتب بماء الذهب؛ لأنها مرصعة لجبين المغرب، وتعزز جانبها في دفاعه المجيد، نذكر من أهمها وقعة الزلاقة،¹ ووقعة الأرك،² ووقعة وادي المخازن،³ وثورة الملك والشعب،⁴ وهلم جرا؛ ولكل من أيام المغرب هذه وقعه وطعمه ونكهته، تبعا لما ارتبط به من أحداث ومجريات، وما أحاط به من ملابسات وذكريات؛ لكنها تصب جميعها في زخم الدفاع المغربي عن أرضه وبلاده، وإبعاد الغزاة عن حوزته، حفاظا على عزته وكرامته.

1 - وقعت يوم الجمعة 12 رجب 479هـ / 23 أكتوبر 1086م، بين جيش المرابطين بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين، والإسبان بقيادة الملك ألفونسو السادس.

2 - وقعت معركة الأرك في 09 شعبان 591هـ / 18 يوليوز 1195م، بين جيش الموحيدين بقيادة يعقوب المنصور، وقوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن.

3 - وقعت معركة وادي المخازن بين جيش السعديين والقوات الغازية بزعامة الملك البرتغالي سباستيان الأول، وذلك في 30 جمادى الأولى 986هـ / 04 غشت 1578م.

4 - في 20 غشت 1953م.

فقد كان ممن ابتلي به لأول مرة من تاريخه العريق، في الحملة الصليبية الاستعمارية الشرسة، في مطالع العقد الثاني من القرن العشرين، نظام الحجر والحماية، الذي فرض على المغرب ظلما وعدوانا، وهو الدولة العريقة في التنظيم والمؤسسات، باعتراف العتات من الغزاة، ولم تستكن لهم الدولة المغربية ورجالها، وظلوا معهم في مد وجزر لمدة ثلاث وأربعين عاما، يهاجمون ويكافحون ويناورون، ويناوون من العدو مثل ما ينال منهم، إلى أن طردوه عن أرضهم وبلادهم، وحصلوا على استقلالهم عام 1955م.

وقد كلفت مواجهات المقاومة المستمرة وغير المتكافئة، ما كلفته من أموال وأرواح، واحتاجت إلى تخطيط سري وحسن تدبير، إلى أن بلغ الأمر أشده من المضايقات على رمز البلاد، فثارت ثائرة السلطان المجاهد مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، الذي لم يقبل إملاءات الحماية وتعسفاتها، بل أعلن في وجهها العزم على مواجهتها، مسترخضا التضحية بملكه وعرشه، وراحته وراحة أسرته، ولم يعد يرى أمامه شيئا سوى استقلال بلاده، فأقدم الاستعمار الفرنسي على نفيه وإجلائه عن عرشه إلى كورسيكا، ومنها إلى مدغشقر، حيث تجرع مع أسرته الشريفة المجاهدة مرارة الغربة والمنفى، على مدى سنتين، ظل فيها من جهته يحاور ويفاوض، وظل الشعب الثائر يقاوم ويستبسل ويناضل، ويحقق الانتصارات ضد المستعمر، فتنامى العمل الفدائي المغربي المتميز، واتخذ أشكالا لا عهد للمستعمر بها، فما لبثت المقاومة أن زلزلت أقدامه، وصار يعد أيامه، بما أحس به من النضالات المتتالية، التي أشعرته بخطئه الفادح في نفي أب الأمة، واتضح له أن عزم المغاربة على إخراجه من بلادهم عزم لا مرد له، ولم يبق أمامه من بديل، غير الخروج والرحيل.

لقد عرف المغرب في الفترة التي نفي فيها رمز الحرية والاستقلال، المحتضن لمقاومتها وحركتها الوطنية، أحداثا عصبية يشيب لها الولدان، بسبب اشتداد المقاومة وإمعان المستعمر في التنكيل والطغيان، ولكن الشعب المغربي الأبي، قام عن بكرة أبيه مقاوما ورافضا للاحتلال، مسترخضا كل شيء في سبيل حريته، واستقلال بلاده، ولم تنفرج تلك الأجواء إلا بعد عودة السلطان الشرعي إلى عرشه، وخروج الاستعمار إلى غير رجعة، يجر أذيال الخيبة والخسران.

فكانت بذلك ذكرى ثورة الملك والشعب، من الذكريات المتميزة والفريدة من نوعها في تاريخ المغرب الحديث، فقد حقق المغرب فيها من الانتصار، ما لم يكن يتوقعه الاستعمار، وبرهن فيها الشعب المغربي عن وعيه وتضامنه، ودراية فائقة بما ينبغي الأخذ به بعد نفي ملكه، وتنصيب الاستعمار لابن عرفة، كما عرف كيف يدير حركة المقاومة في حوالك الظروف، وتحت إحكام القبضة واشتداد الأزمة، مما جرع المستعمر مرارة المقاومة الموجهة، التي سادت روحها في كافة ربوع الوطن، ونجحت خططها في الكيد للمستعمر، وتوالت تحركاتها في المدن والقرى، وأبانت عن العبقرية المغربية، في

إبداع دروس المقاومة الوطنية، وسجلت بذلك للأجيال ما عليهم أن يتعلموه ويدرسوه، باعتباره جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الأمة الحديث، لما له من أبعاد عميقة، ودلالات موفقة، على تلك الصلة الوطيدة، التي تربط الشعب المغربي وملوك الدوحة العلوية المجيدة، فقد دوى صيت هذا الحدث في العالم، وصار نموذجاً يحتذى في تحرير الأوطان، مستحقاً للعناية والدراسة في كل مكان؛ لما فيه من روح التلاحم والتضحيات، والوفاء للشوائب والارتباطات، التي يعز نظيرها بين الشعوب وقادتها.

وَمَنْ طَمَحَ من الأجيال، إلى المزيد من التحقق والإمعان؛ ليقف على الدليل والبرهان، فلا أحسن له من قراءة وتدبر ما دون في شأن هذه الأحداث، من أوله إلى آخره، فلا يجد إلا ما يثلج صدره مما صنعه المغاربة في ملحمة التحرير، من أجل طرد المستعمر من بلادهم، ومواصلة تحرير باقي أجزائها المغتصبة، مثل طرfaية، وسيدي إفني، والساقية الحمراء، ووادي الذهب، والمغرب دوماً عينه على استرجاع باقي ثغوره وجيوبه المغتصبة، وما ضاع حق وراءه طالب.

إن استلهم الأجيال الصاعدة من تاريخهم الحافل بالدروس والعبر، بكافة مكوناته الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها، يجعل منهم قادرين على التحلي بروح الدفاع عن أنفسهم، وعن حوزة بلادهم، وعدم التفريط ولو في شبر من أرضهم، أو حبة رمل من ترابهم، بكل ما أوتوه من عزم وحزم وقوة، فيخطئ في الحساب، من يعتقد أنه سيجلي المغاربة عن أرضهم، أو يفرح بهزيمتهم في يوم من الأيام، فما جناه منذ ما يقرب من خمسين عاماً، هو الذي ينتظره في الباقي، وليس أمامه إن لم يتراجع عن غيه ودعوته الانفصالية؛ إلا السحق والمحق والإبعاد، ﴿وَإِنْ تَعُولُوا نَعْمَ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.⁵

فالمغاربة الأحرار الذين تكتلوا في وجه عدوهم عبر تاريخهم، ودافعوا عن أرضهم ووحدة ترابهم، يقوم أبناؤهم البررة بالدفاع عن حوزة الوطن، فكما حماه السابق بالأمس من المتربصين، يحميه اللاحق من الحاسدين، والماكرين والمارقين، ولا تواني ولا استسلام، ولا تنازل عن الحق لأي كان، فأرض المغرب أرضه، وسماؤه سماؤه، وبحره بحره، وتغيير الحال على أرض الواقع من المحال، فهل حفنة من مشيري الشغب والفتنة، تقارن بمصير المستعمر الفرنسي والإسباني بالأمس، فدروس المناوئة للعدو والتفنن فيها، لا يخفى أن للمغاربة فيها اليد الطولى، فمن أراد أن يعرف أنواع المقاومة والكفاح، فعليه بالتلمذ للمغاربة الأقحاح، فهم الذين لقنوها للعالم، وهم على استعداد لأن يواجهوا أعداءهم بما لا قبل لهم به.

ووفاء للذكرى الخالدة ذكرى ثورة الملك والشعب، بقيادة بطل التحرير وقائد البلاد، الذي صنع مع شعبه ملحمة يعز نظيرها، يحيي المغاربة قاطبة، قمة وقاعدة، هذه الذكرى السبعين، التي وضعوا فيها حدا للاستعمار، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل مجد الوطن وعزته، وما ضعفوا وما استكانوا، بل قاموا قومة رجل واحد، وقاوموه بكل ما أوتوه، في جميع جهات الوطن، مطالبين بالحرية والاستقلال، وعودة ملكهم الشرعي، الذي أجمعوا على بيعته، وهو السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، ولم يرضوا به بديلا، فهو قائدهم الملهم، في كفاحهم المنظم، الذي ضحى من أجل حرية بلاده واستقلالها، وأشعر المستعمر بمواقفه الشجاعة، وهيبته المطاعة، بأن لا مقام له في المغرب غير تركه لأهله، والرجوع إلى بلاده، ولم يعد يُقبل منه ما يلجأ إليه من المناورات والترهيب والتقتيل، واعتماد الترهات والأباطيل. «فالحق أبلج، والباطل لجلج»⁶ قال الحسن بن علي رضي الله عنه في حوار له مع معاوية:

الحقّ أبلج ما تخون سبيله *** والصدق يعرفه ذوو الألباب⁷

وقال الطائي:

الحقّ أبلج والسيوف عوار *** فحذار من أسد العرين حذار⁸

6 - الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس المبرد (1: 16).

7 - المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي، المتوفى سنة 320هـ، (ص: 38).

8 - الحماسة المغربية لأبي العباس الجراوي التادلي، المتوفى عام 609هـ، (2: 1246).

الخط الناظم في ذكرى ثورة الملك والشعب

• ذ. أحمد الشكري

جامعة محمد الخامس، الرباط

شكلت لحظة إعلان استقلال البلاد من نير الاستعمار الغاشم قبسا نورانيا في التاريخ المعاصر للمملكة المغربية الشريفة؛ وحين العودة لاستحضار الحدث كثمرة مباشرة لملحمة ثورة الملك والشعب في 20 غشت 1953م، يغشانا إحساس تعجز الكلمات عن الإحاطة بأبعاده الحسية والوجدانية. إنه إحساس الوطنية الغامرة التي تجمع أفراد الشعب المغربي قمة وقاعدة، وتوحد جهود الجميع في سبيل خدمة الوطن.

وقد يحار المرء في الفهم البيداغوجي لهذه الحالة التاريخية، إذ يصعب إدراك كنهها وروحها. من ثمة، فإن حالة الانتشاء، التي يحسها البعض ممن قاوم الاستعمار وعاصر لحظة الاستقلال، تدفعهم - أحيانا - إلى معاتبة فئة الشباب، رغبة في إذكاء وطنيتهم. كلما استلزم الأمر توضيحا أو بيان حال من جانب الأجيال اللاحقة، كانت الوقائع تشهد على أن الشباب الذين لم يشهدوا مرحلة الاستعمار وإكراهاتها، ليسوا أقل وطنية من أجدادهم وآبائهم. وهذا ما تعكسه ملحمة المسيرة الخضراء عام 1975م على عهد المغفور له الراحل الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، كما تعكسه أيضا الثورة الهادئة في جميع القطاعات تحت قيادة جلالة الملك محمد السادس حفظه الله، والتي بلغت في عدد من المجالات سقفا عاليا، وحداً غير مسبوق إفريقيا وعربيا.

وما من شك أن مثل هذه المعطيات تبرز بشكل جلي وواضح أن روح ثورة الملك والشعب تسري في عروق المغاربة قمة وقاعدة، وأن الاحتفاء بذكرائها، واستحضار مغزاها، هو نوع من التمرين الذهني الهادف لتقوية الخلفية الوطنية لكل جيل صاعد. ذلك أن علاقة العرش بالشعب، وإن استطلت بوثيقة البيعة والعلاقات الروحية المرسّخة لها، فإنها تكاد تنفلت من عقال التعيين المادي.

السياق التاريخي لثورة الملك والشعب

تُعدّ العقود السبعة الفاصلة بين تاريخ معركة إيسلي (غشت 1844م)¹ وتاريخ إعلان الحماية الفرنسية بالمغرب شهر مارس 1912م، مرحلة صعبة في تاريخ البلاد على مختلف الأصعدة؛ وفي هذا السياق، كانت البلاد مجبرة على مقاومة تدخلات واستفزازات القوى الأوروبية الاستعمارية، خاصة بعد أن تبلورت بشكل واضح بعد مؤتمر برلين 84-1885م، مما مكّن الدول الأوروبية من تقسيم إفريقيا فيما بينها.²

وبينما كانت الأقطار الإفريقية تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، وتسقط في يد الاستعمار الأوروبي تباعا، ظل أهل المغرب صامدين يقاومون رياحا عاتية، الأمر الذي جعل أهل الجزائر يستنجدون بإخوانهم المغاربة غير ما مرة لدفع العدوان الفرنسي، ومنهم من هاجر للاستقرار به.³ ويشهد المؤرخ أحمد بن خالد الناصري (ت. 1897م)، في مؤلفه كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (القسم الخاص بالدولة العلوية) على مدى المصاعب الجمة التي عاناها وتحملها المغرب طيلة القرن 19م في سبيل الوقوف إلى جانب إخوانهم الجزائريين.

و ذات الأمر حصل مع أهل تنبكت بمالي، إذ بمجرد ما استشعروا خطر التهديدات العسكرية الفرنسية تجاه مدينتهم الخالدة، حتى بادر فقهاء المدينة مطلع العقد الأخير من القرن 19م إلى مراسلة السلطان مولاي الحسن الأول طلبا للنجدة والمساعدة برسم صدّ العدوان الاستعماري.⁴

1 - إلى غاية نهاية العقد الرابع من القرن 19م، احتفظت المملكة المغربية الشريفة بهيبة معتبرة في الساحة الأوروبية، تردع كل من سولت له نفسه التناول على سيادتها. على أن انكسار الجيش المغربي أمام الجيش الفرنسي في معركة إيسلي سنة 1844م، ثم انهزامه ضد الإسبان في معركة تطوان 1860م، كشف المستور وعزّى عن مدى الضعف الذي تعانيه المملكة. ولمن رام استحضار بعض أبعاد الصورة المهيبة للمغرب لدى النخبة الفرنسية سنوات قليلة قبل المعركة المذكورة، يراجع:

Raimond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire*, (1^{ère} édition 1842), Paris : Librairie de Firmin Didot Frères, 2 éd., 1845.

2 - عند بداية العقد التاسع من القرن 19م، وجدت الكثير من الدول الأوروبية (14 دولة) نفسها في حالة صراع مع بعضها البعض حول مسألة النفوذ في إفريقيا مما بات يهدد السلم الدولي، ولتجاوز هذا الإشكال الجدي، التأمت الزعامات الأوروبية في برلين للتداول في الأمر برسم حله بأنسب الوسائل الممكنة، وذلك خلال الفترة المتراوحة ما بين 15 نوفمبر 1884م إلى 26 فبراير 1885م. ويمكن القول إن مؤتمر برلين سهّل عملية الهيمنة والسيطرة الاستعمارية بشكل دبلوماسي ودون إراقة دماء فيما بين القوى الأوروبية في الكثير من الأحيان، ثم إنه شرعن عملية الاستعمار في جل أنحاء وجهات إفريقيا. ولعل أكبر دليل يترجم هذه الحالة، أنه قبل انعقاد مؤتمر برلين 1884-1885م كانت نسبة المستعمرات الأوروبية لا تصل إلى 10 في المائة من مجمل الأراضي الإفريقية (تونس 1881م ومصر 1882م)، لكن بعد حوالي 15 سنة أي عند نهاية القرن 19م، ارتفعت هذه النسبة إلى ما يناهز 90 في المائة.

3 - إدريس بوهليلة، الجزائريون في تطوان خلال القرن 19م، تطوان: مطبعة الهداية، 2012م.

4 - زليخة بنرمضان، «بيعة أهالي تنبكت لمولاي الحسن الأول من خلال وثيقتين رسميتين: محاولة دراسة وتحليل»، دعوة الحق، العدد 421، رمضان 1438هـ/ 2017م. ص 109-125.

وبالنظر لقوة الصمود، فقد تأخر إخضاع المغرب للقوات الاستعمارية الأوروبية مقارنة بباقي الأقطار الإفريقية؛ ثم إنه بمجرد ما شاع خبر فرض عقد الحماية العام 1912م، انتفض جميع المغاربة من أقصى تخوم الصحراء إلى جبال الريف في أقصى الشمال، وانتظموا في سلك المقاومة المسلحة للدفاع عن بلدهم. وقد احتاجت فرنسا وإسبانيا المدججتين بمختلف الآلات العسكرية المتطورة، ومنها أسراب الطائرات والسفن الحربية، إلى ما يناهز ثلاثة عقود من الزمان لاستكمال ما سمي بمرحلة تمهيد المغرب، وبسط النفوذ على مختلف أجزائه.

وفي الوقت الذي أحس فيه الاستعمار الفرنسي وصنوه الإسباني بنوع من الاطمئنان جراء خفوت صوت المقاومة المسلحة المغربية قبيل منتصف العقد الرابع من القرن الماضي، شرعت الفئات المتنورة في الكثير من المدن والحوضر المغربية في إشعال ثورة ذات طبيعة سياسية، تبلورت مقاصدها تدريجيا، واستمر نشاطها فاعلا ومؤثرا إلى أن بلغت مُناها بنيل الكرامة والاستقلال عام 1956م.

وعلى الرغم مما أصاب المغرب والمغاربة جراء الاستعمار الفرنسي، فقد اختارت حكمة المغفور له السلطان المجاهد محمد الخامس طيب الله ثراه رفقة الزعامات الوطنية، الوقوف بجانب الشعوب المتطلعة للحرية، فبادروا عن طوعية إلى مساعدة فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، واصطفوا إلى جانب الفرنسيين ضد المد الألماني النازي. وبالموازاة مع ذلك، كانت للسلطان التفاتة جريئة ومحمودة تجاه اليهود المغاربة، حيث عمل على حمايتهم من السطوة الغاشمة للنازيين الألمان (الهولوكوست أو ما يعرف بالإبادة الجماعية لليهود).

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية عام 1945م، تعاظمت طموحات السلطان محمد بن يوسف مدعوما بقيادات الحركة الوطنية ومختلف فئات الشعب، وقويت الرغبة في نيل الاستقلال عن فرنسا باعتبار دور المقاومة المدعوم عمليا وأخلاقيا بالخدمات الجلّى التي قدّمها لهم المغاربة أثناء الحرب العالمية الثانية.⁵ بيد أن الإلحاح في طلب الحرية، وجد تعنتا وصدا من جانب الإدارة الاستعمارية الفرنسية، التي حاولت في بداية الأمر امتصاص الغضب الشعبي المتزايد، بيد أنها سرعان ما عادت لسلوكها المعتاد في البطش أملا في إسكات كل صوت مندّد بتسلطها وجبروتها، فجاءت بالمقيم العسكري الجنرال جوان، سعيًا لإحكام قبضتها الحديدية بسياسة متشددة قائمة على التهريب والتهديد، طالت زعماء الحركة الوطنية وغيرهم من أبناء الشعب الأوفياء؛ وتبعًا لذلك، تمّ سجن ونفي عدد غير قليل

5 - لعل من أبرز الشواهد الدالة على تعاظم الطموحات المغربية: اجتماع السلطان بزماء الحلفاء بالدار البيضاء 1943م، ثم تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944م، وأخيرا خطاب طنجة في أبريل 1947م.

منهم، مثل الزعيم المناضل علال الفاسي (ت. 1974م) والزعيم المناضل محمد بن الحسن الوزاني (ت. 1978م).

وكلما ازداد بطش الإدارة الاستعمارية، ازدادت قوة الإيمان بعدالة القضية لدى السلطان محمد الخامس ورفاقه من رجالات الحركة الوطنية، وتجذّر التلاحم بين العرش ومختلف فئات الشعب. وفي سياق هذه الأحداث العنيفة والمتواترة، برز هاجس فك الارتباط بين العرش والشعب كحاجة ضرورية لإخماد صوت الثورة في وجه الاستعمار، فلاحت للجنرال كيوم (المقيم العام الفرنسي الجديد بالمغرب) فكرة عزل ونفي السلطان محمد الخامس، ووضع محمد بن عرفة مكانه، رغبة في تفتيت وشائج اللّحمة الرابطة بين القصر والقاعدة الشعبية.

كانت هذه المؤامرة الدنيئة والفكرة الخبيثة، التي أقدمت عليها الإدارة الاستعمارية الفرنسية يوم 20 غشت 1953م، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، أو النقطة التي أفاضت الكأس، لأن المساس بشخص السلطان رمز الأمة وعنوان السيادة الوطنية، حدث جلل بالنسبة للمغاربة، ويمس في العمق تلك الروح التي توقفنا عند بعض مظاهرها فيما تقدم. وكان طبيعيا أن ينهض المغرب من أقصاه إلى أقصاه في وجه الاستعمار الفرنسي، فارتفعت الأصوات المنددة بهذا الفعل الشائن، خاصة في المساجد، التي احتضنت انطلاق الكثير من المظاهرات، ثم تتالت العمليات الجهادية في مختلف أنحاء البلاد، ومنها عمليات الشهيدان علال بن عبد الله (ت. 1953م) ومحمد الزرقطوني (ت. 1954م).⁶

وفي خضم حراك المقاومة بكل أقطار المغرب العربي (اشتعال الثورة الجزائرية، ناهيك عن ضغوطات المقاومة التونسية)، أدرك الفرنسيون حجم الخسائر الناجمة عن فعلتهم، فاضطروا للتفاوض مع السلطان رفقة رجالات الحركة الوطنية، وانتهت المفاوضات إلى عودة الأسرة الملكية من منفاهما والإعلان عن استقلال البلاد من نير الاستعمار الغاشم سنة 1956م.⁷

وأثناء العودة المظفرة للملك المجاهد محمد بن يوسف طيب الله ثراه لأرض الوطن صحبة أسرته الشريفة، خاطب شعبه محتفيا بالإنجاز المحصّل، ثم أطلق عبارته الشهيرة، والتي ما يزال صداها حاضرا بقوة في وجدان المغاربة قاطبة: «إننا رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

6 - علال الخديمي، «أصول ثورة الملك والشعب»، مجلة المقاومة وجيش التحرير، 48، 1997م. ص. 58-64. إبراهيم بوطالب وآخرون، تاريخ المغرب، الرباط: مطابع الرباط، 2018م، تعريب: محمد الغرايب - وعبد العزيز بلقايدة - ومحمد العرجوني. ص. 495-529.

7 - إذا كانت العوامل المحلية والإقليمية السالفة الذكر، قد رسخت قناعة فرنسا بضرورة المفاوضات برسم نيل الاستقلال، فإن الأحداث الدولية هي الأخرى، كان لها أيضا تأثير غير هين في تعزيز هذا التوجه، نذكر منها على الخصوص، تلك الدعوات الحارة برسم معانقة نسائم الحرية مما صدر عقب انعقاد مؤتمر باندونج بإندونيسيا في 24 أبريل 1955م.

من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

لعل الخلاصة التي انتهى إليها الوعي المغربي من عبارة السلطان محمد الخامس قدس الله روحه، تفيد التوجه نحو المستقبل، وعدم إثقال حاضرننا بهواجس الماضي أو حتى بإنجازاته الباهرة. إنها فلسفة في الحياة، تقضي بالعمل الجاد والمستمر دون انقطاع، وهذا هو الشرط الكفيل بأن يجعلنا خير خلف لخير سلف؛ ويمثل هذا النهج البسيط والعميق في دلالاته كنه الشفرة الجينية التي يتوارثها المغاربة أبا عن جد منذ آماذ بعيدة، مما يجعل العلاقة بين العرش والشعب - دائما وأبدا - في حالة ثورة متجددة، ومتأهبة لمواصلة رحلة البناء الحضاري والإنساني.

إن الروح التي غزت ثورة الملك والشعب سنة 1953م، هي نفسها الروح المغذية لمشاعر المغاربة أثناء صناعة الملاحم التاريخية الخالدة سواء في الماضي البعيد أو الحاضر الماثل أمامنا: معركة وادي المخازن 1578م، والمسيرة الخضراء 1975م.

وهذا التلاحم الفريد بين العرش والشعب، يجعل كل شيء ممكنا ولو بدا معجزا. والسر في ذلك أن كل جانب منهما مستعد للتضحية بأعز ما لديه في سبيل الآخر، وحينما تتكتل قواهما لبلوغ هدف مسطر، يتجاوز الإنجاز أفق الانتظار. وخلاصة التجربة، أن كل جيل يأتي ليأخذ مكانه في حياة الوطن، يقف بداية احتراماً ليشهد على عبقرية الجيل السابق، ثم يعمل على إضافة لبنة أخرى في صرح العمارة الحضارية المغربية رغبة في كسب ثقة وتقدير الجيل اللاحق.

ولو أردنا التوقف عند سلسلة الإنجازات في التاريخ المعاصر لضاق بها المقام، فإذا كان المغفور له السلطان محمد الخامس (ت. 1961م) قد حاز لقب محرر البلاد واحتل مكانة معتبرة في وجدان المغاربة، فإن ولي عهده وخليفته جلالة الملك الحسن الثاني (1961-1999م)⁸، قدس الله روحه يعدّ واضع أسس الدولة الحديثة للمغرب في التاريخ المعاصر. ومن إنجازاته الدالة على بعد نظره، سياسته الرشيدة في مجال إنشاء السدود، مما وفرّ للمغرب الماء لكافة الاستعمالات، لتحقيق اكتفاء ذاتي بالنسبة للعديد من المواد الغذائية الحيوية؛ وقد أثبتت الكثير من التجارب على الساحة الدولية والإقليمية حصافة رأيه وصواب توقعاته.

وفي ظل نهج الاستمرارية وتدعيم صرح الإنجازات، كان لافتاً أن يأمر جلالة الملك محمد السادس -نصره الله- سنة 2017م بإقامة متحف بمراكش لعرض تاريخ وحضارة الماء بالمغرب، اعترافاً وتقديراً

8 - ولد الملك الحسن الثاني بالرباط عام 1929م، وبرزت مواهبه السياسة خلال مرحلة الشباب، إذ كان الساعد الأيمن لوالده الملك محمد بن يوسف زمن الحماية والسنوات الأولى من الاستقلال، تولى حكم المغرب بعد وفاة والده سنة 1961م، واستمر عهده إلى غاية سنة 1999م.

لمنجزات جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في ميدان تدبير الثروة المائية؛ والمتحف وإن شكل علامة تقدير للأسلاف، فإنه من جهة أخرى تأكيد على مواصلة المشوار بنفس الهمة والطموح.

وكان جلالة الملك الحسن الثاني مبدع المسيرة الخضراء عام 1975م، التي تمكّن المغرب بفضلها من استكمال تحرير باقي أجزاء ترابه الوطني، واسترجاع الأقاليم الصحراوية دون إراقة نقطة دم مع المستعمر الإسباني. وتلك مزية تدلنا على مدى عبقريته وحنكته السياسية؛ وليس من قبيل الصدفة أن تتداول اسمه أرقى المجالس والمنتديات السياسية العالمية للإشادة بحدة بصيرته، وميله لخدمة السلام العالمي سواء تعلق الأمر بالجانب السياسي أو الديني أو الثقافي. وبقدر ما كان منفتحاً على ثقافات العالم وحضارته المادية، بقدر ما كان لديه حرص شديد وولع كبير بمختلف مظاهر التراث المغربي الأصيل، فكان يشجع المغاربة على حفظه وإشاعته، ولنا في تشييده لتلك التحفة المعمارية الفريدة، المتمثلة في مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء 1993م، نموذجاً حياً لطموحاته وتطلعاته بهذا الشأن.

منعطف الألفية الثالثة: جلالة الملك محمد السادس - نصره الله - والثورة الهادئة

خلال العقد الأخير من القرن الماضي، كان المغرب يعيش أزمة اقتصادية وسياسية حرجية، فاستبق المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني الأحداث، وهياً الظروف المناسبة لتولي حكومة التناوب (14 مارس 1998 - 9 سبتمبر 2002م)، ومنحها كل الدعم اللازم، أملاً في تجاوز أو بالأحرى التخفيف من حدة المشكل السياسي. وغني عن البيان، أنه بدون توفر عنصر الاستقرار السياسي، يصعب حلّ المعضلات الاقتصادية، ومنها المديونية والبطالة والهشاشة الاجتماعية وضعف النسيج الصناعي إلى غير ذلك من المشاكل المرتبطة بالقطاع الفلاحي أو قطاع الخدمات.⁹

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن، أن العالم عرف خلال العقد الأخير من الألفية الثانية أحداثاً جساماً، تمثلت أهم وقائعها في انهيار جدار برلين 1989م، وما تلا ذلك من تهاوي المعسكر الشرقي، وانفصال

9 - غير خاف، أن المغرب لم يكن محظوظاً بشأن الكثير من الدول العربية أو الإفريقية المنتجة للنفط (حيث تساعدها مداخيله في تعزيز محصلات البلاد من العملة الصعبة)؛ بل كان مجبراً على شرائه مما كان يرهق ميزانية الدولة؛ وإذا أضفنا لذلك إكراهات العولة والمستلزمات المالية المرصودة لتنمية أقاليمنا الجنوبية المسترجعة، ناهيك عن تكلفة تأمين الحدود، يمكننا حينئذ تفهم صعوبات الأوضاع التي كان يعيشها المغرب. وفي محاولة لتدوين هذه المشاكل من خلال تشكيل كتلة مناهضة للتخلف في مختلف مظاهره لدى أبناء المغرب العربي، بادر المغفور له الملك الحسن الثاني لإنشاء اتحاد المغرب العربي، الذي أعلن عن قيامه بموجب اتفاقية مراكش في فبراير 1989م. لكن هذا التوجه الرامي لبناء مستقبل الشعوب المغاربية في ظل الوحدة، وجد تعنتاً من جانب الجزائر المهووسة بوهم أولوية المدخل السياسي، إذ كان المنطق لديها يقضي بتفتيت المنطقة، وخلق كيانات وهمية جديدة، ثم بعد ذلك يمكن أن نتحدث عن وحدة المغرب العربي !!!

حوالي 15 دولة عن جسم الاتحاد السوفياتي، جلّها تقع في الجهة الغربية أو الجهة الغربية الجنوبية. وبذلك انفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية (USA) لتبرز كقائد وحيد وأوحد للعالم: مرحلة سيادة القطبية الأحادية.

في ظل هذه الأوضاع المستجدة، كان المغرب يعاني من المشاكل الصعبة مما أومأنا له سابقا. وحينما تولى الحكم جلالة الملك محمد السادس نصره الله عام 1999م، كانت الكثير من الملفات، خاصة الاقتصادية منها، بحاجة لمعالجة دقيقة ومتبصرة، تأخذ بعين الاعتبار التوازنات الاستراتيجية الدولية الجديدة، وحساباتها السياسية والاجتماعية.

ثم إن المغرب جراء اعتراف منظمة الوحدة الإفريقية (الاتحاد الإفريقي لاحقا) بالانفصاليين (البوليزاريو)، اضطر للانسحاب من المنظمة المذكورة عام 1984م، مع الحفاظ على علاقات طيبة مع الكثير من الدول الإفريقية الصديقة. غير أن هاته الوضعية التي اضطر إليها اضطرارا، كانت مزعجة للغاية ليس فحسب للديبلوماسية المغربية، وإنما أيضا لكثير من الدول الإفريقية الصديقة والشقيقة. وكان الموقف بحاجة لرؤية اقتصادية متبصرة، تدمج في ثناياها الأبعاد السياسية والاجتماعية.

ويظهر أن هذه الأحمال العظيمة الشأن، لم تثقل كاهل العاهل المغربي محمد السادس -نصره الله- في بداية عهده، ثم إنها لم تؤثر قط على علاقته بشعبه الوفي، بل ساهمت في تقوية أواصر الوثاق اللاحم بين الشعب والعرش حتى في أحلك الظروف؛ وأبعد من ذلك، فإن جلالته من كثرة مخالطته للفئات الهشة، واهتمامه بها، بادر منذ اعتلائه عرش أسلافه (1999م) بإنشاء مؤسسة محمد الخامس للتضامن، رغبة في التخفيف من حدة الفقر والعناية بشؤون الفقراء والمحتاجين ولم يكن غريبا بعدها يلقب ملك الفقراء.¹⁰

النموذج الاقتصادي والأمل في إحياء مؤسسة الاتحاد المغربي

اتسم العهد الجديد بسمتين بارزتين، أولاهما تتعلق بما سبقت إليه الإشارة من تحقيق الاستمرارية ومراكمة التجارب المغذية للأساس السابق؛ وثانيتها تعلن عن الطابع المميز له والخاص به. ولئن

10 - يذكر الكثير من أبناء العدوتين (الرباط وسلا) وغيرهما من مدن المغرب، أن العاهل المغربي خلال السنوات الأولى من حكمه، كان يتجول فيها بسيارته الخاصة دون مرافقة من الحرس الخاص به، وكلما صادف في طريقه أفرادا من شعبه، كان يرد على سلامهم وتحياتهم بعفوية وتلقائية، تضيف على شخصه وقارا وتقديرا بالغين. ويظهر أنه كان مصرا على هاته العادة التي تجعله قريبا من حياة الناس اليومية؛ على أن تنامي ظاهرة الإرهاب - وقتئذ - في العواصم الدولية وفي مختلف أنحاء العالم، عمق حالة التهيب لدى الأهالي ممن اعتادوا على ملاقاته، فبدأ يداخلهم الخوف على شخصه، حيث كان حرصهم على حياته أكبر من متعة لقائه والسلام عليه.

كان الجانب الأول بات معروفا ومتداولاً بين الدارسين والمهتمين¹¹، فإن الجانب الثاني ما يزال قيد التشكل؛ على أن خطوطه العريضة أوضحت واضحة المعالم إلى حد كبير.

وللتذكير، وجب القول إنه عند ملتقى الألفية الثانية والثالثة، انتهت مختلف خلاصات الدراسات المعنية بظاهرة التخلف بإفريقيا إلى أن معظم الزعماء الأفارقة استفرغوا كل جهدهم في معالجة القضايا السياسية رغبة في إقامة صرح الدولة الوطنية، ثم إنهم تهادوا في ذلك حتى طغت على انشغالاتهم وتوجهاتهم. ولما أرادوا تحصيل نتائج الاستقلال بعد مضي عقود من الزمان، وقفوا على نتائج مخيبة: تفشي الفقر والأمية والبطالة، واشتعال الحروب البينية أو الأهلية وما نتج عنهما من مجاعات وانتشار الأوبئة، والهجرات بمختلف أشكالها، وتنامي قوة الحركات الإرهابية، ناهيك عن الضعف الفظيع الذي نسجله على مستوى قطاع الصحة والتعليم والبنيات التحتية والخدمات إلخ، إلى درجة أوضحت معها أوضاع القارة في وسائل الإعلام الدولية رمزا لكل ما هو سلبي. وغير خاف لدى المختصين، أن إكراهات العولمة الاقتصادية وتبعات التغيرات المناخية، فضلا عن التجاذبات السياسية بين القوى العظمى، كان لها أثر غير هين في صناعة هذا الواقع المؤلم والبئيس بدول العام الثالث.

ومن حسن حظ المغرب، أن جلالة الملك محمد السادس نصره الله، كان من رواد الجيل الجديد، واهتم بتحقيق التنمية المستدامة بناء على نظرة شمولية دامجة لمختلف العناصر الحاكمة بهذا الشأن. ولطالما تهيأ للبعض أن اصطناع هذا التوجه يغفل الجانب السياسي أو غيره من المتطلبات الحيوية بالنسبة للمواطن؛ على أن مثل هذا الاعتقاد مجانب للصواب، لأن مفهوم التنمية الاقتصادية، يستبطن شمولية تطل الجوانب السياسية، والاجتماعية، والدينية، والبيئية، والثقافية بما فيها الاهتمام بالتراث اللامادي. زد على ذلك، أنه ما لم يتم تأطير مشروع التنمية الاقتصادية، بآلية الحكامة الرشيدة، فلن يكتب له النجاح المطلوب، إذ إنها تمثل دعامة أساسية لعمارة التنمية الاقتصادية؛ وتقدم لنا التجربة الباهرة لسنغفورة مثالا حيا على ذلك.

وانطلاقاً من إيمانه الراسخ بوحدة شعوب المنطقة المغاربية، اقترح العاهل المغربي مبادرة الحكم الذاتي العام 2007م، رغبة منه في تجاوز الأعطاب التي عرقلت مسيرة العمل المشترك للاتحاد المغاربي، ثم جاء دستور 2011م للتأكيد على أهمية البعد المغاربي في السياسة الخارجية المغربية. وفي هذا الجانب، يمكننا التأكيد على أن مقترح الحكم الذاتي الخاص بالأقاليم الصحراوية المغربية، شكل

11 - من المؤشرات الدالة على ذلك، إنشاء متحف الماء بمراكش، والعناية بوسائل تطوير القطاع الفلاحي (المغرب الأخضر) إلى غير ذلك من المؤشرات في مختلف القطاعات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية - ثقافية.

حلا واقعيًا وبرامغياتيا لوضع مأزوم. وعلى الرغم من الإكراهات التي كانت تنطوي عليها هذه المبادرة فقد دلت على جرأة سياسية غير معهودة، كما أنها عكست رغبة عميقة في تجاوز المعوقات السياسية بالانخراط في مشروع اقتصادي - اجتماعي، يلبي التطلعات المشروعة لشعوب المنطقة، ويحفز على النهضة الاقتصادية في الفضاء المغاربي؛ ومن ثمة، خلق جسور التعاون الواسع مع التجمعات الاقتصادية الموازية بإفريقيا وأوروبا وغيرهما من التكتلات الاقتصادية - السياسية في العالم.

وبعد أكثر من عشر سنوات على طرح مبادرة الحكم الذاتي تابع مسيرة النماء والتنمية، وحقق إنجازات غير مسبوقة في مجالات مختلفة (صناعة السيارات وقطاع الطيران، والصناعة التحويلية خاصة في الفوسفات، وقطاع السياحة والرياضة والبيئة...). واللافت للنظر بهذا الخصوص، أن المغرب ليس دولة بترولية، ومع ذلك فإن استثماراته في الدول الإفريقية الصديقة لم تتوقف، بل نجدها تزيد في كل سنة عن سابقتها، وتدرجيا أضحى المغرب ثاني مستثمر في القارة الإفريقية بعد دولة جنوب إفريقيا.¹² ويؤشر هذا المعطى على المكانة المتميزة التي أخذت تحتلها إفريقيا في الاستراتيجية المغربية سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الديني والثقافي.

المغرب الإفريقي على عهد جلالة الملك محمد السادس - نصره الله -

دون المساس بالعلاقات التقليدية مع أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أو تلك التي فرضت نفسها على الساحة الدولية خلال العقدین الأخيرین، شأن الصين والهند في آسيا، أو البرازيل في أمريكا اللاتينية، وجه المغرب بوصلته نحو إفريقيا. واستطاع جلالة الملك محمد السادس - أعزه الله - أن يبلور سياسة إفريقية خالصة، مدعومة بالنزعة الإنسانية المستلهمة من تاريخ المغرب العريق والحكمة الإفريقية الأصيلة؛ وقد اندرجت هاته العلاقة في إطار ما يعرف بسياسة تعاون جنوب - جنوب.

وفي هذا الإطار، رسم جلالته استراتيجية فريدة، قادته لزيارة كثير من الدول الإفريقية (أكثر من 30 دولة)، حاملا معه زبدة التجارب الناجحة قصد تقاسمها مع الأشقاء الأفارقة؛ وأثمرت هذه الزيارات توقيع عدد كبير من الاتفاقيات، شملت مختلف القطاعات. ومما يسترعي الانتباه في هذه الدينامية المستمرة على امتداد أكثر من عقدين من الزمان، انخراط جلّ المغاربة فيها، فشارك فيها أرباب

12 - شملت الاستثمارات المغربية قطاعات مختلفة: الأبناك، والمواصلات، والبنيات التحتية، وصناعة تحويل الفوسفات، والطاقات المتجددة... ومما يعكس ويرجم هذا التوجه الإفريقي الخالص، أن نسبة الاستثمارات المغربية الخارجية الخاصة بإفريقيا بلغت نحو 75% العام 2017م. وللاستزادة عن التوجه الاقتصادي المغربي نحو باقي جهات إفريقيا، والإنجازات المحققة في هذا الجانب، يراجع:

Mohammed Echikoundi et Hicham Hafid, L'Afrique est mon continent, Casablanca: La croisée des chemins 2019.

المقاولات ورجال الأعمال والتجارة والصناعة والخدمات، كما شارك فيها القيّمون على الشأن السياسي والرياضي والمناخي، ولم يتخلف الفقهاء والعلماء والنخب المتنورة في جل الاختصاصات عن مواكبة هذه الحركية النشيطة.

وكان لهذه التجربة المغربية الرائدة صدى طيب في جل أرجاء إفريقيا، حيث لقيت ترحيبا واسعا من جانب الشعوب الإفريقية فضلا عن القادة؛ من ثمة، كانت عودة المغرب للاتحاد الإفريقي مطلع العام 2017، مناسبة سانحة لتأكيد الرغبة القوية للأشقاء الأفارقة في استعادة المغرب مكانه الطبيعي بالمنظمة المذكورة. وقد استغل المغرب هذا الوهج المتعدد الأبعاد، فقدم في شخص عاهل البلاد الملك محمد السادس نصره الله عام 2018م، مبادرة جديدة للأشقاء في الجزائر على أمل طي صفحة الخلافات وبناء الاتحاد المغربي الجديد، الذي يمكن في إطاره أن يتحرك المواطن والمستثمر المغربي بكل حرية.¹³ ومما يدلنا على نجاح تجربة المغرب الإفريقي، أن بلادنا أصبحت قبلة مفضلة للطلبة الأفارقة، فزاد عددهم في مختلف التخصصات بالجامعات المغربية عن 10000 طالب. ولمواجهة أشكال التطرف الديني وما يرتبط به من أعمال إرهابية، قدم المغرب لأشقائه الأفارقة كل الدعم والمساندة اللازمين، وعمل على إشاعة مبادئ الاعتدال والوسطية السميحة في ديننا الحنيف، وذلك من خلال تكوين الأئمة الأفارقة بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات. وفي سبيل جمع كلمة العلماء بقرتنا وتوحيد رؤاهم وتصوراتهم، أنشأ أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أعزه الله مؤسسة لهذه الغاية تحمل اسمه: مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

ختاما، يمكن القول إن النموذج الاقتصادي المغربي الجديد برهن على قدر كبير من النجاح قاريا ودوليا، كما أنه أثبت نجاعة ملحوظة في وجه الأزمات الدولية العسيرة، نجد ترجمتها الواضحة إبان أزمة انتشار وباء كورونا خلال السنوات الثلاث الأخيرة (2020-2022م)، حيث إن المغرب لم يتمكن من الصمود في وجهها فحسب، بل إنه في عز الأزمة، مدّ يده لأشقائه الأفارقة، واجتهد في مساعدتهم بالمتطلبات الطبية وغيرها.

ونتيجة لتلاحم العرش والشعب وتآزرهما في كل المحطات التاريخية، نلاحظ أنهما دائما في حالة ثورة متجددة، لا تهدأ، ولا تتوقف مهما بلغت عظمة الإنجازات. والملحمة الأخيرة التي صنعها أسود

13 - من أجل تجاوز الخلافات الظرفية والموضوعية، التي تعيق تطور العلاقات بين البلدين، اقترح العاهل المغربي على الأشقاء في الجزائر «إحداث آلية سياسية مشتركة للحوار والتشاور، يتم الاتفاق على تحديد مستوى التمثيلية بها، وشكلها وطبيعتها»، وأضاف قائلا: «وأكّد أن المغرب منفتح على الاقتراحات والمبادرات التي قد تتقدم بها الجزائر، بهدف تجاوز حالة الجمود التي تعرفها العلاقات بين البلدين الجارين الشقيقين [...]». من خطاب جلّالته للأمة بمناسبة الذكرى 43 للمسيرة الخضراء في 6 نوفمبر 2018م.

الأطلس بمونديال قطر نهاية العام 2022م، تؤكد على هذه الروح المتجددة، التي بفضلها صنعوا الحدث ببلوغهم المربع الذهبي، فبات الفريق الوطني المغربي لكرة القدم أول فريق إفريقي وعربي يصل هذا المستوى المتميز في كأس العالم. وفي غضون ذلك، لم يكتف أعضاء الفريق الوطني بما أنجزوه، وإنما أصرّوا على تقديم رسالة حضارية للعالم، تشيد - عموماً - بأهمية دور المرأة في المجتمع، سيما دور الأم. ووجدت هذه الرسالة صدى طيباً في المنتظم الدولي، خاصة بعد الاستقبال الملكي لأعضاء الفريق الوطني صحبة أمهاتهم. وكانت هذه الرسالة الحضارية الإسلامية الأصيلة ذات تأثير بالغ في جل أنحاء العالم، إلى درجة أنه ينذر اليوم أن نجد بطلاً في أي نشاط رياضي، لا يحتفي بوالدته أو بالوالدين معاً، سيراً على نهج المغاربة، وتقليداً لمسعاهم النبيل الرامي إلى الاعتراف والإقرار بأهمية موقع الأم في المجتمع.¹⁴

14 - إن العارف اللبيب، المتتبع لأحوال المغرب، يدرك أن التكريم الذي حظيت به أمهات أعضاء الفريق الوطني أثناء الاستقبال الملكي، إنما هو ثمرة من ثمار الثورة الهادئة التي قادها جلالته منذ بداية عهده في سبيل إصلاح أوضاع المرأة وتمكينها من حقوقها في مختلف المجالات. ونجد لذلك ترجمة واضحة في إشرافه وسهره على إخراج مدونة الأسرة الجديدة سنة 2004م، والتي تم تحينها مرتين: سنة 2010م ثم سنة 2016م.



أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م

محطة خالدة في التلاحم بين العرش والشعب

من أجل الاستقلال

ذ. محمد الأندلسي

أستاذ باحث بتطوان

تأتي أحداث يوم 30 مارس 1952م بمدينة طنجة، التي كانت خاضعة للنظام الدولي، في سياق التوتر الشديد بين الحركة الوطنية المغربية ورائدها السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه من جهة، والسلطات الاستعمارية الفرنسية من جهة ثانية؛ فقد شهدت فترة الخمسينات عديد المبادرات والدعوات من جانب السلطان والوطنيين المغاربة، المطالبة بإلغاء نظام الحماية الذي أصبح متجاوزا ومخالفا لسُنن التطور والتغيير التي يفرضها العصر، الذي لم يعد يستجيب لآمال الشعب المغربي وتطلعاته في بناء دولة مستقلة ذات سيادة، تسمح له بإرساء علاقات خارجية متوازنة ومبنية على أسس التعاون والمصالح المتبادلة. وقد عبّر السلطان محمد الخامس رحمه الله عن آمال الشعب المغربي وتطلعاته هاته، فصار لسانا للشعب، مُنافحا عن مطالبه المشروعة، لا يخشى في ذلك لومة لائم، مُضحيا بعرشه في سبيل كرامة الأمة وعزّتها. فالمذكرات الرسمية العديدة التي وجهها إلى الحكومة الفرنسية منذ سنة 1950م، وكذلك خُطب العرش التي كان يُجدد فيها الدعوة إلى فتح مفاوضات رسمية بين المغرب وفرنسا قصد مراجعة اتفاقية فاس، وتمكين المغرب من الحصول على الاستقلال¹، كلها تشهد على ذلك الصمود والإصرار على التضحية في سبيل تحرير الوطن والمواطن من نير الاستعمار واستعادة الحقوق المسلوبة. ولا غرو أن كان تفاعل الشعب المغربي -قاطبة- مع تلك المذكرات والخطب الملكية قويا ومُدوّيا، من خلال التظاهر والاحتجاج السلمي للمطالبة بالحرية والاستقلال. وما أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م إلا تعبير عن هذا التفاعل التلقائي والتلاحم القوي بين العرش والشعب، استجابة للمذكرة

1 - العربي مزين: محمد الخامس والصمود ضد المؤامرات الاستعمارية 1950 - 1953م، ضمن الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، 16-20 نونبر 1987م، منشورات جمعية رباط الفتح، ص. 351.

الملكية التي وجهها الملك محمد الخامس، بواسطة المقيم العام الجنرال غيوم، إلى رئيس الجمهورية الفرنسية وحكومة بلاده يوم 14 مارس 1952م، مطالبا فيها بإلغاء نظام الحماية وتشكيل حكومة مغربية مؤقتة لمباشرة المفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل إيجاد تسوية للقضية المغربية، حيث جاء في المذكرة: «تأسيس حكومة مغربية للتفاوض باسمنا وتحت إشرافنا مع حكومة الجمهورية الفرنسية، قصد إيجاد حل للمشكل المغربي - على أساس المذكرتين² - يضمن السيادة المغربية ويبني العلاقات المغربية- الفرنسية على أسس جديدة ويضمن المصالح الفرنسية. وغايتنا من ذلك في النهاية تمكين الشعب المغربي من تدبير شؤونه بواسطة مجلس نيابي وحكومة دستورية على نمط ديمقراطي»³. مباشرة بعد هذه المذكرة، تحركت الجبهة الوطنية في طنجة، المشكلة من حزبي الاستقلال والوحدة المغربية، فوجهت نداءً إلى الشعب المغربي، دعت فيه إلى اتخاذ يوم 30 مارس 1952م، الذي يصادف الذكرى الأربعين لتوقيع عقد الحماية، يوم حداد، حيث جاء فيه: «إن الجبهة الوطنية التي لم تفتأ تطالب بإلغاء هذا النظام، واسترجاع سيادة المغرب واستقلاله في دائرة ملكية دستورية وضمن نطاق مبادئ الأمم المتحدة، لتهدب بهذه المناسبة بالشعب المغربي أن يتخذ من يوم هذه الذكرى المشؤومة يوم حداد، تقاطع فيه الملاهي وجميع مظاهر الأفراح، وأن يكون هذا اليوم كذلك يوم صيام يتوجه فيه إلى الله أن ينقذ المغرب مما يعانيه من جراء ذلك النظام الشاذ، وأن يمن عليه بنعمة الحرية في ظل جلالة ملكه المعبّر عن مطامح الوطن وأمانه»⁴. إلا أن الحكم الاستعماري في المغرب أبى إلا أن يحول هذا الاحتجاج السلمي والحضاري في مدينة طنجة إلى يوم دموي ومجزرة حقيقية، ذهب ضحيتها عشرات الشهداء وخلفت مئات الجرحى، فأصبحت وصمة عار على جبين النظام الدولي.

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية مقارنة هذا الحدث المأساوي الذي شهدته مدينة طنجة المغربية، من خلال وضعه في سياقه التاريخي وإبراز تفاعلاته وأبعاده، واستجلاء دوره في ترسيخ تشبث الشعب المغربي بحقه في الاستقلال والحرية تحت ظل ملكه المفدى المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.

2 - يقصد مذكرتي 03 أكتوبر و2 نونبر 1950م اللتين قدمهما إلى رئيس الجمهورية الفرنسية أثناء زيارته إلى فرنسا بدعوة من هذا الأخير. أنظر: شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، الدار التونسية للنشر، تونس 1976م، ص. 408.

3 - عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى استرجاع الصحراء، الطبعة الثالثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000م، ج2، ص. 79-80 / الحسن الثاني (ملك المغرب): التحدي، الطبعة الرابعة، المطبعة الملكية، الرباط، 2000م، ص. 402.

4 - جريدة «منبر الشعب» السنة الثالثة، عدد 765، بتاريخ: الثلاثاء 27 جمادى الثانية 1371هـ الموافق 25 مارس 1952م، الصفحة الأولى / جريدة «العلم»، السنة السادسة، عدد 1765، بتاريخ: 3 رجب 1371هـ الموافق 29 مارس 1952م، الصفحة الأولى.

1 - السياق التاريخي لأحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م؛

شهدت فترة تولي المقيم العام الفرنسي «ألفونسو جوان»، تأزما حقيقيا في العلاقات بين القصر والإقامة العامة الفرنسية، التي حاولت -من خلال اعتماد سياسة التهديد- الضغط على السلطان من أجل قبول الإصلاحات الفرنسية. وفي محاولة منها لإذابة الجليد وتصفية جو التوتر بين الطرفين، عمدت الحكومة الفرنسية ورئيس الجمهورية الفرنسية «فانسان أوريول» (Vincent Auriol) إلى توجيه دعوة للسلطان محمد الخامس رحمه الله للقيام بزيارة رسمية إلى فرنسا، مؤمّلة إقناعه بمشروع الوحدة المغربية- الفرنسية في إطار الاتحاد الفرنسي (السيادة المشتركة)، وتلين مواقفهم من الإصلاحات التي يعرضها المقيم العام باسم الحكومة الفرنسية⁵. قبل السلطان محمد الخامس الدعوة بشرط أن تكون الزيارة مناسبة لإثارة القضايا الأساس المعلقة بين المغرب وفرنسا في أفق تغيير علاقات البلدين تغييرا جذريا⁶. وقد حمل السلطان معه في رحلته إلى الديار الفرنسية، مذكرة حُررت في الرباط يوم 3 أكتوبر 1950م⁷، قدمها لرئيس الجمهورية الفرنسية بعد وصوله إلى فرنسا يوم 11 أكتوبر، تضمنت عرضا مفصلا؛ اشتمل على الظروف التي فرضت فيها معاهدة الحماية على المغرب سنة 1912م، والتأكيد على تمتع المغرب على الدوام باستقلاله وسيادته. كما أدانت المذكرة انحراف نظام الحماية عن البنود التي وضعت له في نص المعاهدة، المتمثلة في الاقتصار على سلطة المراقبة بينما تكون سلطة الإدارة والتسيير بيد المخزن المغربي، ويتجلى هذا الانحراف والخرق السافر لنص المعاهدة في جمع الإقامة العامة الفرنسية بين سلطتي الإدارة والمراقبة، وعملها على إضعاف المخزن الشريف بفعل السلب التدريجي لاختصاصاته الأساسية. وكان من بين النتائج السلبية لأسلوب الإدارة المباشرة هذا؛ قُصور في معرفة حاجيات الشعب المغربي، وإهمال جانب مهم من طموحات المغاربة في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الأمر الذي أسهم في تنامي عداوة الشعب المغربي لنظام الحماية. ثم أوضحت المذكرة سبب الخلاف بين المخزن والإقامة العامة، الذي يرجع إلى اختلاف وجهات النظر فيما يخص السياسة الواجب اعتمادها في البلاد، وفيما يتعلق بمفهوم الإصلاحات الضرورية، وفي هذا السياق عبّر جلالة الملك بقوله: «إننا نصرح- معتمدين على تجربتنا ومعرفتنا لأُمور بلادنا، وأفكار مختلف الفئات الاجتماعية لشعبنا- بأن القضية المغربية التي تطرح اليوم لم تعد تتعلق أبدا بمسألة إصلاحات جزئية أو تعديلات سطحية لرؤاسب الإدارة الحالية، ولكنها قضية شعب يطالب بتغيير

5 - عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ج2، ص. 5.

6 - روم لاندو: محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته، تعريب ليلي أبو زيد، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1979م، ص. 56.

7 - ورد النص الكامل المترجم للمذكرة في: «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب»، ج2، ص. 6-9.

جذري يتلاءم مع الأوضاع الجديدة»⁸. وسجلت المذكرة سرعة تطور الشعب المغربي بفضل مميزاته وكفاءاته الطبيعية وبفضل مساعدة الدولة الحامية، وكان من مؤشرات ذلك التطور بروز أحزاب مغربية أصيلة معادية لنظام الحماية. وانتقدت المذكرة سياسة العنف والقوة التي تلجأ إليها سلطات الحماية في مواجهة الحركة الوطنية ومطالبها المشروعة. ثم استعرض السلطان الدواعي والأسباب التي تفرض على فرنسا تغيير علاقتها بالمغرب، والمتمثلة في مشاركة المغاربة وتضحياتهم خلال الحرب العالمية الثانية في سبيل سيادة الحرية ومبادئ الديمقراطية، ثم الاعتراف باستقلال بعض البلدان التي تعتبر من حيث المرتبة والتطور أدنى من المغرب، وأخيراً ما تقتضيه الظروف الحالية من استجابة للطموحات الشعبية. واختتمت المذكرة باقتراح الحل الأمثل لتسوية القضية المغربية، حيث قال جلالة الملك: «إن الشعب المغربي الذي بلغ درجة عليا من النضج يأمل أن تنجح قضيته بالتوصل إلى حل مرضي، يذلل الصعوبات ويفك التعقيدات ويجلب الطمأنينة والثقة إلى القلوب، ويؤسس في البلاد نظاماً يستوحي من التنظيم الجاري به العمل في الدول المتحضرة. إننا على اقتناع بأن الحل الذي يضمن للمغاربة التمتع بحقوقهم المشروعة، هو في ذات الوقت الحل الملائم لمبادئ وتقليد الحرية التي اشتهرت بها فرنسا، والتي لا يتنكر المغرب أبداً لدعمها كقاعدة صلبة للصداقة والعلاقات بين بلدينا»⁹.

إلا أن رد الحكومة الفرنسية جاء مُخَيِّباً للآمال، ولم يتعدَّ بعض الإجراءات الجزئية، مثل التخفيف من وطأة الرقابة في الصحافة، والتخفيف من تدخل الإقامة العامة في اختيار القواد، والسماح بتكوين اتحادات عمالية، والاتفاق على تكوين لجنة لحل الخلافات التي قامت بين القصر والإقامة العامة حول الإصلاحات المقترحة¹⁰.

ثم أعاد السلطان الكرة من جديد بمذكرة ثانية في يوم ثاني نونبر 1950م طالب فيها -بشكل صريح ومباشر- بإلغاء معاهدة الحماية من أجل حل المشاكل العالقة بين فرنسا والمغرب، حيث جاء فيها: «إن إصلاحاً جوهرياً للأوضاع، بإنهاء نظام الحماية، يمكنه وحده أن يعطي العلاقات المغربية - الفرنسية قاعدة أمتن وأصح [...] وهو الذي يمكنه وحده أن يفسح المجال أمام إقامة حكومة حرة في المغرب، تتمتع بثقة الشعب المغربي، وتكون قادرة على تحقيق آماله المشروعة»¹¹.

8 - عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ص. 8.

9 - عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ج2، ص. 9.

10 - عبد الكريم غلاب: مرجع مذكور، ص. 10 / العربي مزين: مرجع مذكور، ص. 350.

11 - الحسن الثاني (ملك المغرب): التحدي، ص. 66.

وفي خطاب العرش يوم 18 نونبر 1950م أكد السلطان محمد الخامس على ضرورة إلغاء نظام الحماية وإعطاء تعريف جديد للعلاقات المغربية- الفرنسية في إطار الود والصدقة، حيث قال: «ولم يغب عنا لحظة واحدة أن أفضل حكم ينبغي أن تعيش في ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتمارس شؤونها بنفسها هو الحكم الديمقراطي الذي تقوم عليه الدول المعاصرة، والذي يوافق مبادئ ديننا الحر الكريم. لقد عرضنا مطالبنا على من يهمهم الأمر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول، وأضفينا عليه حلة الوضوح والبيان، وذلك بأن رغبتنا في أن تبنى علاقات المغرب بفرنسا على أسس جديدة»¹².

المطلب عينه جدّد السلطان محمد الخامس، التأكيد عليه في خطاب العرش لـ 18 نونبر 1951م، حيث أعلن أن أفضل نظام للحكم يصلح للمغرب هو النظام الديمقراطي الذي يوافق مبادئ الدين الإسلامي، باعتباره النظام الذي يكفل الحرية والعدالة والكرامة للشعب المغربي، مُحيلًا على مضمون المذكرتين اللتين وجههما إلى الحكومة الفرنسية عام 1950م، قائلاً: «رغبتنا في أن تبنى علاقات المغرب بفرنسا على اتفاق يضمن للمغرب كامل سيادته ويجعل صلته معها على أسس جديدة في دائرة الود والصدقة واحترام المصالح العليا للبلدين، وضمان مصالح العناصر القاطنة بمملكتنا الشريفة، ومنذ ذلك الحين ونحن نأمل أن تجرى مفاوضات في ذلك الشأن وما زلنا ننتظر لحد الآن ثابتين على مبدئنا الأسمى وغايتنا المثلى»¹³. وفي يوم 14 مارس 1952م قدّم السلطان محمد الخامس مذكرة أخرى -هي الثالثة- إلى المقيم العام الجنرال جيوم الذي سلمها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية يوم 20 مارس، وقد تضمنت برنامجاً مضبوطاً ومنسجماً يحتوي على ثلاثة مقترحات لتسوية القضية المغربية؛ أولاً: قبول فرنسا مبدئياً رفع حالة الطوارئ التي كانت السبب الرئيس في التوتر القائم في المغرب، ثانياً: منح السلطان حرية لتشكيل حكومة كفاءات وطنية لمباشرة المفاوضات مع فرنسا، ثالثاً: أن تتناول المفاوضات مراجعة العلاقات المغربية الفرنسية طبقاً لروح مذكرة أكتوبر 1950م¹⁴. وقد عُلقت الحركة الوطنية (حزب الاستقلال) على هذه المذكرة في بيان رسمي لها جاء فيه: «لفرنسا مصالح وحقوق يُقرّ المغاربة شرعيتها، ويمكن أن تصان هذه الحقوق ضمن اتفاقية جديدة، زد على ذلك أنه ليس في الحسبان قطع الصلة بفرنسا، بل بالعكس، المطلوب هو تحقيق الاستمرار للعلاقات الفرنسية- المغربية، لكن في إطار يرضي رغائب الشعب المغربي»¹⁵. تأخر الرد الفرنسي ستة أشهر وخضع لضغوط الحزب الاستعماري في الحكومة

12 - جريدة «العلم»، السنة الخامسة، عدد: 1301، بتاريخ: الأحد 8 صفر 1370 هـ / 19 نونبر 1950م، الصفحة الأولى.

13 - جريد «العلم»، السنة السادسة، عدد: 1624، بتاريخ: الاثنين 18 صفر 1371 هـ / 19 نونبر 1951م، الصفحة الأولى.

14 - جوليان: إفريقيا الشمالية، ص. 422 / روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة ومراجعة أنيس فريجة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963م، ص. 320.

15 - جوليان: إفريقيا الشمالية، ص. 422 / سطيغان برنار: تاريخ الصراع المغربي- الفرنسي، 1943-1956م، ترجمة حسان المعروف، أفريقيا الشرق، 2014م، ص. 151.

الفرنسية، ثم جاءت مذكرة 17 شتنبر 1952م تردُّ بالرفض، حيث تقدم الفرنسيون مرة أخرى بمجموعة من الإصلاحات كان أغلبها يرمي إلى تأكيد المشاركة الفرنسية في السلطة، من خلال إدارة مختلطة ترمي إلى العودة بطريقة غير مباشرة إلى فكرة السيادة المزدوجة¹⁶، أو كما قام بتوصيفها جلاله الملك الحسن الثاني بـ «التبعية المشتركة»¹⁷. وقد أعرب السلطان في جوابه بتاريخ 3 أكتوبر 1952م عن أسفه العميق لأن الحكومة الفرنسية لم تأخذ مقترحاته بعين الاعتبار، ولفت نظرها إلى أن مقترحات الإصلاحات الفرنسية «تنزع عمليا في روحها واتجاهها إلى اقتسام السيادة المغربية»¹⁸. وفي خطاب العرش يوم 18 نونبر 1952م، انتقد بمرارة نظام الحماية الذي شبهه بـ «قميص فصل لطفل كان صغيرا، ولكنه الآن كبير ونما وتقدم، ومع ذلك يصرون على الاحتفاظ بهذا القميص الذي قصر وضاق كثيرا»¹⁹.

وقد تزامنت هذه التحركات المكثفة من جانب السلطان محمد الخامس مع الحملة التي قامت بها الحركة الوطنية قصد تسجيل المسألة المغربية في جدول أعمال الجلسة السادسة للأمم المتحدة في نونبر 1951م، ولكن تحت الضغوط الفرنسية لم يتم إدراجها في ذلك الاجتماع واكتفت الأمم المتحدة بإرسال لجنة فحص في فبراير 1952م إلى المغرب مكونة من 15 مندوبا من دول أمريكا اللاتينية²⁰.

تعكس لنا هذه الجهود الدبلوماسية المكثفة التي بذلها السلطان محمد الخامس خلال فترة الخمسينات وما قبلها، رسوخ عزمه الواضح على نيل استقلال المغرب، وامتانة الروابط التي تجمعها بشعبه الوفي وقوتها، حيث ما فتئ يُعبّر عن طموحاته وآماله، وينافح عن حقوقه المشروعة، مُتجسّما في سبيل ذلك الغطرسة الفرنسية وسياسة التهديد والوعيد التي كانت الإقامة العامة الفرنسية تنهجها معه، التي تبدّت معالمها في المحاولة الأولى الفاشلة للمقيم العام «جوان» لخلع السلطان عام 1951م، ثم المحاولة الثانية للجنرال «كيوم» التي انتهت بالنفي خارج الوطن. كما أن الشعب المغربي ظل متشبثا بحقوقه، ومخلصا في ولائه لقائده ورائده في الوطنية، ومتفاعلا مع خطبه ونداءاته، مستعدا للانتفاض والتظاهر والاحتجاج، والتضحية بالغالي والنفيس لتحقيق الحرية والاستقلال.

16 - جوليان: إفريقيا الشمالية، ص. 424.

17 - كتاب التحدي، ص. 74.

18 - المصدر نفسه، ص. 75.

19 - المصدر نفسه، ص. 75.

20 - العربي مزين: مرجع مذكور، ص. 352 / سطيغان برنار: مرجع مذكور، ص. 149.

2 - أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م: تعدد الروايات وثبوت مسؤولية البوليس الدولي؛

مما لاشك فيه أنه في مثل هذه الأحداث الدموية التي تُسفر عن سقوط عدد كبير من الضحايا بين قتيل وجريح، وتُخلف حصيلة ثقيلة لها أبعاد مختلفة؛ سياسية واقتصادية واجتماعية، يُحاول الطرف الذي استعمل العنف المفرط والقوة غير المبررة، البحث عن شتى التبريرات للتملص من مسؤولية ما وقع، وإلقاء اللوم على الطرف الذي كان ضحية للعنف، واتهامه بالتسبب في حدوث الاصطدام والمواجهة، من أجل الإفلات من المتابعة القانونية، والحؤول دون تلطيخ صورته السياسية أمام الرأي العام الدولي. الأمر الذي يستلزم من المؤرخ أخذ الحيطة والحذر في التعامل مع الروايات المختلفة والمتناقضة أحيانا، واستنطاقها ومقابلتها من أجل تركيب صورة تتسم بالموضوعية، وتكون أقرب إلى حقيقة ما جرى. من هذا المنطلق آثرنا استعراض رواية كلا طرفي المواجهة ومقارنتها في ضوء السياق التاريخي الذي يُوّطر أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م.

1.2 - الرواية البوليسية:

في بلاغها الرسمي الذي نشرته جريدة «إسبانيا»، أفادت الشرطة الدولية أن يوم 30 مارس 1952م شهد تظاهرات في حي السوق الكبير بطنجة، مما أجبر قوات الشرطة على التدخل من أجل حماية المؤسسات التي هوجمت واجهاتها الزجاجية، ومن أجل منع النهب؛ «وحيث إنها هوجمت بعنف بالحجارة والقنينات، أجبرت على استعمال السلاح من أجل السيطرة على الوضع. التظاهرة تشتت في الحي الأوربي، وتواصلت بمجموعات متفرقة. المتمردون رجموا السيارات وهاجموا واجهات بعض المؤسسات. وفي المساء كان النظام قد استعيد بشكل كامل، واسترجعت المدينة مظهرها العادي»²¹. وفي تصريح لوسائل الإعلام بشأن السبب الذي أشعل فتيل أحداث طنجة الدموية، قال رئيس قوات الأمن الدولي الكولونيل «لوكران»²²: «في الساعة الواحدة والرّبع بعد الزوال، وقعت حوادث غير منتظرة في منطقتنا، ففي الساعة المذكورة اجتمع عدد من المتظاهرين في السوق الخارجي، فطلب منهم رجال البوليس أن يتفرقوا، وردا على هذا الطلب أخذ المتظاهرون يرمون رجال البوليس بالحجارة، وكانوا

21 - «Graves incidentes en Tánger», España, año 15 n° 4905, lunes 31 de marzo 1952, La segunda página.

22 - سبق للكولونيل لوكران (Legrand)، رئيس مصالح الشرطة الدولية في مدينة طنجة، أن أعدّ تقريرا سنة 1951م، أكد فيه على ضرورة فرض الرقابة على التجمعات السياسية والمظاهرات والمسيرات العمومية التي دأب حزب الاستقلال والوحدة المغربية على تنظيمها في المدينة. كما أنه في تقريره على خلفية أحداث 30 مارس 1952م، أكد فيه على أنه منذ زيارة السلطان محمد الخامس إلى طنجة في أبريل 1947م، تحولت المدينة إلى عاصمة للتحريض السياسي في المغرب، وذكر أن الزعماء الوطنيين للوثنيين السياسيين المذكورين اتخذوا طنجة مقرا لإقامتهم ومارسوا بحرية نشاطا مكثفا مُستغلين تسهيلات وعيوب النظام الدولي. انظر:

Bernabé López García: Una jornada particular: el 30 de marzo de 1952 en Tánger, in «Un siglo de movilización social en Marruecos», Editado para Feliu Laura y otros, Ediciones Bellaterra, Barcelona, España, 2019, p 239.

في نفس الوقت يكسرون زجاج سينما ركس. وفي طريق سينمارين اضطر رجال البوليس إلى استعمال أسلحتهم بعد الإنذارات المعهودة، [...] أما سن المتظاهرين فهي تتراوح بين 16 و18 سنة، وغايتهم الوحيدة هي النهب، وقد أُلقي القبض على 12 منهم. كما أن المتظاهرين تجمعوا في الحي الحديث من المدينة وخصوصا في طريق فاس حيث أشعلوا النار في سيارتين وكسروا نوافذ المراكز التجارية بالخصوص في طريق جان دارك وطريق سان فرانسيسكو، وعلى الساعة الثالثة والنصف عاد النظام إلى المدينة²³. وفي تقرير وجهه الكولونيل «لوكران» إلى مدير منطقة طنجة الدولية يوم 6 أبريل 1952م، أكد فيه أن أحداث طنجة اندلعت في السوق البراني «عند محاولة إيقاف أحد الأفراد الذي كان يثير الحاضرين أمام سينما ركس، مما تسبب في وابل من الحجارة على أعوان الأمن، ثم أخذت الحشود في القبض على تجار شارع سينمارين، دون أن تتمكن مجموعة كبيرة من الشرطة أن تمنعهم، فاضطروا إلى استخدام الأسلحة النارية [...] فتفرقت الحشود في شوارع سينمارين وساحة إسبانيا وشارع كروتوس، دانتى، خوانا دي أركو، فاس، [...] مكسرين الواجهات الزجاجية للمحلات، ومهاجمين سيارات الأوربيين»²⁴.

يبدو واضحا من خلال الرواية الرسمية لجهاز الأمن الدولي، أن هذا الأخير كان يحاول التنصل من مسؤولية اندلاع أحداث يوم 30 مارس، واتهام المواطنين «المتظاهرين» بالتسبب في الإخلال بالأمن والنظام، ومهاجمة رجال الشرطة وأعوان الأمن، والاعتداء على الممتلكات الخاصة، بل أكثر من ذلك قدمت هذه الرواية المتظاهرين -الذين كان أغلبهم قاصرين- في صورة مُخربين ولصوص هدفهم من وراء إثارة الفتنة والاضطراب النهب والسرقه. الأمر الذي يبرر استعمالها للأسلحة النارية من أجل السيطرة على الوضع، فتدخلها جاء في إطار القيام بمهامها المنوطة بها في إطار حفظ النظام واستتباب الأمن وحماية الممتلكات. وهذا ليس بالأمر الغريب عن أجهزة السلطات الاستعمارية، التي دأبت على إفساد المحطات النضالية للحركة الوطنية، وتشويه صورتها أمام الرأي العام الدولي، في محاولة منها لتجسيد سياسة الهروب إلى الأمام.

2.2 - رواية الصحافة الإسبانية²⁵

في تغطيتها لأحداث طنجة، قدمت جريدة «دياريو دي أفريكا»²⁶ الصادرة بمدينة تطوان، رواية يمكن القول عنها إنها تتسم بالموضوعية والحيادية إلى حد كبير، حيث اعتبرت أن تلك الأحداث ما كانت

23 - جريدة «منبر الشعب»، السنة الثالثة، عدد 771، بتاريخ: 4 رجب 1371هـ / 1 أبريل 1952م.

24 - Bernabé López García: *Una jornada particular: el 30 de marzo de 1952 en Tánger*, p 241.

25 - كانت إسبانيا خلال فترة وقوع الأحداث ترأس لجنة المراقبة الدولية في المدينة.

26 - «Disturbios y nerviosismo en la ciudad internacional», in *Diario de África*, Año 8, N° 1968, Tetuán, Martes, 1 de abril de 1952.

لتقع بتلك الدرجة من الخطورة، بل كان بالإمكان تفاديها بقليل من رباطة الجأش والتبصر الذي كان يجب على المسؤولين التحلي بهما، وأنها تشكل وصمة في تاريخ المدينة الدولية التي حافظت على سجل خال من الحوادث. ثم تعرضت الصحيفة للسياق الذي توطّره هذه الأحداث، والمرتبط أساساً بالاحتجاج على معاهدة الحماية والمطالبة بتغييرها وتعديلها، الذي تجسّد في شكل حداد وصيام، وإغلاق المحلات التجارية وتعليق الرايات الملكية عليها مع الشارات السوداء. وأضافت الصحيفة أن يوم 30 مارس بدأ بشكل عادي كسائر الأيام في هدوء، باستثناء مظهر الحزن الذي عكسه الإغلاق التام. وسجلت أن الشرطة في المدينة لم تعر هذا الشكل الاحتجاجي أية أهمية، لكن لا يمكن الجزم بتقصيرها في اتخاذ الإجراءات الاحتياطية اللازمة، فالحراسة كانت عادية لا أقل ولا أكثر. وحول منشأ الأحداث وأصلها تقول الصحيفة: «بدأ بعض الشباب المغربي يهتفون بصراخ بدون تخريب، ربما أنه أسى فهمهم. كانوا سبب صدور أمر الاعتقال لواحد من الشباب، فعارضت الكتلة ذلك [...]، شيئاً فشيئاً اجتاحت الشوارع، وأنتجت الاصطدامات الأولى التي خلفت بعض الجرحى، ثم فاضت الحشود وهاجموا بالحجارة - التي وجدت في السوق البراني من أجل ترصيف أرصيته - الشرطة، وتطاير زجاج سينما ركس، الشيء نفسه وقع لمحلات شارع سينمارين، حيث نهبت الجموع بعضها منها. تعززت الشرطة بسرعة لتحمل مسؤولية الأحداث المقلقة، وتدفقت في شكل فيضان على الجموع، مستعملة الأسلحة النارية بشكل متكرر»²⁷.

أما جريدة «إسبانيا» الصادرة في مدينة طنجة الدولية، فقد استهلت مقالها المعنون بـ «حوادث خطيرة في طنجة»، بالتساؤل عن حجم مسؤولية الشرطة الدولية في عدم اتخاذ الإجراءات الضرورية من أجل تفادي وقوع هذه الأحداث الدموية التي يؤسف لها، مُعتبرة أنه مهما كانت الأسباب، فإن هذه الأحداث - التي خلفت ضحايا من السكان من مختلف الجنسيات والطبقات الاجتماعية - تبقى غير مُبرّرة بشكل قطعي. وعن الكيفية التي تطورت بها الأحداث، تطرقت الصحيفة إلى النداء الذي أطلقته الأحزاب الوطنية في المنطقة الفرنسية، باتخاذ يوم 30 مارس الذي يصادف الذكرى الأربعين لتوقيع عقد الحماية، يوم حداد وصيام وإغلاق المحلات التجارية المغربية، وبالفعل كانت هناك استجابة تامة لهذا النداء، ففي صبيحة يوم الأحد لم يفتح أي واحد من المحلات المغربية أبوابه، ولوحظت مجموعات من المغاربة في الشوارع، وحتى حدود منتصف النهار لم تقع الشرارة الأولى. حادث الهُتاف أو الصراخ من طرف أحد الشبان، وطريقة تعامل الشرطة معه، ثم اعتقاله، هو الذي استفز «المتظاهرين» ودفعهم إلى الاحتجاج «بطريقة تهديدية»، يقول المقال: «وأمام استحالة جعلهم [مجموعات المحتجين] ينسحبون ويعودون

27 - Ibid.

إلى الوراء، وبالتزامن مع شروع بعض المحتجين في مهاجمة المحلات، وجدت الشرطة نفسها مجبرة على إطلاق النار في شارع سينمارين من أجل صدهم. ثم توجهت المجموعات صوب السوق البراني وشارع إيطاليا والبولفار، في حين بقي آخرون في السوق الكبير، حيث قاموا برشق السيارات بالحجارة. الشرطة واجهت دون استراحة في القطاعات الحيوية من المدينة، ولم تستطع حماية مناطق سكنية أخرى [...] المجموعات التي صعدت صوب البولفار، رجمت عدة مؤسسات في شوارع خوانا دي أركو، فاس، فوكو وغيرها. رجال المطافئ اشتغلوا بدورهم بدون توقف، من أجل إقامة جبهات بخراطيم المياه أمام المتظاهرين أحيانا، ومن أجل إنقاذ السيارات المحترقة أحيانا أخرى»²⁸.

تجمع رواية الصحافة الإسبانية على أن سبب اندلاع أحداث طنجة كان هو تدخل الشرطة لقمع أحد المواطنين الذي كان يصرخ بصوت عال، حيث اعتبرت فعله هذا تحريضا على التظاهر فقامت باعتقاله، مما شكل استفزازاً مشاعر المتجمهرين الذين تدخلوا لمنع قوات الأمن من اعتقاله، فكانت الشرارة الأولى التي أدت إلى إشعال فتيل الأحداث الدموية. كما تُسجل الصحافة الإسبانية، لجوء الشرطة إلى استخدام الأسلحة النارية والرصاص الحي في تفريق المتظاهرين والسيطرة عليهم، مما استوجب حدوث رد الفعل المتمثل في الرشق بالحجارة التي كانت موجودة في عين المكان بأكوام عديدة، مما يثير الاستغراب! كما سجلت أن «المتظاهرين» لم يبادروا إلى التخريب، وأن قوات الشرطة استمرت في ملاحقتهم بشوارع المدينة الأوربية بالرغم من تفرقهم.

3.2 - رواية الصحافة المغربية:

اعتمدنا في استخلاص رواية الصحافة الحزبية المغربية على جريدتين اثنتين هما جريدة «منبر الشعب» الصادرة بطنجة، والناطقة بلسان حزب الوحدة المغربية، وجريدة «العلم» الناطقة بلسان حزب الاستقلال. وكما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، فإن هذين الحزبين قد وقعا ميثاق الجبهة الوطنية من أجل الاستقلال في أبريل سنة 1951م، كما أن نداء اتخاذ يوم 30 مارس 1952م يوم حداد، الذي وجهته الجبهة الوطنية إلى الشعب المغربي كافة عبر ربوع الوطن كله، نُشر أول الأمر في جريدة «منبر الشعب» يوم 25 مارس 1952م، ثم أعادت نشره جريدة «العلم» يوم 29 مارس.

تنطلق جريدة «منبر الشعب» من أن السبب الرئيسي الذي أدى إلى اندلاع أحداث طنجة الدامية، يرجع إلى الطريقة الوحشية التي تدخل بها أحد رجال الشرطة في قمع مواطن بدأ بالصراخ في السوق

28 - «Graves incidentes en Tánger», España, año 15 n° 4905, lunes, 31 de marzo 1952, La segunda pagina.

الخارجي، «وعندئذ تدخل أحد رجال الأمن بطريقة نقصها الكثير من اللباقة التي تستوجبها الظروف، فألقى القبض على ذلك الشخص، وعلى بعض الأطفال»²⁹. واعتبرت أن هذا الحادث البسيط، الذي لا يثير أي التفات في يوم عادٍ، كان الشرارة الأولى ليوم طنجة الأسود، «إذ كان القبض على الأفراد المذكورين والصفة التي تم بها، عاملين من عوامل الاستفزاز المراد والمتنظر ممن يترصدون بهذا اليوم الدوائر ليخلقوا فيه الفتنة». وأدانت الجريدة بشدة الإفراط في استعمال العنف وإطلاق الرصاص الحي من فوهات الرشاشات والبنادق والمسدسات في تفريق المتجمهرين، في الوقت الذي كان أمام قوات الأمن خيارات ووسائل أخرى عديدة يمكن اللجوء إليها؛ كمضخات الماء والغازات المسيلة للدموع، «وبالإجمال، فطنجة المغربية كما تستنكر أعمال الإتلاف التي اندفعت إليها العناصر الشعبية التي لم تستطع صبرا على الاستفزاز وإثارة العواطف، تستنكر في الطليعة ما قامت به بعض عناصر البوليس الدولي من استعمال فاحش للأسلحة النارية، مما يعتبر استهانة بأرواح العزل من المغاربة، واستغلالا سيئا لظروف مصطنعة إلى أقصى حدود الاستغلال، بينما كان من الممكن التغلب على الموقف باستعمال مضخات الماء والقنابل المسيلة للدموع ومؤخرات البنادق وغير ذلك من الوسائل التي مهما يكن من شيء ففيها صيانة للأرواح وعدم الاستهانة بها»³⁰. ونفت الجريدة -بشكل قطعي- أن تكون الجبهة الوطنية هي من دعت إلى التظاهر، مؤكدة على أن التظاهرة نشأت بشكل عفوي ومن تلقاء بعض العناصر التي تم استفزازها من قبل الشرطة. كما سجلت أن المظاهرة «لم تكن كما لاحظ الجميع موجهة ضد الأجانب عامة أو فريق منهم، وإنما كانت مظاهرة خلفتها الحوادث نفسها، واستغلتها العناصر المشار إليها، بدليل أن المصابين في أموالهم ومتاعهم ينتسبون لجميع الجاليات وللجنسية المغربية، كما تجمعهم جميع الأديان»³¹. ثم عادت الجريدة لتؤكد مرة أخرى، على أن ما وقع في طنجة من أحداث دموية، سببه هو الطريقة التي تدخل بها البوليس لقمع المواطنين، واستعماله للرصاص الحي في تفريق الحشود: «لو استعمل البوليس غير الرصاص ولو اتبع اللباقة التي تستوجبها الظروف لتفريق جموع أولئك المتجمهرين، لما عاشت طنجة يوم 30 مارس 1952م يومها التاريخي الأسود»³².

تتفق جريدة «العلم» مع جريدة «منبر الشعب» في كون أصل الأحداث يكمن في التدخل غير الاحترافي لشرطي غير منضبط تجاه أحد المواطنين؛ «وإلى الساعة الواحدة والربع كان الهدوء شاملا،

29 - جريدة «منبر الشعب»، السنة الثالثة، عدد 771، بتاريخ: 4 رجب 1371هـ / 1 أبريل 1952م.

30 - نفسه.

31 - نفسه.

32 - نفسه.

إلا أنه في هذه الساعة لطم أحد مفتشي البوليس بعض الأفراد في السوق وسط الجمهور وقاده عنوة إلى مركز الشرطة فتبعه الجمهور»³³. وتضيف الجريدة أن البوليس بادر بإطلاق النار بشكل عشوائي لتفريق المتجمهرين؛ «والذي يجب أن يسجل بكامل التأكيد هو أن البوليس أثناء قيامه بعملية قمع هذه الحركة كان يطلق النيران بكثرة من مسدساته ورشاشاته المتهورة»³⁴. فكان رد فعل المتجمهرين هو مواجهة الرصاص الحي بالحجارة، مما خلف بعض الخسائر المادية بالنسبة للمحلات التجارية والسيارات، والتي طالت أيضا ممتلكات المغاربة؛ «ومن بين المتاجر والسيارات المصابة، متاجر وسيارات لبعض المغاربة وكانت رافعة رايات مغربية الأمر الذي يدل على أن هذه الحركة لم تخل من دوافع خارجية»³⁵.

3 - حصيلة أحداث طنجة الدموية؛

مما لا شك فيه أن أسلوب القمع الوحشي الذي لجأت إليه الشرطة الدولية لتفريق جموع «المتظاهرين» والسيطرة على الوضع الأمني، واستعمالها للأسلحة النارية، وإطلاق الرصاص بكثافة وبشكل عشوائي على المتجمهرين العزل، كان السبب الرئيس في ارتفاع عدد الضحايا من الشهداء والجرحى الذين كان أغليبتهم من المغاربة، إذ لم تُسجل أية وفاة في صفوف الأجانب أو رجال الأمن. والملاحظ أنه ليس هناك إجماع حول عدد الضحايا من القتلى والجرحى بين الحصيلة التي أعلنت عنها الشرطة الدولية، وتلك التي نشرتها الصحافة بما فيها الإسبانية والمغربية، بالرغم من أن المصادر التي اعتمدت عليها استقت معلوماتها من المراكز الصحية والمستشفيات الأوربية في المدينة.

ففي تصريح صحفي لرئيس قوات الأمن الدولي الكولونيل لوكران، أشار فيه إلى أن عدد القتلى ثلاثة أشخاص، كما بلغ عدد الجرحى ستين شخصا منهم اثنا عشر جريحا حالتهم خطيرة³⁶. أما الصحافة الإسبانية فقد تحدثت عن سقوط عشرات الجرحى الذين نقلوا إلى المؤسسات الخيرية وبالأساس إلى مستشفى الصليب الأحمر الإسباني، حيث شاهد مراسل صحيفة «ديايو دي أفريقيا» وصول أكثر من خمسين مصابا، أغليبتهم من المغاربة، من بينهم عدد كبير إصابتهم خطيرة³⁷.

33 - جريدة العلم، السنة السادسة، عدد 1758 بتاريخ: الثلاثاء 5 رجب 1371هـ / 1 أبريل 1952م.

34 - نفسه.

35 - نفسه.

36 - «Graves incidentes en Tánger», España, año 15 n° 4905, lunes 31 de marzo 1952, La segunda página.

37 - «Disturbios y nerviosismo en la ciudad internacional», in Diario de África, Año 8, N° 1968, Tetuán, Martes, 1 de abril de 1952.

أما صحيفة «إسبانيا» فقد قدمت حصيلة مفصلة حسب المستشفيات والمستوصفات التي نُقل إليها الضحايا³⁸:

المستشفيات / المستوصفات	عدد القتلى	مجموع عدد الجرحى	الجرحى الأجانب منهم
المستشفى الإسباني	قتيل واحد	54 جريحا	9 إسبان
الصليب الأحمر الإسباني	قتيلان	60 - 65 جريحا	4 إسبان
المستوصف البلدي	3 قتلى	27 جريحا	5 إسبان و 1 فرنسي و 1 إيبريو (Hebreo) ³⁹
المستشفى الفرنسي	-	جريحان	-
المستشفى الإيطالي	-	3 جرحى	-
مستشفى بن شيمول	-	5 جرحى	-
المجموع	6 قتلى	178 أو 183 جريحا	20 جريحا

أما إذا انتقلنا إلى الصحافة المغربية، فنلاحظ أنها قدمت حصيلة مفصلة أيضا، تضمنت إحصاء شاملا لعدد الشهداء والجرحى في كل المستشفيات والمستوصفات الأوروبية في طنجة، وكذلك عدد الشهداء الذين أخذهم الجمهور من الشارع وقام بدفنهم بمقبرتي سيدي بوعراقية ومرشان؛ «كما بلغنا أن سبعة آخرين من القتلى قد التقطهم الجمهور من الشارع وقام بدفنهم، ويقال إن عدداً آخر من القتلى قد بقي ملقى في عرض الطريق، إذ لم يجسر الأهالي على التقاطهم أمام ما رأوا من استعمال الأسلحة النارية وهم عزل»⁴⁰. وكذلك الأمر بالنسبة للجرحى؛ فإلى جانب الجرحى الذين عولجوا في المستشفيات والمستوصفات، فإن «عدداً آخر من الجرحى قد حملوا إلى منازلهم بجراحهم، كما يشاع أن عدداً آخر من الجرحى قد سيقوا إلى السجن مباشرة، وأن عددهم يبلغ 35 جريحا»⁴¹. وفيما يلي الحصيلة التي قدمتها جريدة «منبر الشعب» الطنجية:

38 - España, año 15 n° 4905, lunes, 31 de marzo 1952, La segunda página.

39 - إيبريو تعني إسرائيلي أو يهودي.

40 - جريدة «منبر الشعب»، السنة الثالثة، عدد 771، بتاريخ: 4 رجب 1371هـ / 1 أبريل 1952م.

41 - نفسه.

عدد الجرحى	عدد القتلى	المستشفيات / المستوصفات
35 جريحا	7 قتلى	المستوصف البلدي
76 جريحا من بينهم 15 بوليسيا	5 قتلى	الصليب الأحمر الإسباني
-	قتيلان	المستشفى الفرنسي
-	قتيل واحد	المستشفى الإيطالي
-	3 قتلى	المستشفى الإسباني
5 جرحى	-	المستشفى الإنجليزي
5 جرحى	-	مستشفى بن شيمون
121 جريحا	18 قتيلا	المجموع

ثم عادت الجريدة الطنجية لتعلن -نقلا عن جريدة «إسبانيا»- أن عدد الجرحى الذين أصيبوا بجروح خطيرة بلغ 159 جريحا بين المغاربة والجنسيات الأخرى؛ «إلا أن الأكثرية المطلقة من المصابين بالعيارات النارية والمترايوزات كلهم من المغاربة، وكثير منهم لا علاقة له بالاضطرابات، وإنما كان مارا ففوجئ بالسلاح يوجه إليه من حيث لا ينتظر»⁴². الحصيلة نفسها تقريبا وردت في جريدة «العلم»، التي أحصت 25 قتيلا و120 جريحا، وأشارت إلى أن أطباء الصليب الأحمر الإسباني وحدهم استخرجوا 55 رصاصة، كما لاحظت «أن أغلبية إصابات الجرحى كانت في الصدر»⁴³. بناء على هذه الأرقام، يبدو واضحا أن الشرطة الدولية قد ارتكبت مجزرة حقيقة في حق أهالي مدينة طنجة العزل، مع سبق الإصرار والترصد؛ إذ لو كان هدفها -كما ادّعت- هو تفريق «المتظاهرين»، لما كانت معظم إصابات الجرحى والقتلى في الصدر والرأس. كما أن رصاص قوات الشرطة الدولية لم يكن يفرق بين المحتجين والمواطنين الذين لا علاقة لهم بالاضطراب، فكان يحصد بطريقة عشوائية أرواح الناس، حتى الأطفال والنساء لم يسلموا من هذا القمع الهمجي، إذ سجّلت الحصيلة أن من بين الضحايا أطفالا صغارا؛ «هذا ولقد حمل بعض الناس طفلا قتيلا إلى القنصلية البريطانية ثم الإسبانية حيث يوجد رئيس المراقبة ليشاهدوا هذا الطفل بأنفسهم»⁴⁴.

42 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 771.

43 - جريدة العلم، السنة السادسة، عدد 1758 بتاريخ: الثلاثاء 5 رجب 1371هـ / 1 أبريل 1952م.

44 - نفسه.

4 - تداعيات أحداث طنجة:

على إثر أحداث طنجة الدامية، توجه يوم 2 أبريل -إلى المندوبية الشريفة- وفد يمثل سكان طنجة، مؤلف من خمسين عضواً على رأسهم العالمان الجليلان الفقيه العربي التسماني والأستاذ عبد الله كنون⁴⁵، وطلبوا من مندوب الشؤون الشريفة السيد أحمد التازي، أن يرفع إلى جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله تعازي رعاياه الأوفياء في الضحايا الأبرياء الذين لقوا حتفهم يوم 30 مارس، ثم قدموا له عريضة استنكارية من أجل رفعها إلى الجهات المسؤولة في النظام الدولي بطنجة، جاء فيها: «فإننا معشر أهل طنجة على اختلاف طبقاتهم نرفع إليكم احتجاجنا الصارخ على ما جرى في يوم الأحد الفارط من اعتداء سافر على الجمهور المسالم واستفزاز ظاهر لشعور السكان المغاربة من طرف البوليس الدولي»⁴⁶. وقد استنكرت العريضة تعمّد لجوء قوات الأمن إلى استعمال الأسلحة النارية لتفريق المحتجين في الوقت الذي كان أمامها خيارات أخرى كمضخات الماء والقنابل المسيلة للدموع. وذكّرت العريضة بحيثيات إضراب المغاربة عبر ربوع الوطن يوم 30 مارس، محملة المسؤولية الكاملة للشرطة الدولية فيما وقع من أحداث مأسوية؛ «وقد أجمع الكل على أن سبب هذه الفاجعة هو تدخل أحد رؤساء البوليس بين جماعة من الشبان كانوا يهتفون لوطنهم، فأراد أن يسكتهم بقوة وخشونة لا مزيد عليها، فدافع الشبان عن أنفسهم بما في مستطاعهم، ولكن التدخل انقلب إلى اعتداء فظيع وانتقام شنيع. وكان السوق الخارجي مكتظاً بالعملة والمتسوقين الذين أتوا من القرى المجاورة بمناسبة يوم الأحد، فسقط في الميدان كثير من هؤلاء الأبرياء لأن البوليس لم يكونوا يميزون بين الناس وكانوا يصوبون الضربات إلى الصدور مما يدل على روح الغيظ والتشفي المستولية على حفاظ الأمن هؤلاء»⁴⁷. ثم اختتمت العريضة بتقديم مطالب سكان طنجة إلى المندوب الشريف من أجل رفعها إلى الجهات المسؤولة في النظام الدولي:

«أولاً: إيقاف هذا التعدي الذي لا يزال مستمرا إلى الآن، بالقبض على الناس وإيداعهم السجون، الأمر الذي لا يمكن أن يستتب الأمن معه، ولا أن يستجيب الجمهور لنداء السلم.

ثانياً: تحديد المسؤولية في هذه الحوادث وإيقاع العقوبة الصارمة على المتسببين فيها من هذا الرئيس البوليسي وأعوانه، وكل من له ضلع في هذه الفاجعة.

45 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 773، بتاريخ: الخميس 6 رجب 1371هـ / 3 أبريل 1952م.

46 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 774، بتاريخ: الجمعة 7 رجب 1371هـ / 4 أبريل 1952م.

47 - نفسه.

ثالثا: أن تعملوا على تطهير إدارة الأمن والشرطة من العناصر المدسوسة التي تريد إقلاق الأمن دائما على حساب الانتقام من المغاربة العزل الأبرياء.

رابعا: العمل على دفع تعويضات كافية لعائلات الجرحى والقتلى الذين أصبحوا من أول يوم يتقلبون في أحضان البؤس الذي هو السبب الأول في هذا الاستياء العام»⁴⁸.

وفي إطار حملتها التحريضية ضد المغاربة، وجهت صحيفة La Dépêche Marocaine الناطقة باسم الاستعمار الفرنسي، دعوة صريحة إلى عامة الأجانب القاطنين بطنجة "ليحملوا السلاح وليؤلفوا فرقا منظمة تنظيما عسكريا، لتقوم كل فرقة منها بحماية الحي الذي تسكنه والدفاع عنه ضد الاعتداء"⁴⁹. الأمر الذي كان يسعى إلى إثارة الفتنة بين سكان المدينة المتأخين.

حاولت إدارة الشرطة الدولية من جهتها استغلال الوضعية، للمطالبة بتعزيز قدراتها البشرية والتسليحية، والعمل على مراجعة القوانين المرتبطة بالحريات السياسية؛ كتأسيس الجمعيات وحرية الصحافة والتجمعات والتظاهرات في الطريق العام⁵⁰. كما طالبت بحل كل الجمعيات ذات الصبغة السياسية كـ «الشروق» و«الكشفية الإسلامية»، وإغلاق مقر حزب الوحدة المغربية، وحظر «الصحافة المعادية» في المناطق الثلاث من المغرب، وطرد جميع الزعماء الوطنيين المنتمين لحزبي الإصلاح الوطني والاستقلال المقيمين في مدينة طنجة بصفة غير قانونية⁵¹.

وتفاعلا مع مطالب ساكنة طنجة، قامت لجنة المراقبة يوم 9 أبريل بتشكيل لجنة للتحقيق في حوادث 30 مارس، تألفت من الملحقين العسكريين لمفوضيات الولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا⁵². وعلى المستوى القضائي باشرت المحكمة المختلطة محاكمة المعتقلين المغاربة بتهم التخريب والسرقة، وقد شهدت إحدى جلسات المحاكمة تبرئة الوطنيين المغاربة من تهمة التحريض على أحداث 30 مارس بطنجة⁵³.

48 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 774.

49 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 773، الخميس 6 رجب 1371هـ / 3 أبريل 1952م.

50 - Bernabé López García: *Una jornada particular: el 30 de marzo de 1952 en Tánger*, pp 244 - 245.

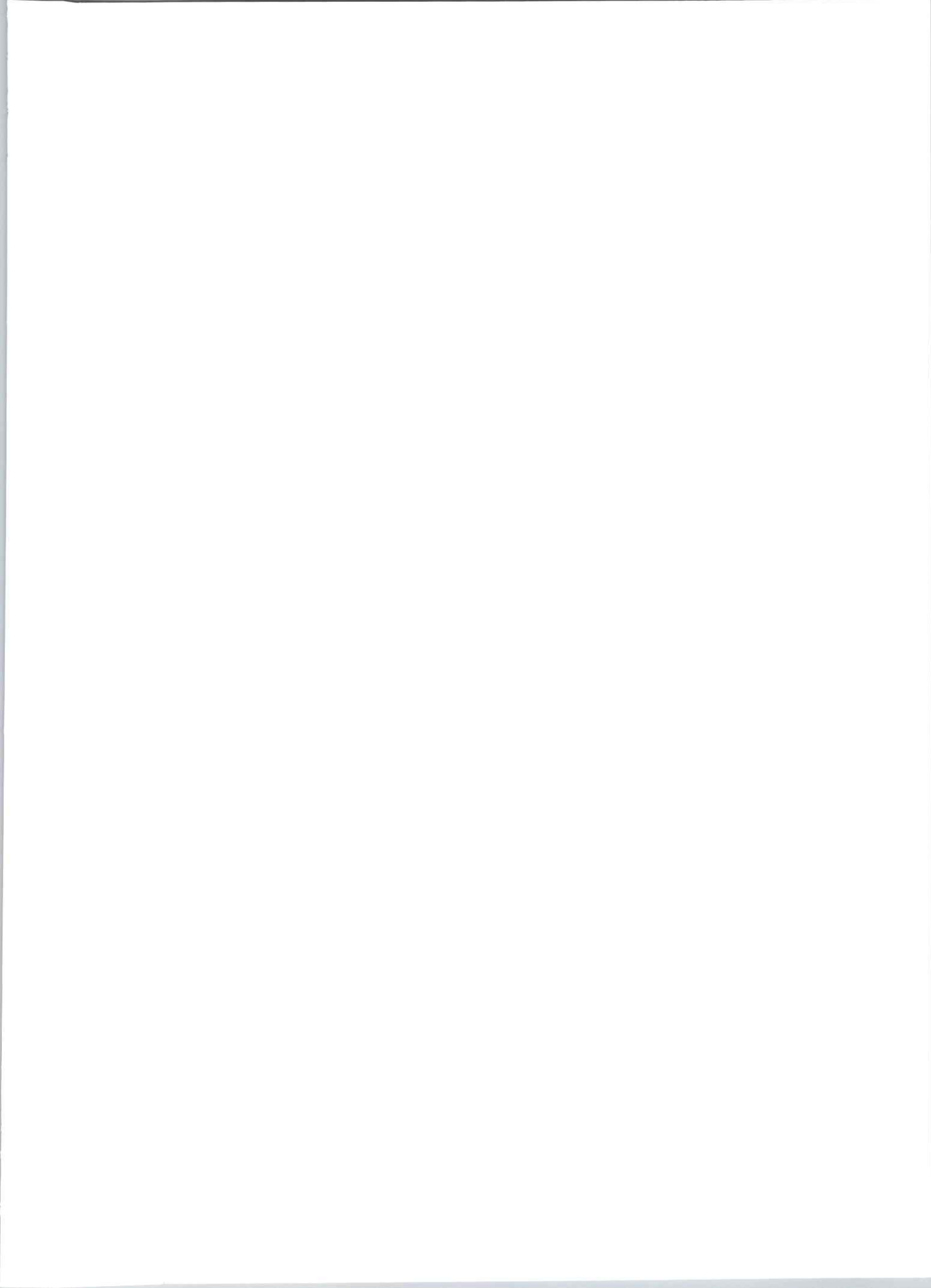
51 - Ibid.

52 - جريدة منبر الشعب، السنة الثالثة، عدد 780، بتاريخ: 14 رجب 1371هـ / 11 أبريل 1952م.

53 - نفسه.

خلاصة:

لا شك أن أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م، تعكس حالة التوتر الشديد الذي بلغته السلطات الاستعمارية في تعاطيها مع المطالب المشروعة للشعب المغربي في الاستقلال والحرية، التي تولى جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه رفعها إلى الجهات المسؤولة في الحكومة الفرنسية من خلال المذكرات الرسمية التي وجهها إليها، والزيارة الرسمية التي قام بها إلى فرنسا سنة 1950م، وكذلك من خلال خطب العرش التي شكلت هاجسا قضّ مضجع الحزب الاستعماري الفرنسي في المغرب، فكانت ردة فعله محاولة إسكات هذه الأصوات المتعالية ومنعها من أن تصدع بالحرية والاستقلال، وإخماد جذوة الحركة الوطنية المشتعلة بشتى وسائل العنف والقمع والإفراط في استعمال القوة. إلا أن سياسة الترهيب والتهديد التي انتهجتها السلطات الاستعمارية تجاه الشعب المغربي وتجاه عاهله وبطل التحرير محمد الخامس رحمه الله، لم تزدهم إلا إصرارا وثباتا على موقفهم الراسخ في الحصول على الاستقلال وبناء دولة ديمقراطية ذات سيادة. وقد برهن سكان طنجة -كباقي أبناء الشعب المغربي- على وطنيتهم الصادقة وإخلاصهم ووفائهم للعرش العلوي المجيد، فاسترخصوا أرواحهم ودماءهم في سبيل عزة الوطن وكرامته.



ثورة الملك والشعب: ذكرى ملأى بالدلالات والعبر

• ذ. إدريس الزعري المباركي

أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة بفاس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد، فلقد أعز الله أمتنا بالإسلام، وأنعم علينا سبحانه وتعالى في ظله بخير نظام، فاصطفت لنا العناية الإلهية الحكيمة الأسرة العلوية الشريفة لتتولى رعاية مصالحنا وفقا لدين الإسلام وشريعة القرآن، وتتسلم مقاليد أمورنا بما فرض الله لأولي الأمر من الطاعة والنصرة والامثال منذ قرون وأجيال... تلكم الطاعة التي قرنها الحق سبحانه بطاعته وطاعة رسوله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، إبرازا لأهميتها وإظهارا لفضلها في تحقيق وحدة الأمة، وضمن استقرارها وطمانيتها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِغُّوا لِلَّهِ وَالْصَّغُّوا لِلرَّسُولِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹، وقوله جل جلاله: ﴿وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾²، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»³.

وفي ضوء هذه المبادئ الدينية، وما تنطوي عليه من توجيهات حكيمة، وفي ظل الرعاية السامية لإمارة المؤمنين تحتفل بلادنا بذكرى عزيزة غالية ومناسبة وطنية مجيدة، إنها ذكرى ثورة الملك والشعب التي يخلد المغاربة هذه السنة ذكراها السبعين (70)، والتي تُمثل حدثا بارزا، ومناسبة مميزة يستحضر فيها الشعب المغربي معاني الثورة الوطنية، ودلالات تلاحم العرش والشعب، إنها مناسبة

1 - سورة النساء الآية 58.

2 - سورة الحج الآية 38.

3 - متفق عليه.

متجددة لتجسيد العروة الوثقى التي تربط المغاربة بالعرش العلوي المجيد، مناسبة ستظل راسخة في الذاكرة التاريخية للمملكة المغربية، باعتبارها محطة حاسمة في مسيرة الكفاح الوطني من أجل التحرر من نير الاستعمار، واسترجاع السيادة الوطنية.

وإذا كانت لهذه الذكرى دلالاتها القائمة على تثبيت المغاربة بملكهم، والتضحية الصادقة من أجل استقلال ووحدة وطنهم، فإن لها أبعادا حضارية وعبراً إنسانية تقدم نماذج رائعة ومبادئ فريدة في تاريخ تحرير الشعوب، والدفاع عن مقدساتها وثوابتها الدينية، والذود عن كرامتها وهويتها الوطنية.

إن ذكرى ثورة الملك والشعب هي إحدى الذكريات المؤسسة لتاريخ المغرب؛ « لأنها ترتبط أساسا بمرحلة استعلاء فيها المغاربة تاريخهم، الذي خُطط لكي يُسرق من لدن المستعمر ومن معه من الخونة»، بل هي مناسبة تاريخية عبّر فيها الشعب المغربي عن حبه لوطنه الغالي، وعن تفانيه في الحفاظ على نظامه السياسي، الذي يضمن له القوة والعزة والتميز والكرامة، ويحقق له الأمن والاستقرار والتنمية...

ومعلوم أن الاحتفال بالأحداث التاريخية ليس من أجل إحياء الذكرى فقط، وإنما هو أيضا من أجل استنباط العِظات، واستثمار العبر والدروس، واستحضار المبادئ الراقية، واستلهام القيم السامية؛ لتكون نبراسا يهتدى به في رسم معالم وملامح المستقبل. قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾⁴.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾: ينبغي تذكير الناس بالوقائع التي عرفتها بلادهم، وبنعم الله عليهم فيها؛ لأن ذلك أقرب وأبلغ في الاتعاظ، وكان ذلك شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ربطه الحوادث الدينية بالأزمنة التاريخية.

ومن هنا فإن تخليد ذكرى ثورة الملك والشعب، لمناسبة تتجاوز الفهم الضيق، والرؤية غير المُبصرة لسنن التدافع الحضاري، تلك التي لا يهتُمُّها من مثل هذه الأحداث التاريخية سوى إغلاق أبواب المؤسسات والإدارات، واستغلال المناسبة لاتخاذها عطلةً وراحة من العمل أو الدراسة، لتصل إلى مرحلة مهمة جدا وهي التحسيس بذكرى عظيمة عرفها تاريخ المغرب المعاصر، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوزها أو نسيانها أو غض الطرف عنها في بناء الحاضر، والتوجه بكل ثقة نحو

4 - سورة إبراهيم الآية 7.

5 - قال مقاتل في تفسير الآية: «بوقائع الله في الأمم السالفة». يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعهم، وإنما أراد بها كان في أيام الله من النعمة والمحنة، فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم. «إِنْ فِي غُلُوِّ لَأَيَاتِكُمْ لَكُمْ صِبَارٌ شُكُورٌ»: أراد: لكل مؤمن، لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين. يراجع: معالم التنزيل للبغوي، بتحقيق محمد عبد الله النمر، ج 4 ص 336 - دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997 م.

المستقبل⁶ ... فالأمة التي لا تعنى بتاريخها وأمجادها، أمة - لا ريب - أنها ستفقد هويتها وخصوصيتها، بل وتميزها التاريخي والحضاري ...

إن سجل الكفاح الوطني حافل بالأمجاد والبطولات، مليء بالمفاخر والملاحم والتضحيات، وإن الذاكرة الوطنية لتحفظ بما صنعه الآباء والأجداد من أعمال وطنية دفاعا عن المقدسات الدينية والوطنية و«إن ثورة الملك والشعب ليست وليدة لحظة تاريخية يتيمة، وإنما هي تعبير عن مسار حافل ومتجدد للمقاومة المغربية لكل أشكال الدفاع عن الهوية المغربية ... فهي وإن كانت بحق خلاصة فك الارتباط بالمستعمر، فإنها جاءت بعد سلسلة من الثورات والمحطات النضالية المهمة التي لا يمكن تجاهلها أو القفز عليها، ومنها على وجه الخصوص: معارك الهري بالأطلس المتوسط (1914م) وأنوال بالريف (1921م) وبوغافر بورزازات، وجبل بادو بالرشيدية (1933م)، فضلا عن محطات تاريخية أخرى لا تقل أهمية في هذا المقام، ومنها على وجه الخصوص: تقديم وثيقة الاستقلال يوم 11 يناير 1944م، ثم الزيارة التاريخية التي قام بها جلالة المغفور له محمد الخامس، يوم تاسع أبريل 1947م إلى مدينة طنجة، والتي حملت - من خلال الخطاب التاريخي الذي ألقاه ساعتها - الكثير من المعاني والدلالات، لعل من أبرزها التعبير عن الصمود والمقاومة والتضحية وترسيخ اللحمة والروابط الوطنية الموجودة بين الملك والشعب»⁷.

ففي 20 غشت من عام 1953م، استيقظ الشعب المغربي على خبر نفي جلالة المغفور له الملك محمد الخامس وأسرته الشريفة، من لدن السلطات الاستعمارية الفرنسية التي أبعدته عن العرش؛ انتقاما من مواقفه الوطنية البطولية، حيث اندلعت هذه الثورة، وانتفض الشعب المغربي انتفاضة عارمة، وتفجر غضبه في وجه الاحتلال الأجنبي رافضا المس بكرامته، والنيل من رمز سيادته ووحدته.

وفي هذا السياق، تشكلت الخلايا الفدائية والتنظيمات السرية، وانطلقت عمليات المقاومة التي أدت إلى استشهاد العديد من الوطنيين الأحرار، بمختلف مدن وقرى المغرب، لتتصاعد وتيرة الجهاد بالمظاهرات العارمة والانتفاضات المتواترة، وكان من نتائج وتبعات الحملات القمعية والمضايقات والملاحقات التي مارستها سلطة الاحتلال تجاه الوطنيين المناضلين الأبطال، أن سقط عشرات

6 - « فلسفة الاحتفال بذكرى ثورة الملك والشعب من أجل تجديد الاحتفالية في حياة الأمة بما يقتضيه مقام الذكرى »، للأستاذ عبد العزيز انميرات - دعوة الحق، العدد 423، ص 12.

7 - المرجع نفسه، ص 17.

الشهداء، ومئات الجرحى، إلا أن ذلك لم يُثنِ الشعب المغربي الأبيّ عن مواصلة كفاحه الوطني من أجل عودة ملكه الشرعي وأسرته الكريمة من المنفى إلى أرض الوطن، وإعلان الاستقلال.

وكانت واقعة هذه الثورة إيذانا ببداية النهاية للوجود الاستعماري في المغرب، حيث وقف الشعب المغربي صامدا، مناديا بعودة الملك الشرعي للبلاد، وكانت محطة تاريخية بارزة وحاسمة في مسيرة الكفاح المغربي الذي خاضه الشعب عبر عقود لصدا الاعتداءات الاستعمارية، فقدّم نماذج جيدة في تاريخ تحرير الشعوب من براثن الاستعمار، وأعطى المثال على قوة الترابط والوفاء بين العرش العلوي ومكونات الشعب المغربي.

وبفضل هذه الثورة المباركة والعارمة، لم يكن من خيار للإدارة الاستعمارية سوى الاستسلام لإرادة العرش والشعب، فتحقق النصر المبين، وعاد الملك المجاهد وأسرته الشريفة في 16 نونبر 1955 من المنفى إلى أرض الوطن، لتُعم أفراح العودة وأجواء الاستقلال وتباشير الخير واليمن والبركات سائر ربوع وأرجاء الوطن، وتبدأ معركة الجهاد الأكبر الاقتصادي والاجتماعي لبناء وإعلاء صروح المغرب الحر المستقل وتحقيق وحدته الترابية.

وعليه، فإن تاريخ 20 غشت يعد موعدا راسخا في قلوب المغاربة الذين يرون فيه مناسبة للتعبير عن التعلق المتين، والارتباط الوثيق بشخص جلالة الملك، ولحظة للإفصاح عن الرباط المتين لأواصر الولاء الدائم، والبيعة الوثقى التي تربط العرش والشعب، وهو رباط تعززت أوصاله بفعل النضال المشترك من أجل نيل الحرية والاستقلال، والمضي بالمغرب نحو التقدم والازدهار.

إن ذكرى ثورة الملك والشعب محطة سنوية تذكرنا بالكثير من المواقف النبيلة، لعل من أبرزها موقف الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه من الاستعمار، وثباته على ما تقتضيه روح الوطنية التي كان يلمسها في تحركات ومواقف الكثير من الرموز السياسية والوطنية، وإدراكه العميق للروح العالية لباقي أفراد الشعب المغربي المجاهد.

يقول جلالة الملك الحسن الثاني رحمة الله عليه في كتابه القيم: (محمد الخامس: فكرة وعقيدة)، معبرا عن هذا الضرب من الإحساس العميق بالروح الوطنية التي كان يتشبع بها السلطان الراحل طيب الله ثراه: «في هذا الموقف الرهيب، أتذكر فترة تاريخية عشتها بجانبك، حينما تكالب علينا الاستعمار، مهددا لجلالتك، متحديا لمهابتك، يساومنا على أن نرضى بالدنية في وطننا، ويراودنا على أن نرهن مصير الأمة في عبودية مستمرة، مستعملا لذلك أنواع التهديد... إنك لا تزال أمامي يوم أن طوّق القصر وأصبح محاصرا ساكنا كالقبر، وقد نظرتُ إليك نظرة إشفاق فقلت: لا تخف إن الله معنا».

لقد كان لحادث نفي السلطان محمد الخامس رحمه الله وتنصيب محمد بن عرفة الذي رفضه الشعب المغربي قاطبة أثرٌ بالغ في انطلاق شرارة حركة الفداء وجيش التحرير التي عمت كل أنحاء المغرب، وتوجت بعودة السلطان محمد الخامس إلى أرض الوطن وإعلان استقلال المغرب سنة 1956م.

وبالمستوى نفسه من الإحساس بالروح النضالية، وسيرا على نهج والده المنعم، خاض جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني رضوان الله عليه، معركة استكمال الوحدة الترابية، فتم في عهده استرجاع طرfaية 1958م، وسيدي إفني سنة 1969م، والساقية الحمراء سنة 1975م، ووادي الذهب سنة 1979م ... والأقاليم الجنوبية سنة 1975م بفضل المسيرة الخضراء المظفرة، التي تعتبر نهجا حكيمًا، وأسلوبًا حضاريًا مميزًا في النضال السلمي لاسترجاع الحق المسلوب ...

وإذا كانت هذه الملحمة قد شكلت بالأمس ثورة للتحرر من نير الاستعمار، فإن المغرب يشهد اليوم، تحت القيادة النيرة والمتبصرة لأمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، ثورة هادئة على درب تحقيق نهضة كبرى على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، وترسيخ قيم الحداثة والديمقراطية، وتعزيز مكانة المغرب الإقليمية والدولية، وتفعيل آليات صيانة حقوق الإنسان.

فالشعب المغربي بقيادة أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله يعيش عهدًا جديدًا يرتقي فيه مدارج التقدم والازدهار، مواصلا مسيرة الجهاد الأكبر، ومحققا نهضة كبرى ترسم للمغرب معالم مستقبل واعد في وطن يتمتع بحريته وبوحدته الترابية، التي تحققت بعد كفاح وطني مرير بفضل التحام إرادة العرش العلوي المجيد، وإرادة الشعب المغربي الأبسي.

فمنذ اعتلائه عرش أسلافه الميامين، قام جلالة الملك بإطلاق عدد من الأوراش التنموية، بالموازاة مع جملة من الإصلاحات التي مست مختلف المجالات والمؤسسات، والتي باشرها جلالته استجابة لتطلعات شعبه الوفي وانتظاراته⁸.

فمنذ أن تولى صاحب الجلالة الملك محمد السادس مقاليد الحكم في 30 يوليوز 1999م، بصم على عهد جديد سمته الأساسية تحقيق إنجازات ملموسة في مختلف المجالات الدينية والسياسية والدبلوماسية والاجتماعية ... كما أسهمت الإصلاحات التي باشرها جلالته خلال العقدين الأخيرين بشكل واضح وجلي في وضع المغرب في مرتبة أرفع في سلم الديمقراطية والحداثة والتنمية، وحولت المملكة إلى ورش مفتوح ضخم يسير على درب الازدهار والنمو على جميع الأصعدة.

8 - يراجع في شأن هذه الإنجازات والإصلاحات: موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية.

وبفضل عمق الرؤية المستنيرة لجلالة الملك، انخرط المغرب في دينامية قوية من الإصلاحات التي تستهدف تأهيل الموارد البشرية، وإعداد سياسات قطاعية تلامس التعليم والإدارة والعدالة والصناعة والطاقة والفلاحة إضافة إلى قطاع الشؤون الدينية.

وتندرج هذه الدينامية في إطار إرادة صاحب الجلالة في تحقيق تنمية شاملة ومندمجة للمملكة، وإرساء عدالة اجتماعية، وتعزيز مكانة المغرب على الساحتين الإقليمية والدولية، وتكريس قيم الديمقراطية والحداثة، في تناغم مثالي مع أسس الهوية المغربية والقيم المؤسّسة للدولة الوطنية.

إن الشعب المغربي وهو يخلد الذكرى السبعين لثورة الملك والشعب - التي تقترب هذه السنة بالذكرى الرابعة والعشرين لتربع رائد الأمة وباني المغرب الجديد، أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس نصره الله، عرش أسلافه الأماجد ليُشيد بهذه الملحمة المباركة المتجددة، لاستلهاام دلالاتها، وما تنطوي عليه من قيم نبيلة وعبر سنية، من شأنها تنوير أذهان الأجيال بإشعاعها، والاعتزاز والتشبع بمعانيها ودلالاتها ...

هذه الثورة التي قال عنها جلالته حفظه الله إنها: « ذكرى للأمة كلها، تُحتم علينا على الدوام استحضار أرواح جميع المقاومين للتزود من جهادهم المتفاني، والتذكير بما أبلوا به من تضحيات كبيرة في شتى الأقاليم ومختلف المواقع، مع إشادة خاصة بالعلماء ورجال الفكر والسياسة، وطبقة العمال والفلاحين، والتنويه بدورهم العظيم في تحرير البلاد »⁹.

وستظل ملحمة ثورة الملك والشعب، بالنظر لما حملته من عبر ودروس ودلالات عميقة، ممثلة في قيم الوفاء والتضحية، وحب الوطن والاعتزاز بالانتماء إليه، راسخة في ذاكرة المغاربة حيث جسدت بامتياز ذلك التلاحم القوي بين العرش والشعب الذي لا يزداد مع مرور الحقب والأزمات إلا قوة ومتانة ورسوخا. هذا ومن موجبات إخلاصنا لما نهض به أسلافنا من تضحيات ضرورة مواصلة حمل مشعل تلك الثورات من أجل مغرب الوحدة والتضامن والإصلاحات، وفي ذلك خير وفاء لأرواح أبطال هذه الأمة وفي مقدمتهم جلاله المغفور له مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، وجلالة المشمول بعفو الله مولانا الحسن الثاني أكرم الله مثواه، وكافة شهداء الوطن تغمدهم الله بواسع رحمته وأسكنهم جميعا فسيح جناته مع الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا آمين، والحمد لله رب العالمين.

9 - من خطاب أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثامنة والستين لثورة الملك والشعب.

خطاب ثورة الملك والشعب: قضايا وأبعاد

● دة. طامو آيت مبارك

أستاذة التعليم العالي بجامعة محمد الخامس بالرباط

تظل الخطاب الملكية السامية مدخلا أساسيا للإصلاح الهيكلي، وإطارا مرجعيا هاما لتحديد معالم السياسات والبرامج العمومية، وتجسيد الرؤى والتصورات التي تؤطر توجهات الدولة. إنها خارطة الطريق التي تشخص مظاهر وسمات الأوراش والإصلاحات الكبرى. فهي بمثابة النبراس الذي يُهتدى بنوره ويقتبس بضياءه في شتى الميادين والمجالات، وفي مختلف القضايا والأنشغالات. «فبالرجوع إلى الخطاب الملكية يمكن معرفة الديناميات السياسية التي تعرفها البلاد، كما يمكن معرفة الأوراش الإصلاحية التي أطلقت في هذا الإطار، فضلا عن كون الخطاب الملكية تعد وسيلة لتقدير حجم المنجزات ومتابعتها، وأيضا لتقسيمها من خلال تحديد الخصائص والتحديات، إضافة إلى أن هذه الخطاب تقدم للدارسين والمتبعين نظرة واضحة حول النظام الدستوري المغربي والوظائف والأدوار الاستراتيجية للمؤسسة الملكية ومساهماتها القيادية في عمليات التشييد والبناء الديمقراطي والتنمية الوطني، وأدوارها الريادية على مستوى تعزيز الشراكة والتعاون والتضامن الدولي والإقليمي، وبالخصوص على مستوى القارة الإفريقية والفضاء العربي والمتوسطي»¹.

إن الناظر المتأمل والممعن في الخطاب الملكية السامية عموما، والخطب الموجهة إلى الأمة بمناسبة تخليد ذكرى ثورة الملك والشعب على وجه الخصوص، لا يجد صعوبة في استجلاء مضامينها بشمولية ودقة، ويتبين بسهولة ويسر دلالاتها وأبعادها المتعددة، كما يدرك أيضا أن مضامين هذه الخطاب (ثورة الملك والشعب)، وإن تعددت وتنوعت، فإنها لا تتباين، بل تتطابق وتتجانس فيكمل بعضها الآخر. وهي في مجملها لا تستثني قضيتين محورتين شكلتا بؤرة اهتمام وعناية جلالة الملك محمد السادس، وهما قضية الوحدة الترابية، والمشروع التنموي الوطني.

1 - الهية (المحجوب)، كتاب حقوق الإنسان في الخطاب والرسائل الملكية السامية، 1999-2016م، صادر عن المندوبية السامية المكلفة بحقوق الإنسان، نونبر 2016م، ص 18.

أولاً: القضايا

➤ القضية الأولى: الوحدة الترابية ومقترح الحكم الذاتي

ظلت قضية الصحراء المغربية من الأولويات التي حرص جلالة الملك محمد السادس على إيلائها اهتماما خاصا، إذ ما انفك جلالته يعلن رفضه القاطع لكل مشروع يستهدف المس بالوحدة الترابية للمملكة وسيادتها، أو يعتزم تهديد سلمها واستقرارها، فهي تشكل بالنسبة لجلالته جوهر الوحدة الوطنية وقضية كل المغاربة، الأمر الذي يستوجب على الجميع، كل من موقعه ودرجة مسؤوليته، مواصلة التعبئة واليقظة للدفاع عن الوحدة الوطنية والترابية، وذلك انطلاقا من إيمان جلالته الراسخ أن مصدر القوة في الذود عن حمى الوطن يتجلى في إجماع كل مكونات الشعب المغربي حول مقدساته، على اعتبار أن قضية الصحراء المغربية ليست فقط مسؤولية ملك البلاد، وإنما هي أيضا قضية جميع الأطراف المشكلة للأمة.

وتكمن أهمية هذه القضية، في كونها تعتبر ملفا سياديا بامتياز، «النظارة التي ينظر بها المغرب إلى العالم، وهو المعيار الواضح والبسيط، الذي يقيس به صدق الصداقات، ونجاعة الشراكات²». إذ من خلال هذا الملف تستطيع المملكة المغربية إعادة رسم معالم سياستها الخارجية، وتحديد توجهاتها الاستراتيجية وعلاقاتها الاقتصادية والتجارية. علما أن الدبلوماسية المغربية تمكنت بفضل الرؤية الحكيمة والمتبصرة لقائد البلاد أن تحقق توازنات هامة على المستويين الدولي والإقليمي حيث اتسعت على إثرها قاعدة الاعتراف بنجاعة مقترح الحكم الذاتي الذي يعتبر الحل الوحيد والأوحد للنزاع المفتعل حول مغربية الصحراء. فهو مقترح ينضوي على مضمون جوهرى وذو مصداقية من جهة كونه يراعى الخصوصيات الاجتماعية والثقافية للجهة، ويحترم المعايير الدولية في مجال الحكم الذاتي، فضلا عن كونه يعد جزءا لا يتجزأ من التوجه الملكي الرامي إلى بناء مجتمع ديمقراطي حديث ومنفتح.

إنه مقترح يستمد قوته من المسار التشاوري القائم على الديمقراطية التشاركية والفعالية. ففي الوقت الذي يحرص فيه مقترح الحكم الذاتي على الحفاظ على سيادة المملكة، فإنه يخول لجهة الحكم الذاتي صلاحيات واسعة.

وقد تجسدت نجاعة الدبلوماسية المغربية في تزايد عدد الدول التي سحبت اعترافها بالكيان الوهمي، وإقدام دول أخرى على فتح مقرات لقنصلياتها بالمناطق الجنوبية، وفي ذلك دلالة قوية

2 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب لسنة 2022 م.

تتمثل، من جهة، في احتكام هذه الدول إلى الشرعية الدولية وقواعد القانون الدولي، ومن جهة ثانية، أنها لمست الجدية والمصادقية في الاختيار السياسي المغربي.

يقول جلالة الملك: «لقد تمكنا خلال السنوات الأخيرة، من تحقيق إنجازات كبيرة، على الصعيدين الإقليمي والدولي، لصالح الموقف العادل والشرعي للمملكة، بخصوص مغربية الصحراء. وهكذا، عبرت العديد من الدول الوازنة عن دعمها، وتقديرها الإيجابي لمبادرة الحكم الذاتي، في احترام لسيادة المغرب الكاملة على أراضيه، كإطار وحيد لحل هذا النزاع الإقليمي المفتعل. فقد شكل الموقف الثابت للولايات المتحدة الأمريكية حافزا حقيقيا، لا يتغير بتغير الإدارات، ولا يتأثر بالظرفيات. كما نشمن الموقف الواضح والمسؤول لجارتنا إسبانيا، التي تعرف جيدا أصل هذا النزاع وحقيقته. وقد أسس هذا الموقف الإيجابي، لمرحلة جديدة من الشراكة المغربية الإسبانية، لا تتأثر بالظروف الإقليمية، ولا بالتطورات السياسية الداخلية. وإن الموقف البناء من مبادرة الحكم الذاتي، لمجموعة من الدول الأوروبية، منها ألمانيا وهولندا والبرتغال، وصربيا وهنغاريا وقبرص ورومانيا، سيساهم في فتح صفحة جديدة في علاقات الثقة، وتعزيز الشراكة النوعية، مع هذه البلدان الصديقة. وبموازاة مع هذا الدعم، قامت حوالي ثلاثين دولة، بفتح قنصليات في الأقاليم الجنوبية، تجسيدا لدعمها الصريح، للوحدة الترابية للمملكة، ولمغربية الصحراء. ولا يسعنا بهذه المناسبة، إلا أن نجدد عبارات التقدير، لإخواننا ملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية الشقيقة، وخاصة الأردن والبحرين والإمارات، وجيبوتي وجزر القمر، التي فتحت قنصليات بالعيون والداخلة. كما نشكر باقي الدول العربية، التي أكدت باستمرار، دعمها لمغربية الصحراء، وفي مقدمتها دول مجلس التعاون الخليجي ومصر واليمن. ونود هنا، أن نعبر أيضا عن اعتزازنا بمواقف أشقائنا الأفارقة، حيث قامت حوالي 40 في المئة من الدول الإفريقية، تنتمي لخمس مجموعات جهوية، بفتح قنصليات في العيون والداخلة. وتشمل هذه الدينامية أيضا، دول أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي، حيث قامت العديد منها، بفتح قنصليات في الصحراء المغربية؛ وقررت دول أخرى توسيع نطاق اختصاصها القنصلي، ليشمل الأقاليم الجنوبية للمملكة.»³

➤ القضية الثانية: المشروع التنموي الوطني وحرص جلالة الملك على إشراك المواطن فيه

من منطلق اقتناع جلالته التام، بأن النموذج التنموي هو نقطة انطلاق نحو مشروع مجتمعي من شأنه أن يحد من الفوارق المجالية ويقلل منها، على أساس المساواة وتكافؤ الفرص بين جميع المواطنين والمواطنين، ويساهم بالتالي في إرساء جهوية متقدمة قادرة على النهوض بكل جهة، فقد شدد جلالته،

3 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب لسنة 2022م.

في جل الخطب الموجهة إلى الأمة بمناسبة تخليد ذكرى ثورة الملك والشعب، على ضرورة إشراك كل طاقات وكفاءات الأمة في المشروع التنموي الوطني، وجعل المواطن في صلبه باعتباره دعامة أساسية لكل نموذج تنموي، وأحد المكونات الأساسية للرأسمال لا مادي.

يقول جلالته في خطابه السامي: "لقد حرصنا على جعل المواطن المغربي في صلب عملية التنمية، والغاية الأساسية منها. واعتمدنا دائما، مقاربة تشاركية وإدماجية، في معالجة القضايا الكبرى للبلاد، تنخرط فيها جميع القوى الحية للأمة".⁴

وقال في سياق آخر: «وإننا نتطلع أن يشكل النموذج التنموي، في صيغته الجديدة، قاعدة صلبة، لانبثاق عقد اجتماعي جديد، ينخرط فيه الجميع: الدولة ومؤسساتها، والقوى الحية للأمة، من قطاع خاص، وهيآت سياسية ونقابية، ومنظمات جمعوية، وعموم المواطنين. كما نريده أن يكون عماد المرحلة الجديدة، التي حددنا معالمها في خطاب العرش الأخير: مرحلة المسؤولية والإقلاع الشامل. شعبي العزيز،

إن الغاية من تجديد النموذج التنموي، ومن المشاريع والبرامج التي أطلقناها، هو تقدم المغرب، وتحسين ظروف عيش المواطنين، والحد من الفوارق الاجتماعية والمجالية»⁵.

وجاء في خطاب آخر: "إن هذا الوضع يتطلب تطوير مجموعات ومقاولات قوية، تعزز مناعة الاقتصاد الوطني، سواء لمواجهة المنافسة الدولية، أو من أجل تطوير شراكات مع المقاولات الصغرى، للنهوض بالتنمية، على المستوى الوطني".⁶

لقد حرص جلالته الملك على جعل النموذج التنموي هدفا استراتيجيا يتوخى تحقيق إقلاع تنموي مستدام يكون حافزا لسيرورة التغيير والإصلاح الرامي إلى تجديد المنظومة الاجتماعية وجعلها من جهة، مساهمة للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية، ومن جهة أخرى، مواكبة للتطلعات المستقبلية، وذلك عبر الاستراتيجيات التالية:

- تعزيز الحكامة الترابية والمؤسساتية؛
- توفير الخدمات الاجتماعية والمرافق العمومية الجهوية الكفيلة بتحقيق الاكتفاء الذاتي للمواطن؛
- إشراك الشباب في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛

4 - مقتطف الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2019م.

5 - المرجع نفسه.

6 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب، 2014م.

- تنزيل آليات الديمقراطية التشاركية؛
- الاستثمار في الرأسمال البشري كرافعة لتحقيق نموذج تنموي فعال؛
- تشجيع الاستثمار وخلق مشاريع خاصة تساهم في خفض نسب البطالة، وتشكل دعامة للنهوض بالشباب؛
- خلق سوق شغل يدمج فئات واسعة من السكان، والاستفادة من فئة الشباب، خاصة حاملي الشهادات منهم؛
- القضاء على الفوارق الاجتماعية، والإسهام في الارتقاء الاجتماعي.

ثانياً: الأبعاد الإنسانية للخطب الملكية

الخطاب الملكي خطاب حمّال للمعاني والدلالات العميقة، مشحون بالرؤى والأغراض، غاصّ بالمقاصد، يضمّر أكثر مما يصرح، يقتضي متقبلاً لا يطلب المعنى من ظاهر التركيب، بل يغوص في باطن المتن لاستقصاء الأبعاد .

ولا تخرج الخطب السامية التي ألقاها جلالة الملك تخليداً لذكرى ثورة الملك والشعب عن هذا الوصف، فقد جاءت حبلً بالمقاصد والمعاني والدلالات، ونحن عندما نستقرئها فإنها تمدنا بمجموعة من الأبعاد التي تأخذ مظاهر متعددة، من جملتها الأبعاد الإنسانية.

تمظهرات الأبعاد الإنسانية في الخطب السامية

• المظهر الأول: كرامة المواطن كرامة وطن

شكلت الكرامة إحدى الغايات السامية التي ما فتئ جلالته الملك محمد السادس نصره الله يشدد على صونها وحفظ عزتها، عبر ترسيخ لوازِمها ومتطلباتها المتمثلة أساساً في تمتيع الجميع، دون استثناء، بالأمن والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية، وذلك لإيمان جلالته الراسخ بأن الكرامة قيمة إنسانية أوسع من منظومة الحقوق، فهي مكون لكينونة الإنسان الوجودية ومشتل تستنبت فيه كل القيم، كما أنها مدخل أساس لوحدة الوطن وأمنه واستقراره، والمرتكز الذي يقوم عليه المشروع المجتمعي الديمقراطي. فكرامة الوطن رهينة بكرامة المواطن، فإذا تحققت هذه الأخيرة، قوي بنيان الوطن وصحّ عمرانه وساد إشعاعه، وإن انتفت كرامة المواطن، كان العمران بقدر ما تحصل منها.

لقد حرص جلالته الملك منذ توليه مقاليد الحكم ورعاية شؤون الأمة، على تكريس مقومات المواطنة الكريمة وضمن الحقوق والحريات، وبذ كل أشكال التمييز والممارسات المهينة للكرامة الإنسانية،

يقول جلالة الملك محمد السادس أعزه الله: «سيظل المغرب وفيما لالتزاماته الدولية مواصلاً بقيادتنا مسيرة إنجاز مشرونا المجتمعى الديمقراطى الحداثى بايمان وثبات وإصرار. وسىجد خدىمه الأول فى مقدمة المتصدين لكل من ىرىء الرجوع به إلى الوراء، وفى طلىعة السائرىن به إلى الأمام، لكسب معركتنا الحقىقىة ضء التخلف والجهل والانغلاق. وهذا ضمن استراتىجىتنا الشمولىة المتكاملة الأبعاد بما فىها الجانب السىاسى والمؤسسى والأمنى المتسم بالفعالىة والحزم فى إطار الديمقراطىة وسىادة القانون. والجانب الاقصادى والاجتماعى الذى ىتوخى تحریر المبادرات وتعبئة كل الطاقات لخدمة التنىمة والتضامن. والجانب الءىنى والتربوى والثقافى والإعلامى لتكوين وتربىة المواطن على فضائل الانفتاح والحءاة والعقلانىة والجد فى العمل والاستقامة والاعتءال والتسامح. وسنظل حرىصىن أشء ما ىكون من الحرص على نهج السىاسات اللازمة لتفعىل هذه الاستراتىجىة هءفنا الأسمى فى ذلك تعزىز كرامة المواطن وتحصىن الوطن وضمان إشعاعه الدولى بعون الله وتوفىقه»⁷.

إن تأكىء جلالته الءائم على هذا البعء الانسانى ىأتى فى ظل الإمامة العظمى، القائمة على البىعة والمىثاق الراسخ بىن الراعى والرعىة، كما ىنءرج ضمن مقتضىات إمارة المؤمنىن التى تءرك أن الكرامة الإنسانىة مقصء من المقاصء الأخلاقىة للشرىعة الإسلامىة، فهى مرتبطة بكلىات الشرىعة الخمس وهى حفظ الءىن وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال.

من هذا المنطلق وضع أمىر المؤمنىن الكرامة فى صلب اهتماماته، جاعلاً إىاها قىمة إنسانىة سامىة لا قىمة تعلو عىلها.

وتتجلى مظاهر الاهتمام الملكى بكرامة المواطن فى مجموعة من الخطب الموجهة إلى الأمة، والتى ءعا فىها جلالته إلى تنزىل مخرجات المشارىع التنىموىة، وإشراك المواطن فىها مع توفىر الإمكانيات التى تصون كرامته وتعمل على تحقىق أقصى المنافع له، وتضمن له سبل العىش الكرىم.

جاء فى الخطاب الملكى السامى: «شعبى العزىز، نحتفل الیوم، بالذكرى الخامسة والخمسىن لثورة الملك والشعب الخالءة باعتبارها ملحمة تاریخىة، من أجل استقلال الوطن.

لقد جسءت هذه الثورة، نموذجا لا مىثل له، لتلاحم ملك بشعبه وتعلق شعب بملكه، فى كفاح مشترك، من أجل الحرىة والكرامة. وبلغت الملحمة أوجها، عىءما أثر جءنا المقدس، المغفور له، جلالة الملك محمد الخامس، المنفى السحقى عن الوطن، والإبعاد عن العرش رافضاً، بكل صمود وثبات على المباء، التفرىط فى سىادة الأمة، أو المساومة فىها»⁸ وجاء فى الخطاب السامى بتاريخ 20

7 - مقتطف من الخطاب الذى وجهه جلالة الملك إلى الأمة إثر الاعتءاء الإرهابى الذى ضرب مءىنة الءار البىضاء، بتاريخ 29 ماى 2003 م.

8 - مقتطف من الخطاب الملكى السامى بمناسبة ثورة الملك والشعب 2008 م.

غشت 2015م: « شعبي العزيز، إذا كنا نعتبر خدمة المواطن هي الغاية من كل السياسات الوطنية، فإننا نضع ضمان أمنه وسلامته، في صدارة انشغالاتنا. »

وذكر جلالته في خطاب 2019 ما يلي: «لقد قامت ملحمة 20 غشت المجيدة، من أجل تحرير الوطن واستقلاله. كما تعززت بالجهاد الأكبر، الذي نخوضه، في سبيل تقدم ورخاء المواطن المغربي. وإننا ملتزمون بمواصلة حمل مشعلها، وفي ذلك خير وفاء لأرواح شهداء الوطن الأبرار، وأكبر دافع لتكريم أبناء شعبنا الوفي، والتجاوب مع تطلعاتهم المشروعة.»

• المظهر الثاني: تبيين رابطة المحبة والإخلاص بين الملك والشعب

تزخر الخطب الملكية بجملة من الأساليب البلاغية والتراكيب الرمزية ذات الأبعاد والدلالات البليغة، والتي أضفت على هذه الخطب لمسة إبداعية وجمالية.

وتنبوأ الإشارات الشخصية والمؤشرات القولية ذات الطابع الأخلاقي صدارة هذه التراكيب، فهي ليست فقط متواليات لسانية ينحصر دورها في الربط والوصل بين الجمل والفقرات، بل هي إفصاح رمزي يضطلع بوظائف تداولية وتختزن حمولات ثقافية واجتماعية وحضارية أكثر عمقا ورحابة.

إن توظيف مركبات إضافية، في الخطب الملكية الموجهة إلى الأمة بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، من قبيل «شعبي العزيز»، «الشعب الأبي»⁹ و«الشعب المغربي المخلص»¹⁰، وكذا تواتر أدوات إشارية مثل «بيني وبينك» في العبارات التالية: «كما نؤكد العهد المشترك بيني وبينك - شعبي العزيز - على مواصلة حمل مشعل الثورة المتجددة للملك والشعب»¹¹ وقول جلالته أيضا: «فمنذ تولينا العرش، حرصنا على أن يكون التجاوب التلقائي بيني وبينك، عماد بناء مجتمع متقدم ومتماسك، يتسع لكل أبنائه، ويعتز كل مغربي ومغربية بالانتماء إليه»¹²، وأيضا ورود ضمائر الجمع بدل ضمائر المفرد، كل هذه العناصر اللغوية ترمز وتحيل لامحالة إلى معان عميقة، فهي من جهة تشير إلى غياب التراتبية والهرمية وانتفاء المسافة بين الملك والشعب في إطار الإبقاء على الاحترام والتوقير الواجب للملك، ومن جهة ثانية تبيين رابطة المحبة بين العرش والأمة، ومن جهة ثالثة تجسد التأدب الأقصى والتواضع الأسمى الذي يتمتع به جلالته، وهما تأدب وتواضع مشمولان بالتلطف والتعفف والإخلاص.

9 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2000م.

10 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 1999م.

11 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2011م.

12 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2014م.

لقد ذهب البلاغيون وعلماء اللغة إلى أن القواعد الأخلاقية التي تحكم التفاعلات الكلامية من شأنها أن تتجاوز قواعد اللغة، على اعتبار أن الفعل الكلامي ليس مجرد تلفظ، وإنما هو إرادة صادرة عن متكلم يتغني من خلالها حمل مخاطب على إنجاز فعل معين، وفق ما تقتضيه سيرورة الخطاب التي لا تقف عند حدود القول والتبليغ والإفهام، بل تتعدى ذلك إلى قواعد التأدب والتهذيب. "فلما كان التخاطب يقتضي إشراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية، أو قل فائدتها التواصلية، نسميها بقواعد التبليغ، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدد استقامتها الأخلاقية، أو قل التعاملية نسميها بقواعد التهذيب"¹³.

نستشف مما سبق أن تواتر عبارة «شعبي العزيز» ومثيلاتها، تعد تداوليا مؤشرا ودليلا على مدى الترابط الوثيق بين العرش والأمة، وهو ترابط يصل إلى حد التشارك في الإحساس والفعل، ونستأنس في توضيح ذلك بما جاء في الخطاب الملكي السامي: «شعبي العزيز»... لقد تمكنا خلال السنوات الأخيرة، من تحقيق إنجازات كبيرة، على الصعيدين الإقليمي والدولي، لصالح الموقف العادل والشرعي للمملكة، بخصوص مغربية الصحراء»¹⁴.

وقوله أيضا: «شعبي العزيز، إن روح ثورة 20 غشت الخالدة، بما تحمله من معاني التضحية والتضامن والوفاء، في سبيل الوطن، ستبقى تنير طريقنا، وتلهم الأجيال المتعاقبة، في ظل الوحدة الوطنية والترايبية، والأمن والاستقرار»¹⁵.

إن استعمال ضمير الجمع في الخطب السامية ليس الغرض منه التعظيم والتفخيم، بل إن الغاية هي إظهار المشاركة والقرب والتأدب. فقد ذكر طه عبد الرحمن أن استعمال ضمير الجمع بدل ضمير المفرد يراد به الدلالة على المشاركة والقرب وجعل « المتكلم ناطقا باسمه وباسم غيره، ولا غير أقرب إليه من المخاطب، حتى كأن هذا المخاطب عالم بما يخبره به المتكلم ومشارك له فيه، فيكون ضمير الجمع، من هذه الجهة، أبلغ في الدلالة على التأدب والتواضع من صيغة المفرد، ولا دلالة له إطلاقا على تعظيم الذات ولا على الإعجاب بالنفس»¹⁶.

13 - شفطر (إيهاب سعد)، الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب في القرآن الكريم، مقاربة تداولية، مجلة كلية الآداب والعلوم، المجلد 14، العدد 1، 2022م، ص 1829م.

14 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2022 م.

15 - المرجع نفسه.

16 - عبد الرحمن (طه)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1998م، ص 5.

علاوة على هذين البعدين، ومن منطلق إرادته الأكيدة في استعادة اللحمة العربية وتوطيد علاقات الجوار، تجلّى بعد إنساني آخر يتجسد في حرص الملك على تعزيز سلوك التلاحم والتآزر بين مكونات الأمة العربية، وتثمين علاقات التضامن والتعاون بين المغرب والجزائر إذ ما فتئ جلالته يجدد الدعوة في كل مناسبة لنبذ الخلاف وفتح صفحة جديدة لما يجمع بين الشعبين من روابط إنسانية ومصير مشترك. يقول جلالته الملك في خطابه السامي: «وما أحوجنا اليوم، في ظل الظروف الراهنة، التي تمر بها الشعوب العربية، والمنطقة المغاربية، لتلك الروح التضامنية، لرفع التحديات التنموية والأمنية المشتركة. وإننا نتطلع لتجديد الالتزام، والتضامن الصادق، الذي يجمع على الدوام الشعبين الجزائري والمغربي، لمواصلة العمل سوياً، بصدق وحسن نية، من أجل خدمة القضايا المغاربية والعربية، ورفع التحديات التي تواجه القارة الإفريقية»¹⁷.

إنها دعوة من جلالته لتجاوز الخلاف وإعادة العلاقات على أسس متينة تتجاوز مخلفات الاستعمار، وتعمل على تحقيق التنمية والرفاهية للشعبين الشقيقين.

اعتماداً على ما سبق، تسجل الخطاب الملكية السامية، بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، فخر حضارة أمة عريقة، حريصة على جعل المواطن المغربي في صلب اهتماماتها، فهي تعكس ترابطاً روحياً قوياً بين جلالته الملك وجميع مكونات الوطن، لاستكمال مسيرة النماء والتقدم والرخاء.

17 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب 2016 م.

جوانب من أسباب نفي السلطان محمد الخامس (ت1961م) ورد فعل الشعب المغربي دفاعا عن العرش واستقلال البلاد

• د. أحمد الأزمي

أستاذ باحث بفاس

في تلك الليلة المشؤومة من يوم 20 غشت 1953م، وهو اليوم الذي صادف عيد الأضحى، أجبرت القوات الاستعمارية الفرنسية السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه على مغادرة المغرب وتم نفيه إلى جزيرة كورسيكا التابعة لدولة فرنسا، ثم قامت السلطات الفرنسية بنفيه إلى مدغشقر في يناير 1955م، وقد كان لنفي السلطان وعائلته وقع كبير على الشعب المغربي الذي ربط كفاحه الوطني برجوع الملك، ومعه استقلال البلاد، فكانت عودته يوم 16 نونبر 1955م بعد أن تمكن من انتزاع الاعتراف بالاستقلال الذي طالما تلكأت فرنسا وماطلت من أجل الحيلولة دون تحقيق هذا مطلب الغالي.

فما هي إذن، الأسباب التي كانت وراء نفي هذا السلطان؟ وكيف كانت ردود فعل الشعب المغربي بعد أن بلغ إلى علمه خبر النفي والإبعاد؟ ذلك أن السند الذي وجده السلطان المبعد في شعبه بمختلف جهات المغرب، شكل ضغطا لا يقاوم على المستعمر من أجل عودة المغفور له محمد الخامس رحمه الله، مظفرا منصورا.

I - نفي السلطان محمد الخامس: الأسباب والوقائع

1 - مؤشرات تحدي السلطان سيدي محمد بن يوسف للسلطات الفرنسية والتحامه بشعبه المتشبث

ببيعته:

لقد خاب أمل السلطات الاستعمارية بالمغرب، عندما أدركت أن السلطان محمد الخامس، الذي كانت تتوهم فيه الانقياد لرغباتها، هو الذي كان يحمل راية الكفاح من أجل الاستقلال¹ ابتداء من سنة 1930م ولم يخطر على بالها قط أنه سيصير زعيما سياسيا ماهرا في ابتكار أساليب النضال.

1 - روم لاندو، الحسن الثاني ملك المغرب، ترجمة بنحمان الداودي، الطبعة 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999م، ص 16.

والواقع أن طبيعة تكوين شخصية السلطان محمد الخامس الوطنية العربية الإسلامية، لم تكن تسمح له بسلوك وسيلة أخرى في التعامل مع المستعمر غير مبدأ الوفاء لشعبه الذي تربطه به بيعة شرعية، وهي البيعة التي كافح من أجل البرهنة على تمسكه والتزامه بها من خلال مواقفه النضالية المتعددة مثلما بقي الشعب ملتفا حوله تحقيقا للهدف نفسه، لذلك نرى أن مواجهة محمد الخامس طيب الله ثراه للمستعمر يحكم في ديناميتها عاملان هما: «عقد البيعة» و«مبدأ النضال» كما سيأتي.

كان السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه، يدرك جيدا أن البيعة عقد وعهد يقومان على صيغ شرعية محددة، لذلك لم يكن بإمكانه ولا فكر قط في عدم الوفاء بهذا العهد مهما كانت التوضيحات للمحافظة كملك شرعي على مصالح بلاده ورعيته، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾²، وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾³، وقوله تعالى أيضا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾⁴.

ومما ساعد السلطان محمد الخامس رحمه الله من الناحية الوضعية والقانونية والمواثيق الوطنية والدولية، أن معاهدة الحماية حافظت في بنودها على أسس الملك الرمزية معترفة بعقد الحماية الذي يربط الملك بشعبه، كما أن أقطاب الحركة الوطنية راهنوا على شرعية محمد الخامس كسلطان للمغرب إبان نظام الحماية أو بعده، وفي مقدمتهم علال الفاسي الذي نقرأ له في كتاب: «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» قوله: «لم يعرف المغرب مدة أربعة عشر قرنا شكلا للحكم غير الملكية، فالعرش بقي رمز وحدته، ودليل ماضيه، والذي سيكون في المستقبل عامل التوازن الاجتماعي فيه»⁵. وقد ظل المرحوم علال الفاسي بالفعل على عهده ودفاعه على نظام الملكية المغربية ورمز وحدتها جلاله المغفور له محمد الخامس حتى بعد خلعه من قبل الفرنسيين سنة 1953م، كما تشهد على ذلك نداءاته من القاهرة⁶. نقرأ أيضا في «حرب القلم» لمحمد حسن الوزاني نفس الالتفاف حول العرش وملكه من قبل التنظيم السياسي الذي كان يقوده هذا الزعيم، فمن بين ثلاثين مطلباً قدمها هذا التنظيم للسلطات الاستعمارية سنة 1937م، تتعلق بإصلاح الإدارة المغربية وتحقيق العدالة الاجتماعية، والسماح بحرية التعليم العربي الإسلامي، وغير ذلك من المطالب نجد المطلب الأول ينص على: «ضمانة السيادة

2 - سورة المائدة، الآية 1.

3 - سورة النحل، الآية 91.

4 - سورة الإسراء، الآية 34.

5 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، الرباط، 1956م، ص 159.

6 - علال الفاسي، نداء القاهرة، الرباط 1959م، ص 3 وما بعدها.

القومية المغربية في طول البلاد وعرضها، باحترام حقوق العرش ونفوذ جلالة السلطان، وصيانة ذلك كله من الاعتداءات التي تتوالى عليه من جراء تصرفات الإدارة الاستعمارية»⁷

ووعيا من الملك محمد الخامس بالدور الريادي الذي يقوم به رجال الحركة الوطنية إلى جانبه، فإنه أبدى من المواقف لدعم زعماء هذه الحركة ما عرضه للكثير من الأخطار، ونكتفي بالإشارة هنا إلى رفضه التبرؤ من «حزب الاستقلال» عندما طلب منه «الجنرال جوان» ذلك يوم 26 يناير 1951 م.

فلماذا إذن كل هذا التجذر والأصالة للنظام الملكي؟

الجواب هو أن شيئا مقدسا يربط بين السلطان والرعية، ويتعلق الأمر بالبيعة التي ظل نظام الحماية محافظا عليها كمؤسسة، إذ تعتبر أكبر آصرة قانونية تترجم الوئام الموجود بين السلطان والأمة، ووعيا بأهميتها القصوى وضرورتها في مشروعية الحكم بالمغرب، لم يستطع المستعمر الاستغناء عنها بعد محاولة خلع السلطان محمد الخامس، فعمد إلى تنصيب باء بالفشل لمحمد بن عرفة، مما يمكن معه القول إن البيعة هي العقد الوحيد الذي ظل يحافظ للسلطان على صفته كأمر للمؤمنين بشكل قانوني، فباسمه كانت تقام الصلوات في مساجد المغرب، وباسمه كانت تضرب السكة، وبصفته ملكا وإماما للمغاربة ألقى السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه خطبة الجمعة أمام المصلين يوم 11 أبريل 1947م بمسجد طنجة الأعظم، باعثا بذلك سنة الخلفاء الأوائل، وحارب البدع وبعض الخونة...⁸

ومن جهة أخرى، يمكن الاستدلال بعدة أمثلة للبرهنة على أن مشروعية البيعة كانت تجد تربتها الخصبة في أوساط الجماهير الشعبية التي تعتبر أمتن دعامة لكل سلطة بقيادة الزعماء الوطنيين، وتتعلق هذه الأمثلة بما كان يقوم به أفراد الشعب المغربي ومؤطروهم من مبادرات للفت انتباه السلطات الفرنسية إلى ما تكنه الرعية من حب وولاء لرمز وحدة البلاد وملكها الشرعي محمد الخامس، ونقتصر هنا على ذكر الأحداث المتعلقة بتأسيس ذكرى عيد العرش ثم زيارة السلطان محمد الخامس لفاس وزيارته فيما بعد لطنجة.

• تأسيس ذكرى عيد العرش:

يذكر الأستاذ علال الفاسي أنه لما سافر إلى فرنسا فارا من بطش الفرنسيين بالمغرب، عمد رجال السلطات الفرنسية إلى الإيقاع بينه وبين محمد الخامس عندما أبلغوه أن هذا الزعيم سافر مبعوثا من

7 - محمد حسن الوزاني، حرب القلم، بيروت 1981م، ج 1، ص 20.

8 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 143.

الكتلة الوطنية للتفاوض من أجل إرجاع المولى عبد الحفيظ لعرش المغرب⁹، غير أن الملك محمد الخامس لم تنطل عليه الخدعة، حسب نفس المصدر، بل تفتن إلى مكر المستعمر وسعيه إلى الإيقاع بين رجال الحركة الوطنية وفي مقدمتهم ملك البلاد.

ومن جهتها لم تبق الكتلة الوطنية مكتوفة الأيدي أمام دسائس الفرنسيين، بل بادرت بالقيام بما شأنه أن يظهر عمليا تضامنها وتعاطفها تجاه ملك البلاد، فاهتدت إلى فكرة تأسيس «عيد العرش المغربي» يوم 18 أبريل 1933م، غير أنه تجنباً للعنف الذي يمكن أن تواجه به السلطات الفرنسية المغاربة المحتفلين بهذه الذكرى من شدة الصدمة التي أصابتها عندما علمت بالخبر، فإن الاحتفال الرسمي لن يتم إلا في السنة الموالية أي يوم 18 نونبر 1934م، وهكذا، يضيف علال الفاسي «انكشف للجميع أن الكتلة الوطنية لا تمثل إلا الوفاء والإخلاص اللذين يكنهما الشعب المغربي لعرشه المجيد وملكه العظيم»¹⁰.

• زيارة محمد الخامس لمدينة فاس:

أظهرت الرعاية من خلال ساكنة فاس تعلقا كبيرا بملكها خلال هذه الزيارة التي تمت يوم 8 مايو 1934م¹¹، فرغم ما رافقها من أحداث معادية للملك وشعبه كان وراءها الفرنسيون حيث لبست المدينة بمناسبة الزيارة الملكية أبهى حللها، ونصبت أقواس النصر تزينها الرايات الحمراء في كل الجهات، وتغنى الفاسيون بنشيد جديد من نظم علال الفاسي تعبر مضامينه عن آمال الأمة الوطنية والقومية التي يجب أن تتحقق بقيادة عاهل البلاد¹²، كما أصدرت جريدة «عمل الشعب» عددا خاصا مُحلّى بصورة الملك وصورة ولي العهد مولاي الحسن الذي صار يحمل لقب «أمير الأطلس».

وعند وصول الملك إلى المدينة والتقاءه بشعبه، أظهر الجمهور ساعة وصول جلالته من الحماس والتأثر ما أطلق الألسنة بالهتافات والأدعية الصادقة بحرية المغرب واستقلاله، سواء في اليوم الأول من هذه الزيارة أو في اليوم الثاني، لكن في اليوم الثالث منع الملك من أداء صلاة الجمعة بمسجد القرويين¹³، تحت ذريعة أن المتظاهرين من أفراد الشعب بمناسبة هذه الزيارة، مروا بعد رجوعهم من استقبال الملك وتحيته، بدار الجنرال¹⁴ وهتفوا بسقوط فرنسا، وأن شابا عمد إلى شخص رفع العلم

9 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص 161.

10 - نفسه.

11 - Ahmed Abdeslam Bekkali, **Mohamed V, premier résistant**, Imprimerie Dédio, Salé, (s.d), p.21.

12 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 161.

13 - عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الدار البيضاء 1976م، ج1، ص 110 - 111.

14 - المقصود به الحاكم العسكري الفرنسي بفاس.

الفرنسي بديكاهه فشتمه ورمى العلم في الأرض، إلى غير ذلك من الذرائع، فطلبت السلطات الفرنسية من الملك، من جراء ذلك، أن يكتفي بأداء صلاة الجمعة في مسجد القصر أو السماح للإدارة بأن تضع على طريق جلالته صفيين من جنود الحماية، مع إعطاء موافقته باعتقال زعماء الكتلة¹⁵.

وهنا وقف المغفور له محمد الخامس وقفة نضالية أخرى عندما غادر فاس دون أداء صلاة الجمعة بها، محتجا بذلك على ادعاءات الفرنسيين الكاذبة، ورفض في الوقت نفسه إعطاء موافقته باعتقال زعماء «كتلة العمل الوطني» التي بعثت إليه بعد عودته للرباط برقية تعلن فيها تضامنها مع جلالته، كما أصدرت عددا خاصا من «عمل الشعب» تشرح فيه الحقيقة عن يوم 10 ماي 1934م¹⁶.

• زيارة جلالته لطنجة:

ما يهمننا في هاته الزيارة التي تمت في شهر أبريل 1947م هو الاستقبال الرائع الذي خصصه سكان الشمال لملكهم الذي يرون فيه رمز الخلاص والوحدة¹⁷. ففي اليوم العاشر من الشهر المذكور، وبينما كان القطار الذي يقل جلالته يسير في اتجاه طنجة، كانت الجماهير محتشدة في المحطات الرئيسية لتحية جلالته، وعندما وصل القطار إلى «عرباوة» امتلأ الجو تصفيقا وهتافا بالآلاف من رعايا السلطان محمد الخامس، الذين أتوا لتحية عاهلهم العظيم، وتجديد بيعتهم له، ومعاهدته على مواصلة الكفاح حتى النصر، وهو الأمر نفسه الذي حصل في مدينة «أصيلا». أما في «طنجة»، فكانت الجماهير الغفيرة تتكبد في جوانب المحطة وساحتها والطريق المؤدية إليها، والتهافتات تتعالى من الأرض، وترتفع من السطوح والنوافذ في بهجة وسرور، وما أن ظهر محيا مولانا للعيان حتى امتزج هدير المدافع وألحان الموسيقى بزغاريد النساء وأصوات الجماهير وتصفيقها، ولم يتمكن الموكب الشريف من اختراق تلك الأمواج البشرية التي كانت تلوح بالرايات، والتي غصت بها الشوارع المزدانة بالزرابي والأعلام وأقواس النصر إلا بجهد جهيد¹⁸، وبذلك يمكن القول إن سكان الشمال عموما وطنجة خصوصا قد قدموا البرهان الساطع على تعلقهم بالعرش المغربي وملكه العظيم.

15 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 304.

16 - نفسه.

17 - Ahmed Abdeslam Bekkali, op. cité, pp. 34 - 35.

18 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 304.

2 - بعض من مواقف السلطان محمد الخامس النضالية المفضية به إلى المنفى:

يمكن إجمالها كالآتي:

أ - أسباب غير مباشرة:

• الاجتماع سراً بالهيئة المسيرة لحزب الاستقلال:

كان السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه يتلقى أخبار التحركات السياسية للوطنيين عن كثب، وكان يساعده في ذلك محمد الفاسي، كما يذكر ذلك الأستاذ عبد الكريم غلاب¹⁹، وتطورت هذه العلاقة حتى انتهت أخيراً إلى رغبة السلطان في الاتصال المباشر بالهيئة المسيرة لحزب الاستقلال، وتم هذا الاتصال في شهر مايو 1943 بشكل سري لم تطلع عليه إلا اللجنة التي حضرت الاجتماع. أما الشخص الذي قادهم إلى المكان السري، فهو أحمد بن مسعود الذي كان وطنياً وأمير سر الملك.

وقد تم الاجتماع في مخبأ خاص داخل القصر الملكي، كان قد بني كملجأ خوفاً من الغارات الجوية المحتملة أثناء الحرب العالمية الثانية²⁰. شهد المخبأ أكبر تحالف بين الملك والنخبة الوطنية من أبناء الشعب ولم تبدأ المحادثات إلا بعد أن أقسم الجانبان أمام المصحف على الإخلاص في العمل وكتمان السر وخدمة الوطن²¹، وبذلك يمكن القول إن هذا الاتصال كان انتصاراً للفكرة الوطنية، واعتبره الملك أكبر نصر لأنه وحد جهوده مع الفئة المخلصة من أبناء شعبه.

• المطالبة بالاستقلال:

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن المطالب المقدمة في البداية للإقامة العامة كانت تتعلق بالإصلاحات كخطوة أولى للحصول على الاستقلال²²، لكن العديد من الشهادات تشير إلى أن السلطان محمد الخامس بتنسيق مع زعماء حزب الاستقلال قلب المعادلة فيما يخص هذا الموضوع، فعوض المطالبة بالإصلاحات من أجل الاستقلال ألح على ضرورة الحصول عليه أولاً (الاستقلال) من أجل تحقيق الإصلاحات²³.

19 - تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، م.س، ج1، ص 270.

20 - نفسه.

21 - نفسه، ص 271.

22 - محمد حسن الوزاني، م.س، ص 20 وما بعدها.

23 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 245.

كان أهم حدث وظفه جلالته سياسيا بذكاء هو نزول قوات الحلفاء بالمغرب، وذلك باتفاق مع أهم زعماء الحركة الوطنية، وبمناسبة انعقاد مؤتمر الدار البيضاء في شهر يناير 1943م الذي شارك فيه كل من الرئيس الأمريكي «روزفيلت» والوزير الأول البريطاني «تشرشل» والجنرال الفرنسي «دوكول»، قام جلالته بالمساعي الضرورية لحضور هذا المؤتمر، عندما اجتمع جلالته بالأقطاب المذكورين²⁴، لم يترك الفرصة تمر دون أن يعبر للرئيس الأمريكي عن رغبة بلاده الملحة في أن تحصل على استقلالها، مذكرا إياه أن المغرب كان أول بلد في العالم اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية. وبما أن انتصار الحلفاء الكلي على دول المحور كان وشيكا، ونظرا للتضحيات الجسيمة التي قدمها المغاربة لصالح الحلفاء دفاعا عن اعتناق أوروبا نفسها من الاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية، بدعم من الملك نفسه²⁵، فإن المغرب - يقول السلطان محمد الخامس مخاطبا «روزفيلت» - يطمح إلى استعادة حريته واستقلاله.

وكان موقف الرئيس الأمريكي إيجابيا، بعد أن وعد المغفور له محمد الخامس بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستقف إلى جانب المغرب لاسترجاع حريته بعد نهاية الحرب.

وبهذا الإنجاز يكون محمد الخامس قد حصل على أهم دعم خارجي، خصوصا وأن الجنرال «دوكول» سيعترف لجلالته بموقفه البطولي والتاريخي إلى جانب فرنسا الحرة، مما حدا به إلى تقليده «أكبر وسام» تمنحه فرنسا لشخصية بارزة غير فرنسية²⁶.

• عريضة الاستقلال والسفر إلى طنجة:

نشأ «حزب الاستقلال» على إثر انعقاد مؤتمر بالرباط في 11 يناير 1944م، ويرى الأستاذ علال الفاسي أن الأمة كلها تكتلت في هذا الحزب الذي كان جلالته الملك محمد الخامس يتتبع خطوات تأسيسه عن قرب.

وكان تأييد جلالته لنشأة هذا الحزب، وموافقته على كل مضامين وثيقة الاستقلال المنبثقة عنه، أكبر موقف نضالي كان من شأنه التعجيل برحيل الاستعمار²⁷. واعترافا من زعماء الحركة الوطنية بالدور الريادي الذي قام به محمد الخامس في قيادة معركة الحرية والاستقلال ضد المستعمر، فإن البند الأول

24 - Hassan II, la mémoire d'un Roi, Entretiens avec Eric Laurent, Paris 1993, pp 16- 17.

25 - Ibid, p 9.

26 - Ahmed Abdeslam Bekkali, op. cité, pp. 30 - 31.

27 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 246.

من هذه العريضة طالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدي محمد بن يوسف نصره الله وأيده²⁸.

أما سفر جلالته إلى طنجة الذي فصلنا فيه القول سابقا، فنعود له هنا لحمولته السياسية القوية في سياق النضال ضد المستعمر، ويتجلى ذلك في:

- رد الفعل الشعبي العارم في التحامه مع العرش، وصورة ذلك أنه في يوم 10 أبريل (يوم السفر إلى طنجة)، وخلال اختراق جلالته للمنطقة الخليفة الخاضعة للاحتلال الإسباني كان يتلقى هدايا من رعاياه الذين غصت بهم المحطات لتحيته²⁹.
- وفي طنجة كان يعقد جلسات مع ممثلي مختلف البلدان.

• الصدى الطيب والقوي الذي خلفه مضمون خطاب طنجة على المستوى الدولي عموما وعلى مستوى الدول العربية على وجه الخصوص، إذ ظهر للعالم برمته تضامن وإجماع كل المغاربة على رفض الحماية كشكل من أشكال الاستعمار، كما حث المواطنين من خلال نفس الخطاب الذي هو "خطبة الجمعة" على التمسك بشعائر الدين الإسلامي، كما أشار إلى أهمية العلاقة بين المغرب والعرب وضرورة تمتينها خصوصا بعد قيام "جامعة الدول العربية"³⁰، وبهذه الجراءة جعل جلالته العالم يدرك حقيقة الوضع في المغرب، ورغبة هذا الأخير في الاستقلال بفضل موقف ملكه النضالي رغم شراسة العدو وصعوبة المرحلة التاريخية.

- إغفال جلالته الشناء على فرنسا في الخطاب المذكور³¹، مما اعتبرته الدولة المستعمرة ضربة موجعة لها.

ب - أسباب مباشرة:

يمكن إجمالها في كون محمد الخامس طيب الله ثراه قرر الإضراب عن استعمال الطابع من جهة ورفض التبرؤ من حزب الاستقلال من جهة أخرى، وكانت أهم مناسبة استعمل فيها الملك محمد بن يوسف سلاح عدم تشغيل الخاتم وأثرت تأثيرا بالغا في المقيمة العامة للمغرب، هي محاولة المقيم العام استدراج جلالته لتوقيع ظهائر تتعلق بإدماج المغرب في إطار «الاتحاد الفرنسي»³²، كما رفض

28 - عبد الكريم غلاب، م.س، ص 282.

29 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 295.

30 - حلمي محمد عشي، المغرب الأقصى كما رأيته، القاهرة، دون تاريخ، ص 24-25.

31 - نفسه.

التبرؤ من حزب الاستقلال وطرده معاونه ومستشاريه من القصر والحكومة، على أن تعيد له الإقامة العامة بدلا منهم، فكان جواب الجنرال «جوان» على موقف محمد الخامس النضالي هذا يوم 16 يناير 1951م هو تهديد جلالته، وتخييره بين أمرين: إما الاستجابة للمطالب الفرنسية، وإما الخلع من العرش، فرفض محمد الخامس من جديد، فما كان من «جوان» إلا أن أصدر أوامره إلى الباشا الكلاوي ورجال القبائل بالزحف على الرباط وفاس³³، ورغم أن محمد الخامس كان مستعدا لجميع الاحتمالات، فإنه رافة برعيته هادن الفرنسيين مؤقتا إلى أن اتخذت المسألة المغربية بعدا دوليا على المستوى الإعلامي، فأشيع في العالم الإسلامي أن الجنرال «جوان» يضغط على الملك محمد الخامس ليتنازل عن العرش، فارتفعت أصوات الاحتجاج³⁴.

وعندما رأت فرنسا زيف ادعاءاتها أمام العالم واقتضاح أمرها بخصوص الاتهامات الباطلة التي تكيلها الإقامة الفرنسية بالمغرب لملك البلاد، عمدت -إنفاذا لسمعتها- إلى التضحية بالجنرال «جوان» وتعويضه بالجنرال «كيوم» كمقيم عام جديد، غير أن هذا الأخير كان أسوأ من سلفه، إذ عمد إلى تنفيذ الجريمة التي خطط لها «جوان»، فأصدر أمره بخلع السلطان عن عرشه يؤازره في ذلك الباشا الكلاوي، وذلك يوم 20 غشت 1953م³⁵، بعد أن تمت محاصرة القصر الملكي وتجريد الحرس السلطاني من سلاحه، مع إجبار رجال هذا الحرس على رفع أيديهم مولين وجوههم نحو الحائط³⁶. وفي المطار العسكري للسويسي، ركب السلطان وأبناءؤه مجبرين طائرة عسكرية.

وبعد ساعات من الطيران جوا، حطت الطائرة في مدينة «أجاسيو Ajaccio» بجزيرة كورسيكا الفرنسية. وفي 29 يناير 1954م، قررت فرنسا نقله إلى مدينة «تنانريف Tananarive» عاصمة بلاد مدغشقر الواقعة شرق إفريقيا وهي جزيرة بدورها ككورسيكا تخضعان معا للنفوذ الفرنسي.

وكانت السلطات الفرنسية قبل يوم نفي السلطان (يوم 20 غشت) قد لجأت منذ 14 من الشهر نفسه إلى تحريك عملائها في المملكة المغربية، وفي مقدمتهم الحاج التهامي الكلاوي بمراكش من أجل سد الفراغ القانوني الذي سيحدث بعد عزل السلطان محمد بن يوسف، وما سترتب عن ذلك من إحراج للدولة الفرنسية المستعمرة، تجاه المجتمع الدولي عموما والشعب المغربي على وجه الخصوص، فعمد العملاء المذكورون بدعامة «الكلاوي» بمدينة مراكش إلى عقد اجتماع بإيعاز من فرنسا، ضم

33 - Hassan II, *Le Défi*, Paris 1976, pp 29- 30.

34 - حلمي محمد عيش، م.س، ص 29.

35 - Hassan II, *Le Défi*, op. cité, pp 29- 30.

36 - محمد العربي المساري، محمد الخامس من سلطان إلى ملك، الطبعة 1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة عكاظ، الرباط، 2013م، ص 37.

أعضاء المجلس الأعلى للحركة الكلاوية وشخصيات بارزة عسكرية ومدنية موالية للمقيم العام الفرنسي بالمغرب. وبعد مناقشات مستفيضة، قرر المؤتمرون في هذا الاجتماع خلع السلطان محمد بن يوسف ومبايعة صنيعة الاستعمار محمد بن عرفة³⁷.

II - رد فعل الشعب المغربي على هذا العدوان الغاشم:

بتنفيذ جريمة الاعتداء على السلطان ونفيه، وتعويضه بمحمد بن عرفة، لم تكن فرنسا تعلم أن الملك محمد الخامس تصرف بشكل يعجل باستقلال المغرب، وأن ما أرادته شرا للمغرب انقلب عليه خيرا، ودليل ذلك أن رد فعل المغاربة بكل فئاتهم وشرائحهم، رجالا ونساء، شيبا وشبابا، وعلى امتداد التراب المغربي، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، كان مدويا ومزلزلاً، وتبدو أهم تجلياته في النقاط التالية:

1 - بمجرد وصول خبر عزل السلطان، خرجت الجماهير الشعبية في مراكش واصطدمت بالشرطة الفرنسية اصطداما عنيفا، حيث أمر التهامي الكلاوي أتباعه بالتنكيل بهم وتعذيبهم، وأصدرت سلطات الحماية بيانا جاء فيه: «إن المغرب يجب أن يصبح منذ الآن مملكة دستورية يكون السلطان فيها يملك ولا يحكم»³⁸، فعمت المغرب من جراء ذلك موجة اعتقالات على إثر المظاهرات المتوالية في مختلف المدن المغربية، مثل الرباط وسلا ومكناس³⁹، وموازة مع ذلك تعرض قصر الكلاوي في مراكش لمحاولة إحراق.

2 - ما زاد من قوة انتفاضة الشعب المغربي كرد فعل على إبعاد ملكه، أن التوقيت الذي تم فيه النفي، كان يوما مليئا بالدلالات في سياق قداسة شعائر الدين الإسلامي، إذ صادف ذلك اليوم (يوم النفي) ليلة عيد الأضحى، وبما أن ملك البلاد أخذ من عرشه وأبعد دون احترام شعيرة هذا العيد، فقد شكل ذلك في نظر المغاربة تعطيلاً لسنة من السنن المهمة بالنسبة للمسلمين⁴⁰، وهو ما أثار غضبهم سيما وأن ما جرى به العمل في المملكة الشريفة أن صلاة الجمعة تقام باسم السلطان.

3 - ولما كان سلطان الحماية "ابن عرفة" غير معترف به بإجماع الشعب المغربي، فقد قاطع الجميع الصلاة في المساجد، لأن الصلوات تقام فيها باسم "ابن عرفة"⁴¹، كما تمت مقاطعة كل فرد خالف هذا الإجماع، وتردد على المسجد، وهو أمر لم تستطع فرنسا أن تتحكم فيه.

37 - قاسم الزهيري، محمد الخامس الملك البطل، دار النشر للشمال الإفريقي، الرباط، (د.ت)، ص 173.

38 - محمد العلمي، محمد الخامس وتاريخ استقلال المغرب، ط2، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2011م، ص 80.

39 - نفسه.

40 - Charles André Julien, *La guerre d'Algérie (1954- 1962)*, Paris, 1997, p 334.

41 - Ibid.

4 - من تجليات التصعيد في العنف غير المسبوق من قبل الشعب المغربي الغاضب، بروز محاولات لقتل ابن عرفة⁴² سلطان المستعمر، منذ الأيام الأولى بعد النفي، وأخطرها تلك التي نفذها المقاوم علال بن عبد الله يوم 11 شتنبر 1953م، كما كانت المؤامرات تحاك يومياً بوتيرة متصاعدة ومقلقة، يقودها مقاومون ينتمون لخلايا المقاومة الشعبية السرية، ثأراً لملكهم المنفي، مستهدفين بذلك، بشكل خاص، رجال البوليس والمخبرين المغاربة، في مختلف المدن المغربية، وتحدث بعض المصادر أنه ما بين 20 غشت و2 أكتوبر 1953م، رصدت الأجهزة الأمنية الفرنسية وقوع 45 عملية عنف منها 8 اغتيالات و9 حرائق و12 عملية تخريب معظمها في مدينة الدار البيضاء⁴³.

5 - رغم المضايقة والحصار الذي مارسه السلطات الاستعمارية على الشعب المغربي الثائر، تنكيلاً واغتيالاً واعتقالاً وتعذيباً بأساليب غير مسبقة لزعماء الحركة الوطنية وقادة المقاومة، فقد أصبح العمل الفدائي الحل الناجع⁴⁴ الذي اعتمده المغاربة لوضع حد لطغيان الدولة المستعمرة (فرنسا)، مسترشدين في ذلك بما أصبح يعرف باليوسفية (نسبة لمحمد بن يوسف)، التي أصبحت كلمة السر والمحدد الأساسي للفدائيين الذين صار ارتباطهم بالوطن متجسداً في رمز أمتهم السلطان «محمد بن يوسف» المبعد والمنفي خارج الوطن، ويمكن أن نذكر من تجليات العمل الفدائي، علاوة على الاغتيالات، حملات التخريب والتضييق الاقتصادي ضد المعمرين من خلال مقاطعة المنتجات الفرنسية ونسف المحلات التجارية، وإتلاف المحاصيل الزراعية، كما شمل التخريب أيضاً المباني والمكاتب والسيارات وقطارات السكة الحديدية، أخذاً بعين الاعتبار أنه متى استطاع الشعب المغربي أن يجعل المعمر لا يشعر بالأمن والطمأنينة، ولا يحقق ربحاً من وجوده في المغرب، فإنه حتماً سيفكر في الرحيل عن البلاد⁴⁵ والشروع في التفاوض من أجل وضع حد للمأزق الذي أصبحت توجد فيه فرنسا بالمغرب.

6 - من جهة أخرى، وأمام الخناق الذي أصبح يضيق حولها، بذلت السلطات الفرنسية كل ما في وسعها للقضاء على المقاومة، بشتى الوسائل منها إصدار الأحكام القاسية⁴⁶ في حق المقاومين

42 - Groupe d'auteurs, **Histoire du Maroc**, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p 403.

43 - روم لاندو، محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى وفاته، ط3، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، عام 2000م، ص ص 86-87.

44 - حسنة مازي، نفي السلطان محمد بن يوسف والعمل الفدائي، ندوتان علميتان حول محمد الخامس والكفاح الوطني من أجل الاستقلال، الرباط 16 نونبر 2005م، تازة 20 نونبر 2005م، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط 2005م، ص 7776.

45 - نفسه.

46 - محمد بن عمر بن علي العزوزي الجزنائي، محمد الخامس محطة من محطات المغرب الحديث و20 غشت قنطرة من قناطر العبور إلى الحرية

كالإعدام والسجن الطويل الأمد، غير أن هذه السياسة المتشددة من قبل إدارة الحماية، لم تزد المغاربة إلا قوة وعزما وإيمانا بعدالة قضيتهم.

7 - إخراج فرنسا جراء شيوع خبر نفي السلطان محمد بن يوسف في العالم العربي، وبسبب إرسال الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية برقيات إلى عواصم الدول المنضوية تحت هذه الجامعة يعلمها بما جرى في المغرب الأقصى، بل لجأ الأمين العام لنفس الجامعة إلى التهديد بقطع العلاقات مع فرنسا⁴⁷.

8 - هذه الصفحة المشرقة من تاريخ نضال الملك والشعب في تلاحم عز نظيره، المبسوطة تفاصيلها أعلاه، والتي جعلت كل فئات القوى الحية إقليميا ودوليا تتضامن مع المغرب وتضغط على الدولة الفرنسية المستعمرة التي لم تجد بدا من الجلوس للتفاوض مع زعماء الحركة الوطنية وقبول طلبهم بعودة ملك البلاد من منفاه ومعه الاعتراف باستقلال المغرب، فتمت عودة الملك بالفعل، ومعه بشرى استقلال المغرب ونهاية عهد الحجر والاستعمار.

خلاصة:

كانت الاضطرابات السياسية والاقتصادية السيئة التي أصبحت عليها أوضاع المغرب الأقصى، جراء المقاومة المسلحة والضغط الخارجي من أهم الأسباب التي أدت بسلطات الحماية إلى محاولة إيجاد حل للمسألة المغربية، فدعت إلى عقد مؤتمر «إيكس ليبان Aix Les Bains» للنظر في مصير القضية المغربية، غير أن ممثلي الشعب المغربي بهذا المؤتمر رفضوا أي تفاوض دون رجوع الملك إلى البلاد، وأعلن حزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال تصميمهما على عدم المشاركة في حكومة تشكلت في عهد بن عرفة⁴⁸، فأرغمت الحكومة الفرنسية على قبول عودة السلطان من منفاه. وبالفعل، تحققت عودة السلطان ومعه الاستقلال يوم 16 نونبر 1955م.

ومغزى كل ما سبق وما تحقق، أن محمد بن يوسف عرف كيف يقود شعبه بصفته قائدهم وملكهم، وفي عنقه بيعتهم في انسجام وتناغم تامين، من أجل الانعتاق من قيود الدولة الاستعمارية ودخول عهد الحرية والاستقلال.

والانعتاق، مجلة الذاكرة الوطنية، عدد خاص، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط 2003م، ص 173-174.

47 - زين العابدين العلوي، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، ج3، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2009م، ص 316.

48 - حسنة مازي، م.س، ص 77-78.

دور الشبيبة المدرسية في مواجهة الاستعمار

تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس، من قاعات التحصيل إلى فضاءات المقاومة

● ذ. جواد الفرخ

أستاذ باحث - فاس

مقدمة:

يقتضي البحث في موضوع نشاط قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس الرجوع إلى حدث توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب في 30 مارس 1912م، الذي أحدثت رجة عنيفة وصدمة كبيرة لدى المغاربة أجمعين، وكذا الوقوف على حركة الوعي بالنواقص التي ساهمت في سقوط البلاد في قبضة الاحتلال الأجنبي، ومحاولة البحث عن حلول ووصفات لتجاوزها في أفق الوصول إلى نقطة التحرك لمواجهة هذا الدخيل، ومن بينها التشجيع على التعليم والتعلم والمساهمة في الارتقاء بهذا المجال. وقد عرفت السنوات الأولى لفرض الحماية على المغرب حركة مهمة لتعميم التعليم والتشجيع عليه، وتحسين البنيات التقليدية للتعليم، حيث ظهرت الحاجة إلى تطوير المناهج المعتمدة في التعليم المغربي. وطفئت على السطح دعوات عدة من أجل إدخال تغييرات جذرية للرفقي بهذا المجال. في هذا السياق جاء تأسيس الثانوية الإسلامية لمولاي إدريس بفاس، حيث عملت السلطات الاستعمارية على تشجيع التحاق العديد من الشباب بهذه المؤسسة، بهدف - كما جاء في العديد من الدراسات والأبحاث - احتواء الشبيبة المتعلمة وإدماجها في المنظومة الاستعمارية لتكون أداة للترويج لها.

تأسيس جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس

يرجع العديد من الباحثين فكرة إنشاء هذه الجمعية إلى سنة 1919م، حين طرح بعض خريجي الثانوية فكرة إنشاء ناد أدبي وثقافي يهتم بمجال التعليم وتشجيع الناشئة على التحصيل¹. وفي خطوة استباقية

1 - MARTY Paul, *Le Maroc de demain*, publication du comité de l'Afrique Française, Paris, 1925, p. 173.

نقلا عن: الدفالي محمد معروف، أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة، منشورات أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، الرباط، 2014، ص. 282.

لاحتواء هذا التوجه، أقدمت سلطات الحماية على تبني الفكرة، وهيات الظروف الملائمة لعقد اجتماعات مع الإدارة المعنية لدراسة الأمر من جميع الجوانب. وقد أفضت هذه اللقاءات إلى وضع الإطار القانوني للجمعية، والإعلان رسمياً عن ميلاد تنظيم جمعوي أطلق عليه «جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس»، التي اعترف بها رسمياً بموجب القرار الوزيري الصادر في 15 شتنبر 1921م².

ورغم الترخيص الذي حصلت عليه، فقد وضعت الجمعية تحت مراقبة مدير الثانوية، لإبعادها عن كل تأثير سياسي. وقد انصب نشاط الجمعية في البداية على الميدان الثقافي ومساعدة التلاميذ في وضعية صعبة، وكذا تنظيم أنشطة علمية ومسابقات داخل رحاب الثانوية، شاركت فيها العديد من الشخصيات الفرنسية والمغربية في مواضيع أدبية وتاريخية وعلمية واقتصادية، نذكر منهم على الخصوص جورج هاردي، ولوي ماسينيون، والأخوين طارو، ومحمد بن الحسن الحجوي، وعبد الحي الكتاني، ومحمد بن العربي العلوي، وغيرهم³.

هذا وتتفق العديد من الأبحاث، على أن جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس أسست بإيحاء ومباركة من سلطات الحماية بهدف احتواء الشبيبة الفاسية والتأثير عليها لتكون أداة للدعاية للسياسة الاستعمارية والانخراط في أجهزتها الإدارية، غير أن هذا التنظيم الجمعوي سرعان ما خيب آمال سلطات الاحتلال، خاصة حينما بدأ أعضاؤه يناقشون في اجتماعاتهم بعض الأحداث التي طفت على مسرح الأحداث بفاس، وانخرطهم في حركة المواجهة مع السلطات من خلال العديد من المبادرات.

الإرهاصات الأولى لحركة الممانعة

في عشرينات القرن العشرين ظهرت بفاس بوادر حركة ممانعة فكرية ومقاومة سياسية للسلطات الاستعمارية، وقد انخرط تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في هذا التوجه، الذي سيتطور لاحقاً ليصبح حركة مقاومة منظمة وقائدة للفعل الوطني بمدينة فاس. وحسبنا هنا أن نستعرض بعض أوجه مساهمة تلاميذ هذه المؤسسة في بعض الأحداث والتحويلات التي شهدتها مدينة فاس خلال هذه الفترة:

2 - Mekki Merrouni, *Le collège musulman de Fès*, Faculté des sciences de l'éducation - université de Montréal 1983, p. 330.

وردت عند الدفالي محمد معروف، أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة، م. س، ص. 282، غير أن محمد بن الحسن الوزاني يذكر بأن التأسيس الرسمي للجمعية كان في سنة 1920م: الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد... الجزء 1، م. س، ص. 353.

3 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، 1 طور المخاض والنشوء، نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، صص. 277-279.

1 - كان لتلاميذ الثانوية الإسلامية شرف تدشين حركة الإضرابات حينما نظموا أول إضراب مدرسي في ربيع سنة 1920م، بعد أن تعرض أستاذ لمادة التاريخ يدعى بيسون Besson ، بالسوء إلى النبي صلى الله عليه وسلم خلال إحدى دروسه حول تاريخ الإسلام، الأمر الذي جعل أحد التلاميذ يدخل في مواجهة جسدية مع الأستاذ احتجاجا على تصرفه. وسرعان ما ألقى القبض على التلميذ، وحول إلى دار بوعلي، وعرض على الباشا محمد بن البغدادي الذي أمر بسجنه.

وردا على ذلك، قرر بعض تلاميذ السنة الرابعة وفي طليعتهم عبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي، وعمر بن عبد الجليل، ومحمد بردلة القيام بإضراب عام احتجاجا على اعتقال زميلهم، وتنديدا بتصرف الإدارة. وقد نظم متزعمو الحركة الاحتجاجية تجمعا بالمدرسة البوعنانية، ألقى فيه عمر بن عبد الجليل خطابا، استنكر فيه ما صدر عن الأستاذ الفرنسي في حق دين الإسلام واعتقال صديقه التلميذ، داعيا رفاقه إلى الدخول في إضراب مفتوح إلى حين إطلاق سراح زميلهم.

وفي اليوم الموالي، ذهب المضربون إلى ملعب كرة القدم، وألقى فيهم عبد الكبير الفاسي كلمة ندد فيها بما تعرض له رفيقهم، الذي انتفض دفاعا عن المقدس الديني، مؤكدا أن تصرف التلميذ حتى وإن اعتبر مخالفة، كان من الأجدر أن ينال عقوبة تربوية، بدل العقوبة الإجرامية، طالبا مواصلة الإضراب والاجتماع في اليوم الموالي في المكان نفسه. ودخلت الإدارة الفرنسية في حوار مع زعماء الإضراب، غير أن التلاميذ أصروا على إطلاق سراح صديقهم قبل الرجوع إلى فصول الدراسة، وهو الأمر الذي تحقق في اليوم الثالث من الإضراب، حيث توجه التلاميذ إلى سجن القطنين، وساروا في تجمع كبير مخترقين الشوارع الفاصلة بين باب المحروق وباب القطنين. ولما وصلوا إلى السجن أخرج الحراس التلميذ، فحمله زملاءه على أعناقهم كبطل مقدم واتجهوا نحو باب أبي الجنود وهم ينشدون بحماس:

الله ينصرنا ما دام رائدنا * حب الإسلام وحب العلم والوطن**

وبذلك، يقول محمد الفاسي: «نجحت هذه الحركة الاحتجاجية الأولى من نوعها على عهد الحماية، رغم أن إدارة المدرسة كانت قد اشترطت طرد التلميذ من المدرسة الثانوية لمولاي إدريس لإطلاق سراحه»⁴.

2 - تأسس أول جمعية سرية وطنية بمدينة فاس على يد عبد القادر التازي وهو من قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس، وكانت تضم خلايا صغيرة، كل واحدة منها تتألف من ثلاثة شبان لا يعرفون بعضهم البعض. وكان يعتمد في اختيار الأعضاء الاستعداد للعمل في الحقل الوطني⁵.

4 - الفاسي محمد، «أول إضراب مدرسي بالمغرب سنة 1920»، مجلة دعوة الحق، العدد 1، السنة 31، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1990م، صص. 90-91.

5 - الفاسي محمد، «أول جمعية وطنية سرية بالمغرب»، مجلة دعوة الحق، العدد 276، السنة 30، شتنبر 1989م، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ص. 55.

3 - دخول بعض تلاميذ الثانوية في صراع فكري وسجال ثقافي مع بعض الفقهاء والعلماء ورؤساء الزوايا وبعض الأعيان. ويمكن الوقوف على صورة من هذا الصراع الفكري والجيلي من خلال النزاع الذي نشب بين عبد الحي الكتاني باعتباره زعيما لزاوية والشبيبة المدرسية، والذي كان موضوع مخطوط كتبه عبد الحفيظ الفاسي تحت عنوان: «تشيد الحصون والمتارس للدفاع عن أبناء المدارس»، ملخصه أن هذا الشيخ تحامل في دروسه، التي كان يلقيها بجامع القرويين، على الشبيبة الفاسية، متهما إياها بالزندقة والإلحاد واحتقار العلماء. وقد كان لدروسه تلك أثرها على أهل فاس الذين بدأوا يتوجسون خوفا من الشبيبة العصرية، وينظرون إليها بعين الازدراء. وجراء هذا الموقف، وقع لهذا الزعيم صدام مع عبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي، وصل إلى حد الشتم والسب وتهديد باللجوء إلى القضاء، وتقديم شكاية في الموضوع إلى مدير الثانوية، طالبا طرده من المؤسسة، غير أن المدير «أجابه بأن لا سبيل إلى تلبية طلبه لأن المسألة هي شخصية لا مدرسية...»⁶.

المسرح كأسلوب جديد للتوعية والممانعة:

قامت جمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس بتكوين شبيبة فاسية ستكون لها مكانة القيادة في مختلف المحطات النضالية. وإلى جانب النشاط التعليمي التربوي وتمتين العلاقات بين التلاميذ، كان للجمعية اهتمامات سياسية إصلاحية، تجسدت في العديد من المبادرات، منها مبادرة تأسيس فرقة مسرحية سنة 1923 اشتهرت فيما بعد باسم «الجوق الفاسي».

وقد تفوق شباب الفرقة في التمثيل بدون تكوين مسرحي، وبرزت أسماء على خشبة من قبيل عبد الواحد الشاوي، والمهدي المنيعي، ومحمد الزغاري، وعبد السلام التويمي، وعبد القادر بنجلون، ومحمد الخلطي. كما انتسب إلى الفرقة أيضا: محمد بوعبيد، والطيب بوعباد، ومحمد الغزاوي، وإدريس الشفشاوني وآخرون⁷. وأبدع أعضاء الفرقة نصوصا مسرحية نالت إعجاب المتتبعين، نذكر منها: «الأوصياء»، و«اليتيم المهمل»، و«الثري العظيم»، و«طرتوف»، و«المنصور الذهبي»، و«الرشيد والأمين غانم»، و«صلاح الدين الأيوبي»، و«العباسة أخت الرشيد» وغيرها.

وساهم الجوق الفاسي، إلى جانب نشاطه الفني، في أعمال خيرية، حيث خصص في سنة 1927م مدخول مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» لفائدة الجمعية الخيرية ومساعدة أصحاب العاهات وإعانة

6 - الفاسي عبد الحفيظ، تشيد الحصون والمتارس في الدفاع عن شبيبة المدارس، مخطوط رقم 10615، خزانة عبد الله كنون، طنجة، ص. 1.

7 - النمشي أحمد، «مسرح التمثيل»، جريدة السعادة، العدد 3424، 3 غشت 1929م، ص. 3.

المحتاجين⁸، وتم رصد المبلغ المحصل من العرض الأول للمسرحية لمكتبة الجمعية⁹. وفي سنة 1928م، قررت الفرقة تخصيص المبالغ المتحصلة من عرض مسرحية «طرتوف» لدعم فرقة المطافئ بفاس، غير أن سلطات المدينة منعت عرض المسرحية¹⁰.

وقد خلف النجاح الذي حققته عروض الجوق الفاسي موقفين وسط الجماهير الفاسية؛ موقفا مشجعاً ومؤيدا للفكرة، وموقفا معارضا ذهب إلى حد تحريم المسرح، خاصة بعد أن أصبح يطرق مواضيع لها علاقة بمحاربة مظاهر التخلف والفساد والدعوة إلى إصلاح المجتمع. وفي هذا الصدد وقفنا على النقاش الذي أثارته مسرحية «طرتوف» المقتبسة عن رواية «لو طارتوف»¹¹ للكاتب الدرامي الكوميدي مولير، والتي اشتغلت عليها سنة 1928م قبل إقدام السلطات على منع عرضها بطلب من زعيم زاوية، الذي اعتبر أن موضوع الرواية يعنيه ويقصد شخصه بالدرجة الأولى¹². وتواصل هذا الصراع أيضا مع أعضاء الجوق الفاسي بمناسبة عرض مسرحية: «اليتيم المهمل والغني»، التي تناولت قصة طفل فقير أراد الذهاب إلى فرنسا لاستكمال دراسته، وطلب المساعدة من أحد الأثرياء، غير أنه رفض مساعدته، في الوقت الذي كان يغدق فيه الأموال على رجال الزوايا الدينية. وبعد مدة تمكن الشاب الفقير من تحقيق أمنيته، وتفوق في دراسته، وعاد إلى أرض الوطن بشهادة المحاماة. وفي مرحلة لاحقة، تكلف بالدفاع عن الغني، الذي رفض مساعدته، وأنقذه من الإفلاس.

وقد حظيت التجربة المسرحية الفاسية عند تأسيسها بتشجيع المسؤولين الفرنسيين¹³. وعندما بدأ أعضاء الجوق الفاسي يمزجون بين العمل الفني والدعوة إلى التجديد للخروج من وضع التخلف والانحطاط الذي أفضى إلى الاحتلال، ويقتبسون أعمالا روائية من التاريخ العربي الإسلامي وبطولات المسلمين، تدخلت السلطات الاستعمارية لإجهاض هذه الحركة التي قد توحى إلى جماعات أخرى لمواجهة الأوضاع المتردية التي كان يعيشها الشعب المغربي، ووجهت دورية في 14 غشت 1928م إلى

8 - بوعيايد الطيب بن العربي، «حياة التمثيل ونبوغ الناشئة الفاسية»، مجلة الشهاب، العدد 97، السنة 2، 20 ماي 1927م، ص. 16.

9 - النميشي أحمد، «أخبار النواحي: لتحى النهضة الفاسية وليحيى الشباب الناهض»، جريدة السعادة، العدد 3087، 12 أبريل 1927م، ص. 3.

10 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1، م. س، ص. 388.

11 - تعني المنافق.

12 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1، م. س، ص. 398. وذكر روجي لوطورنو Roger Le Tourneau أن مسرحية «طرتوف» لم يكن بالإمكان تمثيلها بمدينة فاس لأنها «تكشف عورة عدد مفرط من البرجوازيين حتى إنهم لا يمكنهم إلا أن يؤيدوا منعها، وعلى الأقل في صميم أفئدتهم»: لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، الجزء 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996م، ص. 810.

13 - النميشي أحمد، «أخبار النواحي: لتحى النهضة الفاسية وليحيى الشباب الناهض»، جريدة السعادة، العدد 3087، 12 أبريل 1927م، ص. 4.

حكام النواحي في شأن مراقبة النشاط المسرحي للشبيبة الوطنية، تضمنت تعليمات في شأن تشديد الرقابة على الأنشطة المسرحية¹⁴، ومما جاء فيها:

اهتمام تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بالقضايا الوطنية والقومية؛

شهدت المنطقة المتاخمة لفاس شمالا في السنوات الأولى من عشرينات القرن الماضي حربا شرسة ومواجهات عنيفة بين قبائل منطقة الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي والقوات الإسبانية في مرحلة أولى والفرنسية في مرحلة ثانية، توجت في العديد من المحطات بانتصارات باهرة قبل أن يستسلم زعيم الريف بعد تحالف القوتين الاستعماريتين في ماي 1926م. وقد أعجب أفراد من الشبيبة الفاسية، جراء توالي الانتصارات الريفية، وتولد لديها شعور بالحماس والأمل، خاصة عندما وصلت الجيوش إلى ضفاف نهر ورغة. وتجسيدا لهذا الإعجاب، التحق عبد القادر التازي وشقيقه أحمد والحسن¹⁵ وهم من قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بمنطقة الريف للمشاركة في الحرب، وكونوا هناك «وفد المغرب المضطهد»¹⁶، غير أن رحلة هؤلاء إلى منطقة العمليات لم تسفر عن أي نتيجة ملموسة، إما لأن الشباب الفاسي وجد صعوبات في التواصل والتعاون مع أهل المنطقة، أو أن زعماء الثورة كان من الصعب عليهم وضع ثقة في أشخاص جاؤوا من منطقة حماية فرنسا، التي كانت طرفا في الحرب، أو لأنهم ينتمون إلى عائلة من الأعيان¹⁷.

وعلى صعيد آخر، فقد نتج عن الحركة الفكرية والإصلاحية، التي شهدتها المغرب خلال العشرينات من القرن الماضي، تشكيل وعي قومي مغربي بالقضايا العربية الإسلامية، ساهم بشكل كبير في انفتاح الشبيبة الوطنية على محيطها الجهوي. وفي هذا السياق، كتب عمر بن عبد الجليل أحد شبان مدينة فاس قصيدة شعرية سنة 1923م، وعمره آنذاك لا يتجاوز 14 سنة، اعتزاها بانتصار الأتراك على اليونان،

14 - «La croisade contre la pensée au Maroc: deux importants documents officiels», Revue Maghreb, 3^{ème} année, N° 25-26, Septembre et Octobre 1934, p. 53.

الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد... الجزء 1، م. س، صص. 391-389.

15 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 2 حرب الريف، نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني، بدون تاريخ، ص. 437.

- فنيتر المصطفى، «تقرير سري لسلطات الحماية الفرنسية حول: النخبة المغربية في بداية عهد الحماية»، تعريب الحبيب بلكوش، المجلة التاريخية المغربية، العدد 126، السنة 34، فبراير 2007م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ص. 117، غير أن محمد الفاسي ذكر أن عبد القادر التازي توجه إلى الريف رفقة أخيه وعضو من الجمعية السرية التي كان يرأسها. انظر: الفاسي محمد، «أول جمعية وطنية سرية بالمغرب»، مجلة دعوة الحق، م. س، ص. 55.

16 - LE TOURNEAU Roger, Histoire du Maroc moderne, Publications de l'université de Provence, 1992, p. 179.

17 - الفاسي محمد، «أول جمعية وطنية سرية بالمغرب»، مجلة دعوة الحق، م. س، ص. 55.

عثر عليها في مخطوط لأحمد بناني. وقد أرفقت القصيدة التي كتبها عمر برسالة إلى الفقيه محمد بن العربي العلوي، الذي كان يدرسه آنذاك بثانوية مولاي إدريس بفاس¹⁸.

وفي سنة 1929م بدأت النخبة المثقفة بمدينة فاس ومعها تلاميذ الثانوية تهتم بالقضية الفلسطينية، وأسست لجنة أطلقت عليها اسم «اللجنة الوطنية لمناصرة فلسطين والبلاد المقدسة»¹⁹، عقب الاعتداءات على الأماكن المقدسة أو ما سمي بثورة البراق. وفي هذا الشأن ذكر محمد الفاسي في مقال له بعنوان: «أول انتفاضة مغربية في سبيل القدس»، إحدى المبادرات التي شارك فيها تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في حملة التضامن لشهر شتنبر من سنة 1929م، أكد فيها بأنه كان المحرك الرئيسي لهذه الحركة حين حرر عريضة احتجاج بمعية رفاق له²⁰، حملت إمضاءات العديد من الفعاليات المحلية. وبعد مرور ثلاثة أيام، تم استدعاؤه رفقة آخرين إلى مكتب الباشا محمد البغدادي، الذي طلب منهم تمكينه من العريضة، غير أن محمد الفاسي رد عليه بأن العريضة هي تعبير من أهل فاس عن تضامنهم مع إخوانهم الفلسطينيين. وحاول الشبان فتح نقاش مع الباشا، إلا أن هذا الأخير أوقف الحوار، وأصر على تمكينه من العريضة الاحتجاجية، وهو ما تم له بالفعل²¹.

مساهمة قدماء ثانوية مولاي إدريس في جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين

كان لقدماء ثانوية مولاي إدريس حضور قوي داخل جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين التي أسست بفرنسا في العشرينات من القرن الماضي، والتي دشت نشاطها هناك بتنظيم مسامرات ولقاءات علمية، ومنها لقاءات كان يشارك فيها الطلبة المغاربة، رغم قلة عددهم، نذكر منهم: محمد الفاسي الذي سافر في ثلاث مناسبات في المواضيع التالية: «ابن بطوطة ورحلته»، و«معركة وادي المخازن» و«حضارة دولة بني مرين»²²، ومحمد بن الحسن الوزاني الذي حاضر في موضوع: «مولاي الحسن أبو النهضة المغربية». وكانت السلطات الاستعمارية تتابع بحذر كبير نشاط الشبيبة المغربية في الجمعية وتحركات المنخرطين في هذا التنظيم²³.

18 - المساري محمد العربي، المغرب خارج سياج الحماية - العلاقات الخارجية للحركة الوطنية، منشورات عكاظ، الرباط، 2012م، ص. 36.

19 - «إخواننا في مراكش»، جريدة الشباب، العدد 68، السنة 1، السنة 1، 1 سبتمبر 1937م، ص. 1.

20 - الفاسي محمد، «أول انتفاضة مغربية في سبيل القدس»، مجلة دعوة الحق، العدد 5، السنة 22، غشت 1981م، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية، ص. 38.

21 - نفسه، صص. 38-40.

22 - الأدغم الباهي، «بعض ذكرياتي مع الأستاذ الصديق محمد الفاسي»، ندوة تكريم الأستاذ محمد الفاسي في موضوع: «محمد الفاسي نضال الثقافة والسياسة»، سلسلة أبحاث وأعلام، مطبعة فضالة، المحمدية 1999م، ص. 153.

23 - فنتير المصطفى، «تقرير سري لسلطات الحماية الفرنسية...»، م. س، ص. 129.

وتحضيراً للتنظيم المؤتمر الثالث للجمعية الذي تقرر عقده بمدينة فاس خلال الفترة الممتدة من 19 إلى 23 شتنبر 1933م، شارك قداماً ثانوية مولاي إدريس في اللجنة التحضيرية إلى جانب فعاليات فاسية أخرى وهم: عمر بن عبد الجليل، ومحمد بن الحسن الوزاني، ومحمد الفاسي، وعبد القادر التازي، والمهدي المنيعي، وعبد القادر برادة، والحسن بنجلون، ومحمد الزغاري²⁴. لكن سلطات الحماية كان لها رأي آخر حيث أصدرت قراراً بمنع المؤتمر، ورداً على ذلك قررت الجمعية تنظيم مؤتمرها الثالث في باريس في الفترة الممتدة بين 26 إلى 29 دجنبر 1933م، برئاسة محمد الفاسي.

وقد سجلت الشبيبة الفاسية حضوراً قوياً في المجالس الإدارية لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، حيث شغلت مهام رئاسية وتقريرية داخل المكاتب التي تعاقبت على تسيير الجمعية منذ تأسيسها سنة 1927م، حيث تقلد محمد الفاسي رئاسة الجمعية لثلاث سنوات متتالية، كما أُنيطت بمحمد بن الحسن الوزاني مهمة أمين السر خلال سنة 1929م، كما حظي محمد الخلطي بثقة الأعضاء واختير كنائب للكتاب العام سنة 1931م²⁵.

العبور من المقاومة الفكرية إلى العمل السياسي وحركات التنديد بالسياسة الاستعمارية

بدأت فكرة تنظيم الشباب الوطني تترسخ في أذهان الشبيبة الوطنية مباشرة بعد أحداث ظهير 16 ماي 1930م، حيث سعت الحركة الوطنية إلى تنظيم صفوفها، وشكلت تنظيماً سياسياً سورياً بجناحين أطلقت عليهما اسمي «الزاوية» و«الطائفة». وهنا سجلنا حضوراً مهماً لبعض قدامى ثانوية مولاي إدريس سواء في هذا التنظيم أو ذاك من بينهم عبد القادر التازي، ومحمد بن الحسن الوزاني، وعمر عبد الجليل، ومحمد الديوري²⁶، كما ضم تنظيم الطائفة التي كانت بمثابة مجلس وطني أسماء من الثانوية من بينهم محمد الفاسي، وعبد الكبير بن المهدي الفاسي، ومحمد برادة، وعبد الهادي الصقلي، والحسن بنجلون. وقد نتج عن تطور هذه التنظيمات الوطنية السرية تأسيس تنظيم جديد في أواخر دجنبر 1934م أطلق عليه اسم «كتلة العمل الوطني»، التي فرضت نفسها على الساحة السياسية المغربية، حيث احتضنت وتبنت كل المحطات النضالية والحركات الاحتجاجية التي وسمت المرحلة ما بين 1934 و1936م، نذكر من بينها على الخصوص رفع برقيات وعرائض الاحتجاج والتنديد بالسياسة الاستعمارية، وتعبئة

24 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940م، الجزء 1، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م، ص. 278.

25 - يذكر عبد الهادي التازي أن محمد الفاسي شغل منصب رئيس جمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا سنة 1931م، وتكرر انتخابه لعدة مرات، وبهذه الصفة كان اتصاله بشكيب أرسلان: التازي عبد الهادي، «محمد الغالي الفاسي»، ندوة تكريم الأستاذ محمد الفاسي في موضوع: «محمد الفاسي نضال الثقافة والسياسة»، سلسلة أبحاث وأعلام، مطبعة فضالة، المحمدية 1999م، ص. 272.

26 - الفاسي علال، عقيدة وجهاد، المطبعة الاقتصادية، الطبعة الأولى، 1960م، الرباط، صص. 9-12.

وتحسيس الفئات الشعبية بالقضية الوطنية، وتشجيع التعليم وتأسيس المدارس الحرة، وربط علاقات تعاون محلية مع الحركة الوطنية بالشمال، وأخرى جهوية مع الجزائر وتونس وبعض دول المشرق العربي، إضافة إلى نجاح استراتيجية التقرب من السلطان باعتباره الرمز الموحد للبلاد، واستقطاب متعاطفين جدد من الحرفيين والصناع والعمال، الذين شكلوا قاعدة جماهيرية استخدمت بكل ذكاء أثناء الحركات الاحتجاجية، وغيرها من المبادرات التي أكدت فيها قدرتها التنظيمية والتعبوية. وبقي العمل على هذه الشاكلة إلى حدود بداية سنة 1937م حيث أصدرت السلطات أمرا بحل كتلة العمل الوطني، وبعدها مباشرة انقسمت الحركة الوطنية إلى فصيلين: الحزب الوطني والحركة القومية. وفي هذا الصدد نرى أنه من الأفيد الوقوف على بعض المحطات التي ميزت هذه الفترة من تاريخ المغرب ومساهمة قدماء ثانوية مولاي إدريس فيها، ومنها على الخصوص:

الاحتفال بأول عيد للعرش وزيارة مدينة فاس

نظمت الشبيبة الوطنية بفاس في بحر سنة 1933م أول احتفال بعيد العرش، وكان لقدماء ثانوية مولاي إدريس حضور في هذه المحطة التاريخية التي كان الهدف منها هو إبراز تعلق الوطنيين المغاربة بأهداب العرش العلوي والعاهل الشاب سيدي محمد بن يوسف. وتحضيرا لهذا الحدث تم تكوين لجنة للاتصال والتخابر مع الجهات المسؤولة في شأن المبادرة التي ستقدم عليها، ضمت أعيانا وشباناً، كان ضمنهم المهدي المنيعي رئيس جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الإسلامية، والطيب بوعياذ نائب رئيس جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية²⁷. و ضد رغبة السلطات الاستعمارية نظم حفل كبير بجنان السبيل شارك فيه تلاميذ المؤسسة الذين حرروا في نهاية الحفل برقية تهنئة إلى السلطان وقعتها نيابة عنهم رئيس الجمعية المهدي المنيعي. وفي مبادرة أخرى كان للقدماء حضور مهم في أحداث الزيارة التي قام بها السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى مدينة فاس خلال الفترة ما بين 8 و 10 ماي 1934م، حيث كان وفد جمعية قدماء الثانوية حاضرا في الاستقبال الرسمي الذي نظم يوم الثلاثاء 8 ماي 1934م بساحة باب الماكينة التي كانت مسرحا لحفل رائع قدرت بعض الصحف المشاركين فيه بحوالي 50 ألف شخص²⁸.

الصحافة في خدمة القضية الوطنية

قام قدماء ثانوية مولاي إدريس بدور كبير في إصدار مجلة مغرب Maghreb في بحر سنة 1931م. وقد لعب طلبة وشبيبة فاس المثقفة من مثل محمد الفاسي، ومحمد الخلطي، وعمر بن عبد الجليل، ومحمد بن الحسن الوزاني أدوارا مهمة في الاتصالات ووضع التصورات لإنجاح هذا المشروع الصحفي.

27 - "عيد 18 نوفمبر بفاس"، مجلة المغرب، العدد 14، السنة 2، نونبر 1933م، ص. 21.

28 - "L'entrée de S.M. Sidi Mohamed dans sa capitale", Le Courrier du Maroc, N° 1916, 9 Mai 1934, p1.

وقد لاقت المجلة، التي صدر أول عدد منها في شهر يوليوز 1932م، نجاحا كبيرا سواء بالمغرب أو في فرنسا، وواظبت على الكتابة فيها أقلام فاسية من الشبيبة الناهضة، خاصة الأعضاء الذين تلقوا تكويننا في الجامعات الفرنسية من مثل عمر بن عبد الجليل الذي كان يكتب بأسماء مستعارة كبوعزة الزموري، والخبير، وأبو حفص، والنحلة، ومحمد بن الحسن الوزاني الذي كان يوقع مقالاته باسمه الصريح، أو باسم فتى المغرب، أو حرفي ميم واو، أو المغربي، وعبد القادر التازي، ومحمد الفاسي، وعبد القادر بنجلون الذي كان يحذ التوقيع باسم قدور، والزبور، أو بحرفي ع. ب، وزوجته نينا التي كانت توقع كتاباتها باسم ن. ب، أو الرميكية، إضافة إلى محمد الخلطي.

ولما كانت المجلة أداة للتعريف بالقضية المغربية والتشهير بسياسة سلطات الحماية، فقد عملت الإدارة الاستعمارية كل الوسائل لمنع هذا المنبر الصحافي. وفي ارتباط بموضوعنا وفي إطار حملة التحريض على المجلة راج بفاس أن مصالح الاستعلامات كلفت أستاذا من جنسية جزائرية يدعى لخضر، كان يدرس بثانوية مولاي إدريس الإسلامية ومعروف بتعاونه مع سلطات الحماية، بنقل إشارة إلى المهدي المنيعي رئيس جمعية قدماء التلاميذ بأن الضرورة تقضي برفع برقية إلى رئيس الحكومة الفرنسية في شأن الاحتجاج على مجلة «مغرب». وكان رد الرئيس أن الجمعية ليس لها توجه سياسي، وأن فكرة تحرير برقية أو شكاية في شأن مجلة «مغرب» يعتبر عملا غير مقبول. وقد أخبر رئيس الجمعية رفاقه في المكتب بأن العميل الجزائري يلح عليه في الموضوع لتفادي انتقام مصالح الاستعلامات. وقد أجمع الكل على رفض إشارة إدارة الحماية بفاس. وكان من نتيجة ذلك الموقف، أن تم إبعاد كاتب الجمعية بنححي، الذي كان يزاول مهنة مترجم بإدارة الشؤون الأهلية بفاس، إلى قرية عين الدفالي²⁹.

المضايقات:

كان من نتيجة تحرك نشاط قدماء ثانوية مولاي إدريس أن تعرض البعض منهم لمضايقات من طرف السلطات الاستعمارية كالتهديد بالفصل والحرمان من متابعة الدراسة بالخارج، ووضعت عراقيل عدة في وجه طالبي العلم والمعرفة، بهدف عزل المغرب وتفايدي تأثره بالأفكار التحريرية التي كانت سائدة آنذاك. وحسب محمد بن الحسن الوزاني فإنه إلى حدود سنة 1927م، أي بعد 15 سنة من الحماية، لم يتمكن من مغادرة المغرب لمتابعة الدراسة بفرنسا سوى خمسة طلبة من مدينة فاس، وهم: عبد القادر بنجلون، ومحمد الخلطي، والمدني مكوار، ومحمد بن محمد الوزاني، ومحمد بن الحسن الوزاني³⁰.

29 - "A Fez", Revue Maghreb, N° 5, Novembre 1932, p. 39.

30 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1، م. س، ص. 439.

ومن بين هذه المضايقات، نذكر مثلاً محاولة عرقلة رجوع محمد الفاسي في أواخر شهر فبراير من سنة 1931م إلى فرنسا، واستجوابه وتفتيش أغراضه، وهو الأمر الذي تسبب في تأخير سفره لمدة 24 ساعة³¹. ولم يسلم محمد بن الحسن الوزاني من هذا التعسف حين تلكأت السلطات المحلية بفاس في تمكينه من جواز السفر للذهاب إلى فرنسا في بداية سنة 1932م. وبعد أن دبر قصة ذهابه إلى باريس لاجتياز امتحانين، تمكن من الحصول على جواز لا تتعدى صلاحيته شهرين فقط لاجتياز الامتحان والعودة للمغرب. وهناك بباريس ورغم ملاحقة البوليس السري، تمكن قبل نهاية مدة الصلاحية من تدبير خطة للخروج من باريس إلى جنيف بشكل سري، حيث أصبح لاجئاً سياسياً. ومن هناك بقي على اتصال بباريس لإصدار مجلة «مغرب» الذي تم في يوليو 1932م³².

وضمن سلسلة التعسفات والاستفزازات التي كانت تهدف إلى ضرب الشبيبة الوطنية، تأتي أيضاً قضية اختطاف عبد القادر التازي العضو النشط في جمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس، يوم 28 أكتوبر 1933م³³. إلى الحاجب وبعدها إلى منطقة ميدلت³⁴. وقد خلف هذا الحدث ردود فعل عديدة، وأثار العديد من النقاشات والتأويلات في المغرب ككل. وتعالى الاحتجاجات، فأرسل الوطنيون برقيات إلي رئيس الحكومة، ووزير الخارجية، والمقيم العام، والمتعاطفين مع القضية المغربية أعضاء لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الفرنسي. كما عبرت جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في اجتماعها العام الاستثنائي المنعقد يوم 29 أكتوبر 1933م عن تضامنها مع عبد القادر التازي المختفي حينئذ، وصوتت عليه بالإجماع رئيساً للجمعية³⁵ في تحدي لسلطات الحماية التي اتهمت بتدبير عملية اختطافه. وقد نشرت مجلة «مغرب» أن عملية الاختطاف كانت تهدف إلى تهريب جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية، التي كانت من المزمع أن تناقش في اجتماعها مسألة منع المؤتمر الثالث لجمعية

31 - وثائق أبي بكر بنونة، ملف من أعلام تطوان، عبد السلام بنونة، الجزء 1، وثيقة رقم 1337، رسالة مؤرخة في 8 مارس 1931م، موجهة من عبد السلام بنونة إلى شكيب أرسلان، صص. 215-216.

32 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 3، مرحلة الانطلاق والكفاح 1930-1934، نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني، مؤسسة جواد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1984م، صص. 209-213.

33 - OUAZZANI Mohamed Hassan, **Combat d'un nationaliste**, Tome II, 1933-1937, Fondation Mohamed Hassan Ouazzani, Imprimerie Nemr Habib, Beyrouth, p. 95.

34 - M. T. , T, "Le rapt d'Abd-el-kader Tazi à Fez", Revue Maghreb, N° 16, Novembre 1933, p. 11.

35 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 4، حركة المطالب والدعوة إليها 1934-1936، نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني، مؤسسة جواد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985م، صص. 45-46.

طلبة شمال إفريقيا المسلمين، غير أن هذا التصرف الاستعماري كان له نتيجة عكسية، حيث درس المجتمعون حدث منع المؤتمر، وانتخبوا المختطف رئيسا لها رغم غيابه³⁶.

هذا وقد بقي عبد القادر التازي رهن الاعتقال التعسفي، بعيدا عن فاس على الأقل إلى حدود شهر فبراير 1934م، حين تم نقله من ميدلت إلى مدينة الرباط³⁷.

قدماء ثانوية مولاي إدريس حضور قوي في فضاءات المقاومة:

لقد كان لتلاميذ ثانوية مولاي إدريس مساهمات عديدة في جميع المحطات النضالية التي عرفتها مدينة فاس خلال فترة العمل الوطني في الثلاثينات، نذكر منها على الخصوص المشاركة الوازنة في الحركة الاحتجاجية التي أعقبت إصدار ظهير 16 ماي 1930م، المعروف بالظهير البربري، حيث سجلنا حضور قدماء التلاميذ في المظاهرات التي شهدتها العاصمة العلمية خلال شهري يوليوز وغشت 1930م، بل إن البعض منهم تزعم الحركة الاحتجاجية التي نظمت يوم الجمعة 18 يوليوز 1930م كمحمد بن الحسن الوزاني ومحمد الفاسي وعمر بن عبد الجليل، وهي الحركة التي انطلقت من مسجد القرويين وضريح مولاي إدريس إلى مسجد الرصيف، وصولا إلى منزل الفقيه أحمد بن الجيلالي بالدوح للاحتجاج عليه باعتباره رئيسا للمجلس العلمي³⁸. وقد بلغ الحماس بأحد المتظاهرين وهو أبو بكر الحريشي أن بدأ يضرب باب منزل الفقيه بقدمه بشكل قوي. وخوفا من تطور الأمور إلى الأسوأ، تدخل بعض المشاركين لتهدئة الوضع، وتفريق الجموع من أمام مقر إقامة رئيس المجلس العلمي خاصة بعد أن تعالى صراخ النساء اللواتي كن بالداخل من شدة الهلع³⁹. وموازة مع ذلك، توقفت جماعة أخرى من المتظاهرين أمام منزل حاكم الناحية بحي سيدي الخياط، وطلبت مقابلة الجنرال.

وعقب هذه الأحداث اعتقلت السلطات الاستعمارية العديد من المتظاهرين، وتم تطويق المدينة القديمة، ورغم ذلك فقد تواصلت حركة الممانعة هاته طيلة منتصف شهر يوليوز وأواخر غشت، إلى أن دخلت سلطات المدينة في مفاوضات لتهدئة الوضع، وتم الاتفاق في اجتماع عقد يوم 22 غشت 1930م، حضرته العديد من الشخصيات والأعيان بدار المجلس البلدي خصص لاختيار 20 فردا⁴⁰.

36 - M. T, "Le rapt d'Abd-el-kader Tazi à Fez", Revue Maghreb, op. cit, p. 13.

37 - "التازي"، مجلة المغرب، العدد 17، السنة 2، فبراير 1934م، ص. 9.

38 - بوعباد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج 1348 هـ- 1930 م، الطبعة الأولى، 1979م، دار الطباعة الحديثة الدار البيضاء، ص. 14.

39 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد... الجزء 3، م. س، ص. 85.

40 - يذكر علال الفاسي أن المجتمعين بدار المجلس البلدي انتخبوا وفدا يضم 24 عضوا وليس 20 يمثلون سائر الأوساط الشعبية من العلماء والأعيان والصناع والعملة والفلاحين والشباب العصري.

كلفوا بتحرير كتاب وعريضة مطالب بغاية رفعهما إلى السلطان، كان من أعضائها بعض قدماء ثانوية مولاي إدريس، محمد بن الحسن الوزاني، وعمر بن عبد الجليل⁴¹. وبعد القيام بالمطلوب، اجتمعت اللجنة من جديد يوم 23 غشت 1930م، وانتخب الوفد الذي سيرفع العريضة إلى السلطان وضم 10 أعضاء ضمنهم نفس الشخصين أي الوزاني وابن عبد الجليل. وفي يوم 26 غشت 1930م سافر الوفد إلى الرباط بعد أن أقصت السلطات محمد بلحسن الوزاني، غير أن هذه المقابلة السلطانية لم تسفر عن أي نتيجة ملموسة.

ورغم تهدة هذه الحركة الاحتجاجية، فقد ظلت أحداث ظهير 16 ماي 1930م حاضرة في أذهان ساكنة مدينة فاس بمختلف أطرافها وخاصة نخبتها المثقفة وشيبتها الناهضة، حيث طرحت فكرة إحياء ذكرى هذا الحدث في السنة الموالية، وكان لأحد تلاميذ ثانوية مولاي إدريس دور هام في هذه المحطة أيضا، حيث وجدنا أن محمد الفاسي باشر تنسيقا مع رجال الحركة الوطنية في منطقة الاستعمار الإسباني، واقترح عليهم فكرة تخليد هذه الذكرى، عن طريق تنظيم مظاهرات وخطب وإغلاق المحلات التجارية وتوزيع المنشورات، مقترحا أن يكون الاحتفاء بها بالتاريخ الهجري أي يوم 17 ذي الحجة، وليس 16 ماي⁴². وقد تواصل إحياء ذكرى هذا الحدث الأليم طيلة سنوات الثلاثينات حسب ما وقفنا عليه من وثائق ومستندات. كما كان لقدماء التلاميذ منهم محمد بن الحسن الوزاني، ومحمد الخلطي، وعبد القادر بنجلون، ومحمد الفاسي دور هام في التشهير بالسياسة البربرية في عقر الدولة المستعمرة حيث قاموا باتصالات عديدة وألفوا كتاب *Tempête sur le Maroc* الذي ترجم إلى اللغة العربية بتوقيع مسلم بربري، ووزع على نطاق واسع.

وفي سنة 1936م شهدت مدينة فاس حركة احتجاج نتيجة تردي الأوضاع الاقتصادية والمعيشية تنديدا بسياسة القمع والتعسف، وردا على تلك الإقامة العامة في القيام بإصلاحات جذرية بالبلاد، عقب صعود الجبهة الشعبية إلى سدة الحكم بفرنسا. وعلى غرار المحطات السابقة سيسجل تلاميذ ثانوية مولاي إدريس حضورا قويا في هذه الفترة، حيث انتدبت الحركة الوطنية عمر بن عبد الجليل ومحمد بن الحسن الوزاني للتوجه إلى باريس للاتصال مع المسؤولين الجدد، وتقديم شروحات حول الوضع المغربي، والمطالبة بالوفاء بالعهود السابقة، غير أن الوفد لم يحصل إلا على بعض الوعود⁴³. وعندما

41 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية... الجزء 1، م. س، ص. 70.

42 - بنونة الطيب، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة، مطبعة دار أمل، طنجة، الطبعة الأولى، 1980م، ص. 200.

43 - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة السابعة، الرباط 2010م، ص. 186.

يُسست الحركة الوطنية من تحقيق مطالبها، تقدمت كتلة العمل الوطني بلائحة للمطالب المستعجلة همت قطاعات التعليم والصحة والفلاحة والقضاء والضرائب والصناعة التقليدية، تمت المصادقة عليها في اجتماع سري بالرباط يوم 25 أكتوبر 1936م، شارك فيه 90 مندوبا عن الحركة الوطنية يمثلون كافة المناطق المغربية⁴⁴. وفي نفس الاجتماع، تم الاتفاق على تنظيم اجتماعات شعبية تكون مناسبة للتواصل مع الرأي العام بغية كسب تأييد شعبي وإجماع وطني حول عمل الحركة الوطنية⁴⁵. وتنفيذا لذلك، نظمت كتلة العمل الوطني المهرجان الأول في منزل إدريس بن زاكور بدرب سيدي يعلى بالطالعة بمدينة فاس، وهو أحد قدماء ثانوية مولاي إدريس، حضره جمهور غفير فاق 2000 شخصا من مختلف طبقات فاس وأحوازها، إضافة إلى وافدين من مدن ومناطق أخرى⁴⁶، وقدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس.

وأمام تعنت السلطات، اندلعت حركة احتجاجية بمدينة الدار البيضاء في شهر نونبر 1936م سجل فيها قدماء الثانوية حضورا مهما مثل محمد بن الحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل الذي استطاع الإفلات من الاعتقال والتوجه سرا إلى فرنسا، حيث قام هناك بعدة اتصالات عن طريق ربط الاتصال ببعض الشخصيات الاشتراكية والمتعاطفة مع القضية المغربية لتنفيذ الأخبار التي كانت تروجها إدارة الحماية⁴⁷. كما وجه في 26 نونبر 1936م برقيات إلى السلطان، والمقيم العام، والصدر الأعظم، ونائب رئيس التشريعات. وبعدها شهدت فاس مظاهرات عنيفة خاصة أيام 17 و20 و27 نونبر 1936م أسفرت عن اعتقال العديد من الوطنيين كان من ضمنهم إدريس بن زاكور أحد القدماء.

وفي سنة 1937م، كانت فاس مسرحا لحركة احتجاجية أكبر من حركة 1936م، بعد أن أقدمت السلطات على حل كتلة العمل الوطني، وتوقيف الجرائد الوطنية التي رخصت لها الإقامة العامة. وقبل ذلك، وبغية قمع الحركة الوطنية ادعت الإقامة العامة أنها اكتشفت مؤامرة لقلب نظام الحكم بالمغرب، وادعت أنها عثرت على وثيقة سرية تضمنت تشكيل حكومة بديلة⁴⁸. واستباقا للأحداث اعتقلت السلطات زعماء الحركة وضمنهم محمد بن الحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل، وبدأت بنشر القوات لحصار مدينة فاس، وردا على ذلك تحرك الوطنيون لتنظيم مظاهرات واحتجاجات دشت يوم

44 - "مهرجان العمل الوطني"، جريدة البصائر، العدد 44، السنة 1، 20 نونبر 1936م، ص. 2.

45 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء، الجزء 1، مطبعة الرسالة، الرباط، 1987م، ص. 133.

46 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 4، م. س، صص. 282-283.

47 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية...، الجزء 1، م. س، ص. 370.

48 - REZETTE Robert, Les partis politiques marocains, Paris, Armand Colin, 1955, p.110.

26 أكتوبر 1937م. وقد أسند أمر تدبير وتسيير الحركة الجديدة إلى عبد العزيز بن إدريس العمراوي، والهاشمي الفيلاي، وكلفت لجنة الدعاية والاستخبارات للحزب الوطني بمضاعفة نشاطها الدعائي، حيث وجه محمد السعداني وهو أحد القدماء بيانا إلى الصحافة العربية والدولية في موضوع اعتقال الزعماء الوطنيين والوضع المتأزم بمدينة فاس⁴⁹. وتواصلت هذه الانتفاضة إلى يوم 31 أكتوبر 1937م حتى وصلت الحصيلة حسب ما جاء عند علال الفاسي إلى 1150 معتقل⁵⁰ كان من بينهم قدماء من ثانوية مولاي إدريس من مثل الوزاني والسعداني وعبد القادر برادة الذي نفى إلى الجزائر.

وبعد هذه الأحداث، اعتقدت سلطات الحماية أنها قضت بصفة نهائية على الشبيبة الوطنية، غير أن أحداثا عالمية تزامنت مع بداية الأربعينات أدت إلى تحول كبير في عمل الحركة الوطنية التي ستتقل من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة صراحة بالاستقلال. ورغم المكسب الذي حصلت عليه جمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس بالاعتراف بها كجمعية ذات منفعة عامة وفقا لظهير شريف صدر سنة 1941م⁵¹، فإن قدماء الثانوية استمروا في خطهم النضالي، وشاركوا بقوة في عملية التحضير لعريضة 11 يناير 1944م.

وقبل تقديم وثيقة الاستقلال، قامت الهيئة الوطنية بمحاولة التقرب من القصر، وإقناعه بالانخراط في هذه الخطوة الجديدة، حيث كثف الوطنيون المغاربة اتصالاتهم بالسلطان التي توجت بدراسة فكرة المطالبة بالاستقلال. وكان الاتصال بالقصر يتم في سرية تامة عن طريق محمد الفاسي أحد القدماء⁵². وقامت الجماعة الوطنية، بخطوة أخرى، حيث أعاد الوطنيون تنظيم صفوفهم، وأسسوا حزب الاستقلال في 13 دجنبر 1943م⁵³، وكونوا الخلايا وتمكنوا من إدماج جمعيتي قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس وثانوية مولاي يوسف بالرباط في التنظيم الوطني الجديد. وقد شارك بعض قدماء التلاميذ في إعداد مسودة هذه الوثيقة التاريخية منهم عمر بن عبد الجليل ومحمد الزغاري، وإدريس المحمدي⁵⁴.

49 - الكوهن عبد المجيد، المجاهد سيدي احمد العراقي الذاكرة الحية لتاريخ النضال الوطني بمدينة فاس، منشورات حزب الاستقلال، مطبعة الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، 2014م، صص. 33-34.

50 - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية...، م. س، ص. 220.

51 - الظهير الشريف الصادر في 9 أبريل 1941م، الصادر بالجريدة الرسمية عدد 1490 بتاريخ 16 ماي 1941م، السنة 29، الصفحة 844.

52 - الفاسي محمد، "ذكريات عن محمد الخامس"، الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، جمعية رباط الفتح للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1988م، صص. 147-149.

53 - برنار ستيفان، تاريخ الصراع الفرنسي-المغربي 1943-1956م، ترجمة حسان المعروفي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م، ص. 60.

54 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1941 إلى 1945م، الجزء 2، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م، ص. 158.

وبعد أن استنفذت الجماعة الوطنية، التي أشرفت على إعداد عريضة المطالبة بالاستقلال، جميع الإجراءات، تقرر تقديمها بصفة رسمية صباح يوم 11 يناير 1944م. وعينت أربعة وفود للقيام بهذه المهمة⁵⁵، منها: وفد ضم من القدماء إدريس المحمدي وقدم العريضة للسلطان بالقصر الملكي، ووفد ثان ضم كل من: محمد الزغاري، وعمر بن عبد الجليل، ومحمد الديوري وقدم الوثيقة للإقامة العامة⁵⁶.

وبعد تقديم العريضة بشكل رسمي للجهات المعنية، ضربت السلطات الاستعمارية طوقا على مدينة فاس، واتخذت كافة الاحتياطات تحسبا لوقوع أحداث واضطرابات. وواصلت تهديداتها لساكنة فاس بعلمائها ومثقفوها وحرفييها وطلبتها، وعمدت في بعض الأحيان إلى إظهار معالم القوة لترهيب المواطنين. وفي يوم 17 يناير 1944م استدعى الكمندان سلاني ستة من تلاميذ الثانوية الإدريسية، وأبلغهم بأن لا علاقة للسلطان بحركة المطالبة بالاستقلال، وأنه ناقد عليها وعلى أصحابها⁵⁷، ووجه إليهم تهديدا شديدا بالهجة، مصرحا لهم بأن أنصار الاستقلال سيتحملون مسؤولية كل ما سيقع من اضطرابات، «وأن السلطة ستلجأ إلى استعمال القوة والعنف، إن بقيت الأمور تتصاعد، والدعاية تزيد انتشارا، والكتابة على الجدران تتوالى»⁵⁸.

وردا على هذه الاستفزات تحرك وطينو فاس، وأعدوا العدة لتعبئة الساكنة ووضع الخطط تحسبا لتدخل القوات الاستعمارية. ونظموا اجتماعات عدة، تم خلالها توزيع المهام، حيث كلف بعض العلماء الشباب بتأطير المظاهرات، وتألّف لجان مساعدة منها لجنة الإسعاف، ولجنة التنظيم، ولجنة التنسيق، وعهد إلى تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بطبع المناشير وتوزيعها على أوسع نطاق⁵⁹.

وقد استمرت المظاهرات والاحتجاجات بمدينة فاس من يوم 29 يناير إلى منتصف فبراير 1944م، شارك فيها قدماء الثانوية بكل تلقائية، وأسفرت عن اعتقال العديد منهم من قبيل محمد الزغاري، ومحمد الفاسي، وعبد الكبير بن المهدي الفاسي، وآخرون. ولم يسلم التلاميذ الذين كانوا لا يزالون يتابعون

55 - اقتصر أبو بكر القادري على ذكر ثلاثة وفود فقط: القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية... الجزء 2، م. س، ص. 181.

56 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب... الجزء 1، م. س، صص. 224-225.

57 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 6، ظهور الأحزاب والمطالبة بالاستقلال 1937-1946م، 2 -، نشر مؤسسة محمد حسن الوزاني، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، ص. 136.

58 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1941 إلى 1945م، الجزء 2، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م، ص. 259.

59 - "الأخ عبد الرحمن ريبة يروي أحداث الانتفاضة الشعبية الهائلة خلال أيام 28-29-30-31 يناير 1944م وما أعقبها"، جريدة العلم، العدد 8986، الخميس 30 يناير 1975م.

دراستهم من الاعتقال. وقد عثرنا في وثيقة صادرة عن السلطات الفرنسية على قائمة بأسماء المعتقلين ضمنهم تلاميذ ثانوية مولاي إدريس منهم: بنسالم الكوهن الذي اعتقل في 7 فبراير 1944م وحكم عليه بسنة سجن نافذا، وبنسالم بوسليخن اعتقل يوم 8 فبراير 1944م، ومحمد السغروشنى اعتقل يوم 10 فبراير، ومحمد بوطالب ومحمد بنشقرن اعتقلا يوم 22 فبراير، وعبد الحميد بن يخلف اعتقل يوم 3 فبراير، وعبد السلام بنيس اعتقل يوم 5 فبراير، وجواد بن المفضل الصقلي وعبد الجليل بشير اعتقلا يوم 28 فبراير. وبعد استنطاقهم، صدرت في حقهم أحكام بسنة سجن نافذة بتهمة تنظيم إضرابات مدرسية، وتوزيع منشورات معادية لفرنسا. وخلال فترة اعتقالهم بالعديد من السجون كسجن برج النور وعين قادوس والسجن الفلاحي العذير نواحي مدينة الجديدة، عانى هؤلاء من كل أنواع التعذيب والقمع الاستعماري وكان من بينهم محمد الغزاوي، وعبد الكبير الفاسي، وعبد القادر بن المهدي العليج، ومحمد بن سودة، ومحمد الفاسي، ومحمد الزغاري⁶⁰. وبعد تسريح هؤلاء الوطنيين منع أغلبهم من العودة إلى مدينة فاس. وكان من نتائج هذا الانخراط في النضال الوطني أن عملت الإقامة العامة على حل جمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس بموجب قرار وزيري⁶¹.

تدويل القضية الوطنية وانطلاق الحركة الفدائية

رغم القمع الذي تعرضت إليه الحركة الوطنية، فقد استمرت جذوة النضال، وظهرت أشكال جديدة من المواجهة والمقاومة، حيث استغل الوطنيون المغاربة الأحداث التي عرفها العالم عند نهاية الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد تأسيس منظمة الأمم المتحدة والجامعة العربية، وعرضوا القضية المغربية على هذه المؤسسات، وكان لبعض قدماء ثانوية مولاي إدريس دور كبير في عرض القضية المغربية خارج سياق الحماية والتعريف بها في ردهات هذه المنظمات. وموازة مع ذلك، نقل الوطنيون مواجهتهم إلى عقر الدولة المستعمرة، حيث نجح الطلبة المغاربة الذين كانوا يتابعون دراستهم في مختلف الجامعات الفرنسية ومنهم قدماء ثانوية مولاي إدريس في تأسيس خلية للعمل السياسي والتعريف بمعاناة الشعب المغربي التواق للحرية، ضمت في عضويتها من فاس: بنسالم الكوهن، وامحمد الدويري، والحسن بنشقرن⁶².

وفي الخمسينات سيفضي الصراع بين الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب والقصر الملكي على إثر رفض السلطان التوقيع على بعض الظهائر والقرارات التي لم تكن في صالح المغرب، إلى نفي

60 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية...، الجزء 2، م. س. ص. 363.

61 - قرار وزيري في الإذن بحل بعض جمعيات، الجريدة الرسمية رقم 1647 بتاريخ 19 ماي 1944م، السنة 33، الصفحة 490.

62 - بنسالم الكوهن، تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس وطلبة جامعة القرويين أذهلوا حكام الاستعمار الذين واجهوا الجميع بأبشع أنواع المواجهة في أحداث 31 يناير 1944م، جريدة العلم ليوم 1 فبراير 2011م.

السلطان سيدي محمد بن يوسف وأسرتة الكريمة إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر، فكانت العودة إلى الخيار المسلح هذه المرة. حيث تأسست خلايا للمقاومة السرية المسلحة والحركة الفدائية المغربية. وكان لمدينة فاس النصب الأوفر في هذا التوجه الجديد، حيث شهدت العديد من المظاهرات التي شارك فيها تلاميذ الثانوية وطلبة جامعة القرويين، واحتضنت خلايا ومنظمات للمقاومة من بينها منظمة اليد السوداء التي قامت بالعديد من الاغتيالات ومحاولات الاغتيال والتفجيرات وضرب مصالح المستعمر داخل المدينة العتيقة وخارجها. وقد برز عضوان من قدماء ثانوية مولاي إدريس هما: الطبيب بنسالم الكوهن والصيدلاني الغالي العمراني، حيث كان الأول مكلفا ضمن هذا التنظيم بالمساعدة المالية، والتوعية الوطنية، والمسؤولية المعنوية في التسيير، والمعالجة الطبية للمصابين من أعضاء المنظمة، فيما كانت مهمة الثاني المساعدة المالية، والتوعية الوطنية، والمسؤولية المعنوية في التسيير، والمعالجة الطبية للمصابين من أعضاء المنظمة⁶³.

وقد استغرق عمل هذه المنظمة من أواخر غشت 1953م إلى أواخر شهر دجنبر من السنة نفسها، حين تمكنت الشرطة من توقيف أحد الفدائيين بعد محاولة اغتيال فاشلة في حق أحد المتعاونين. وبعدها شملت الاعتقالات كل الأعضاء. وقد تتبعت الجرائد حملة التوقيفات وكانت بين الفينة والأخرى تنشر أخبارا خاصة عندما يتعلق الأمر بشخصية هامة وذات تأثير داخل المجتمع الفاسي، كحالة الدكتور بنسالم الكوهن الذي تصدر خبر اعتقاله يوم الثلاثاء 26 يناير 1954م مختلف الصحف⁶⁴.

وبعد جلسات الاستئناف والتعذيب، عرض المتهمون على أنظار المحكمة العسكرية بفاس. واعتمادا على صك الاتهام الذي أعدته المحكمة العسكرية بفاس، ورد أن نشأة منظمة اليد السوداء جاءت بناء على أمر نقله امحمد السعيد من الدار البيضاء إلى فاس، واتصل في هذا الشأن مع محمد بن عبد الله الرئيس الثاني للجماعة والدكتور بنسالم الكوهن، ومع من بقي خارج دائرة الاعتقال من أعضاء حزب الاستقلال بفاس ومنهم محمد بنشقرن مدير سينما بوجلود والصيدلاني العابد العمراني⁶⁵.

63 - المشاشي العربي، "أضواء على منظمة اليد السوداء بفاس"، مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد الرابع، غشت 1982م، صص. 34-35.

64 - "الإرهاب بالمغرب"، جريدة السعادة، العدد 8969 بتاريخ 28 يناير 1954م، ص 1.
- "اعتقال بري"، جريدة الأمة، العدد 132 بتاريخ 28 يناير 1954م، ص 1.

- Maroc presse du 27 Janvier 1954.

- «Un médecin Marocain arrêté à Fès», La Dépêche Marocaine, n° 16939 du 28 janvier 1954.

65 - "محاكمة فاس 1954م"، مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد 2، يناير 1981م، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الثانية، 1989م، صص. 16-17.

وقد حاول بنسالم الكوهن إنكار مشاركته في هذا التنظيم الفدائي عند تقديمه للمحاكمة بمعية رفاقه، حيث صرح خلال إحدى الجلسات "أن ابن عبد الله كاتب القطاع المحلي تم دفعه من طرف مصالح الشرطة لإنقاذ رقبته فحمل مباشرة مسؤولية الأحداث لشخصيات بارزة من الحزب وهم: محمد بنشقرون وسيدي العابد العمراني والدكتور بنسالم الكوهن"⁶⁶. فيما أكد أحد مؤسسي التنظيم وهو محمد بن عبد الله بلمرقة مشاركة الدكتور بنسالم خلال الجلسات الماراطونية التي عقدتها المحكمة للسياسيين التابعين لحزب الاستقلال من مثل الدكتور بنسالم الكوهن والصيدلي العابد العمراني ومدير سينما بوجلود محمد بنشقرون.

وبعد إصدار الأحكام في حق 12 عضوا من المنظمة التي توزعت بين 10 أحكام بالإعدام وحكمين بالسجن المؤبد مساء يوم الخميس 11 مارس 1954م، قضت بعدم الاختصاص في النظر في قضاياهم في حق 21 آخرين ضمنهم بنسالم الكوهن والعابد العمراني، ليتم عرضهم يوم 26 أبريل 1954م أمام المحكمة العليا الشريفة بالرباط بتهمة تقديم مساعدات مالية وإعطاء معلومات إلى مجموعة فدائية⁶⁷، لتعود نفس المحكمة لمناقشة القضية يوم 25 نونبر 1954م بتهمة تأليف جمعية مفسدين ومخربين. وكان من ضمن المتهمين الدكتور بنسالم الكوهن والصيدلي العابد العمراني. وقد نص صك الاتهام على تورط المعنيين بالأمر في معاملات لشراء الأسلحة وجمع تبرعات لإسعاد عائلات المعتقلين والمنفيين. وأثناء المناقشات أنكر الجميع تهمة الاتجار في الأسلحة، واعترفوا بجمع مبالغ مالية لغايات نبيلة تتعلق بمساعدة أسر من ذوي الاحتياجات. وقد ركزت مرافعات الدفاع على براءة المتهمين وعدم ثبوت تورطهم ومشاركتهم في الأعمال الفدائية. وفي هذا الشأن تقدم أحد المحامين الفرنسيين في ختام مرافعته بملتمس قال فيه: «إنكم بإرجاع هؤلاء الشبان إلى أقاربهم وإلى مرضاهم أو تلاميذهم وإلى سكان فاس الذين ينتظرونهم، لن تراعوا جانب العدالة فقط تساهمون في العمل على إقرار السلم من جديد في الضمائر والقلوب»⁶⁸.

66 - الكوهن بنسالم، بطاقة المقاومة رقم 520775، عرض حول أعمال المقاومة، النيابة الجهوية للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، فاس.

67 - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، الوثيقة الثانية، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الأنباء، الرباط، يونيو 1984م، ص. 287.

68 - "المحكمة العليا الشريفة تصدر أحكاما في قضية الوطنيين الفاسيين"، جريدة السعادة، العدد 9238 بتاريخ 4 دجنبر 1954م، ص. 1.

ونظرا لأن المحكمة العليا الشريفة لم تتمكن من إثبات التهم الموجهة إلى الأضناء باستثناء مسألة مسدس كانت تتوفر عليه المنظمة ولم يتم استعماله⁶⁹، فقد قررت في ختام الجلسة إحالة قضية معتقلي فاس على المداولة⁷⁰، وإطلاق سراح متهمين آخرين⁷¹. وبعد أسبوع، نطقت بأحكام سجنية في حقهم تراوحت بين 5 سنين وستين⁷².

خاتمة

يتضح من خلال ما تناولناه في هذه الدراسة أن ثانوية مولاي إدريس بفاس كمؤسسة تعليمية وتربوية ساهمت بشكل كبير في تكوين جيل جديد انخرط منذ بداية عشرينات القرن الماضي في جهود البحث عن وسائل النهوض بالبلاد بعد السقطة التي أدت إلى الاستعمار، وخاض غمار حركة المقاومة الفكرية والسياسية في مواجهة إدارة الحماية. وقد تميز نشاط تلاميذ الثانوية بالتجديد والحيوية والمناورة والقدرة على التحرك وروح المبادرة وبعد النظر، وسجلوا حضورهم في العديد من المحطات النضالية داخل فاس وخارجها بل وحتى في عقر الدولة الحامية.

وقد تخطى نشاط تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بمدينة فاس الدور التربوي والثقافي إلى لعب أدوار مهمة ورائدة في حركة الممانعة التي شهدتها المغرب خلال هذه الفترة، إضافة إلى إغناء المشهد الثقافي بالعاصمة العلمية، فقد أضحى بعض منهم من زعماء الحركة المناوئة للسلطات الاستعمارية وقاموا بأدوار ريادية في ملحمة الكفاح الوطني، نذكر منها على الخصوص الانخراط في الحركة المسرحية الناشئة التي كان لها دور هام في توعية المواطنين بقضيتهم الوطنية، وقيادتها لأولى الإضرابات التي شهدتها العاصمة العلمية، وتسجيل حضور قوي في كل المحطات والانتفاضات والمواجهات والمظاهرات التي كانت مدينة فاس مسرحا لها انطلاقا من أحداث ظهير 16 ماي 1930م والحركات الاحتجاجية الكبرى التي شهدتها سنتا 1936 و1937م، مروراً بأحداث يناير 1944م ثم حركة المقاومة الفدائية التي أعقبت نفي جلالة السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه في 20 غشت 1953م.

69 - السلوي محمد أبو عزام، المقاومة والوجدان (عن الشعب والذات)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1990م، ص. 290.

70 - "المحكمة العليا الشريفة بالرباط تصدر أحكامها على الوطنيين الفاسيين"، مجلة المقاومة وجيش التحرير، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، العدد السادس والعشرون، مطبعة الأمنية، 1990م، صص. 90-91.

"أمام المحكمة العليا الشريفة"، جريدة السعادة، العدد 9226 بتاريخ 26 نونبر 1954م، ص. 1.

71 - "المحكمة العليا الشريفة..."، جريدة السعادة، العدد 9238، مرجع سابق، ص. 1.

72 - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، الوثيقة الثانية، مرجع سابق، ص. 287.

وفي ثانيا ذلك، لم يغفل تلاميذ هذه الثانوية العتيدة عن الاشتغال على واجهات أخرى مرتبطة بحركة الممانعة منها: تنظيم أنشطة علمية ومسابقات فكرية، ومشاركتهم في المجهود الصحافي الذي كان يهدف إلى التعريف بالقضية الوطنية، وكذا الانفتاح على المحيط المغربي والعربي والإسلامي التلقائي من خلال حملات التضامن والتنسيق مع الحركات الوطنية في مختلف الربوع للضغط على الدولة المستعمرة. ورغم كل أشكال القمع التي نهجتها السلطات الاستعمارية في مواجهتها للحركة الوطنية، فقد استمر شباب مؤسسة مولاي إدريس إلى جانب باقي فئات الشعب المغربي في نضالهم الوطني غير مبالين بحملات التنكيل والتعسف ولا بالسجون الرهيبة والمنافي السحيقة.

ختاما أشير إلى أن السلطات المغربية أصدرت في 23 نونبر 1956م مرسوما يحمل رقم 2.56.536 تم بموجبه إلغاء القرار الوزيري الصادر في 8 جمادى الأولى 1363 هـ الموافق لفتح مايو 1944م بشأن حل جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الإسلامية بفاس⁷³.

أهمية التعليم في المسيرة الإصلاحية للسلطان سيدي محمد بن يوسف

• ذ. محمد اليزيدي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس

لا يمكن فهم التحولات الكبرى التي عرفها تاريخ المغرب المعاصر دون عودة للعديد من الرموز التي كان لها دور كبير في قيادة هذه التحولات، وتبرز في هذا الصدد شخصية السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه باعتباره رمزا خالدا في ضمير الأمة، وقائدا كبيرا واجه الاستعمار ودهاقنته حتى انتهى عهد الحجر والحماية وبزغ فجر الحرية والاستقلال وبناء مغرب العهد الجديد.

لقد حظي زعيم الأمة بالحب والتقدير من قبل المغاربة، فلقد كانت صورته موجودة في كل مكان في المتاجر الصغيرة بأزقة المدن، على زجاج السيارات لقد كانت صورة السلطان سيدي محمد بن يوسف محط إعجاب الجميع لكونها تمثل الرقي أو ما يسميه لاقوتور Lacouture بالحرمة¹.

لم يكن هذا الحب والتعلق ينحصران في اقتناء صور العاهل المغربي، أو ترديد الشعارات من قبيل عاش الملك التي وقف عليها لاقوتور شخصيا سواء في مسفيوة أو في الأطلس المتوسط، ولكن كان أعمق من ذلك وأشمل وهو ما جسده حديث لسيدة تقطن قرب مدينة مكناس عندما سألتها أحد الفرنسيين قائلا: «إن السنة صعبة للغاية إذ يسود الجفاف وقلة العلف المخصص للمواشي». فكان جوابها بليغا ومعبرا: «صحيح إننا نعاني لكن عودة سيدنا تمنحنا قدرة كبيرة على المقاومة». والأمر نفسه تكرر مع أحد القياد المغاربة بالأطلس المتوسط سبق له أن تلقى تعليمه بثانوية أزرو، إذ استعرض الصعوبات الكبيرة التي واجهتها الإدارة في المغرب المستقل لكن سرعان ما استطرد قائلا: «كان من الممكن أن يكون ذلك أصعب لو لم يكن لدينا ملك إنه نواة الأمة المغربية».

1 - Jean et Simone Lacouture, **Le Maroc à L'épreuve** ; Éditions du Seuil, 1958, 98.

لم يكن هذا الحب وهاته الشهرة نتيجة كفاح سيدي محمد بن يوسف ونضاله فحسب، ولكن لتواضعه وتواصله مع الجماهير التي اعتبرته رائد ملكية جديدة ومجددة.

ولفهم شخصية المغفور له السلطان سيدي محمد بن يوسف يجب فهم الوضع العام فمن الجانب الفرنسي تغيرت طريقة تفكير السلطان بعد رحيل المقيم العام ليوطي Lyautey سنة 1925 وبداية تطبيق سياسة الإدارة المباشرة، التي سرعان ما تم تعميمها لتصبح نظرية ونهجاً لإدارة الشؤون السياسية التي لم تكن لتقبل بوجود قوى أخرى غير تلك التي تزكي سياستها والاعتراف بالجميل للدولة الحامية.

وما أن آلت إليه الأمانة الكبرى حتى تصدى لأمر التعليم بكل ما أوتي من عزم وإيمان واستعان بالدولة الحامية من باب عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. خطب بأول خطاب رسمي يوم اعتلائه العرش رداً على المقيم العام تيودور ستيك Theodore Steeg الحاضر للتهنئة والمباركة فقال: "وبلسان التضرع ووطيد الأمل نرجو من الله الكريم الوهاب (...) أن يمكن لجناينا الشريف أن نقوم بما يتعين علينا من الواجبات.

وأول ما اتخذ من القرارات الصائبة تصديده لما كان ينخر الجسم المعنوي والعلمي المغربي من التقاليد البائدة والخرافات والتصرفات المرفوضة نقلاً وعقلاً فأصدر ظهيراً يوضح الطوائف التي كانت تتعاطى طقوساً شوهاء وتأتي بكل وجوه المنكر على أنها من تمام الحنفية فرأى الإمام الشاب المؤمن المستنير أن يجعل حداً لذلك وأن يعمل بالسلطة الوحيدة التي احتفظت له بها الحماية وهي إمارة المؤمنين والسهر على طهارة الدين واليقين»².

لقد كثف المغفور له السلطان محمد بن يوسف حملاته من أجل محاربة الأمية، وأصبح التعليم رمزاً للحرية وعتبة لولوج عالم أفضل، لقد كان الاعتقاد سائداً بفكرة الترقى الاجتماعي والسياسي «الشخص الذي يحسن قراءة الجريدة هو من سوف يشارك في الانتخابات وفي إدارة الحياة اليومية وبالتالي الاسهام في الحياة العامة لبلده، لقد كان الأمل معقوداً على التعليم من أجل تحقيق حياة أفضل. ولتجسيد هاته الطموحات على أرض الواقع عمل السلطان سيدي محمد بن يوسف رحمه الله على رعاية حملة وطنية لتشجيع الإقبال على التعليم ومحاربة الأمية حيث تم تسجيل 250 ألف رجل وامرأة، وأصبحت المدارس تحاصر لمدة أسابيع خلال بداية كل موسم دراسي من أجل الحصول على المقاعد المدرسية المطلوبة»³.

2 - بوطالب / إبراهيم، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2018م، ص، 716.

3 - Jean et Simone Lacouture, *Le Maroc à L'épreuve* op. cit, p.365.

ونظرا لأهمية موضوع التعليم ومكانته في سياسة المغفور له سيدي محمد بن يوسف ارتأينا التركيز في هذه الدراسة على محورين أساسيين حظيا بعناية خاصة من قبل العاهل المغربي:

- تنظيم التعليم الخاص بالفتيات: برنامج 1943م.

- تعيين أول مدير لجامعة القرويين.

1 - تنظيم التعليم الخاص بالفتيات برنامج 1943م

كان المغفور له ينادي بضرورة إدخال المرأة مضمار العلم والمعرفة، فقد كان يشجع العائلات على إرسال الفتيات إلى المدارس حيث انتهاز فرصة استقباله للعديد من الوفود التي جاءت لتهنئته بعيد الفطر سنة 1362هـ الموافق لثاني أكتوبر 1943م ليدعو الى توجيه الفتيات إلى المدارس من أجل العلم والمعرفة، وقد حضر استقبال التهنئة هذه كثير من الناس ممن لم يسبق لهم أن كانوا يحضرون وقد عرف سر هذا التجمع عندما توجه جلالته بالخطاب لهذه الوفود مظهرا اهتمامه بتثقيف الفتاة المغربية، وقد كان رحمه الله خطب قبل ثلاثة أشهر وعلى سبيل التحديد يوم 25 جمادى الثانية 1362هـ؛ 28 يونه 1943م) أمام محراب جامع القرويين مناديا بضرورة دخول الفتاة المغربية معركة البناء، لقد خاطب جلالته الوفود بلهجته المحببة يحض الآباء على توجيه فتياتهم للمدارس من أجل التثقيف في حدود الشريعة السمحة قائلا:

«بالتعليم تحيي الأمة وبانتشاره ترتقي وتبلغ أوج الكمال، وقد أشار رحمه الله إلى الظهير الشريف الذي كان يعتزم إصداره في الموضوع مهيبا بكل العناصر الطيبة أن تعمل على النهوض بالبلاد... واذكر جيدا أن الصالة رددت بعض الهمهمات كان منها همس قد نفذ إلى مسامع جلالة الملك العظيم من بعض الأفاضل الذين عرف فيما بعد أنه مقدم زاوية. حرص جلالته على أن يعرف ما يدور بخلد الرجل فردد هذا في بسالة وهو يتسم: (أفعى ونسقيها سما؟) يعني أن النساء عرفن سلفا بما به يعرفن فكيف تشجعهن؟! وعندما كان أحد الحاضرين ممن يجاوره يحاول الرد على المقدم تلطف جلالته وتولى هو الإجابة: إن البنت ليست بأفعى أولا، ولا يمكن أن نقبل أن تكونوا أنتم وهؤلاء ونحن أبناء أفاعي!! من البنات أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا...! وعلى فرض أن الفتاة كذلك فإننا نعتقد أن العلم ما كان ولا يمكن أن يكون سما ولكنه على العكس من ذلك ترياق يحفظ من السموم...»⁴.

4 - التازي عبد الهادي، ثمان لقاءات مع المغفور له محمد الخامس مجلة دعوة الحق عدد 69.

ولم يكتف السلطان سيدي محمد بن يوسف بهذه المبادرة حيث استدعى رؤساء قدماء تلاميذ ثانويات فاس والرباط ومراكش فطلب منهم تهييء تقارير حول مدارس الفتيات⁵، حيث قدم مندوب المعارف تقرير رئيس جمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس، وقدم رئيس جمعية قدماء ثانوية مولاي يوسف التقرير المعنون بـ: «ما يجب أن يكون عليه تعليم الفتاة»⁶. وبالرجوع إلى التقرير الأول الذي أكدت من خلاله الجمعية أن الاهتمام بتعليم الفتاة لم يعد مقتصرا عليها فحسب، إذ أصبحت العديد من العائلات تتطلع لغد أفضل لفتياتها⁷، كما تعرضت للوضعية التي تعانيها المرأة من جهل وتخلف وهدر لمجهوداتها، وألحت في نفس الوقت على المضي قدما لخوض التجربة. وتضمن هذا التقرير مجموعة من المقترحات نلخصها في العناصر التالية:

- إحداث برنامج موحد للتعليم الابتدائي لمدارس الذكور والفتيات.
- تنويع الدراسة بشهادة الدروس الابتدائية الإسلامية⁸.
- التركيز في الدراسة على التكوين التربوي والأخلاقي.
- أن لا تتجاوز مدة الدراسة في السلك الابتدائي 13 سنة.
- التقليل من حصص التلقين اليدوي.
- تدريس الفرنسية ووجوب وجود مفتشين⁹.

أما فيما يخص التعليم الديني واللغة العربية ونظرا لصعوبة إيجاد مدرسات رأت الجمعية أن هناك خيارين فإما التجاهل التام لهذا المشكل أو الاقتصار في التدريس على اللغة الفرنسية، إلا أن هذين المقترحين لم يقبلهما أحد، ومن ثمة كانت الدعوة لإقحام الرجل في هيئة التدريس الخاصة بالفتيات، خصوصا وأن ذلك سيتم بتعيين من السلطان¹⁰.

5 - الجراي (عبد الله) من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين . مطبعة الأمنية الرباط، 1971م، ص. 69.

6 - منشور كاملا في كتاب الجراي من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، مرجع سابق، ص ص. 70-74.

7 - Archives Diplomatiques Nantes A.D.N., Série D.I.P., carton 85, Association des anciens élèves du Collège musulmans, Fès, Rapport adressé au Résident Général Noguès, SN 23 février 1943, p. 1.

8 - A.D.N., Série D.I.P., carton 85, Association des anciens élèves du Collège musulmans, Fès, Rapport adressé à Monsieur le Résident Général Noguès, SN 23 février 1943, p. 3

9 - A.D.N., Série D.I.P., carton 85, Association des anciens élèves du Collège musulman, Fès, Rapport adressé à Monsieur le Résident Général Noguès, SN 23 février 1943, p. 4

10 - Ibid., p. 5.

واعتبر الفرنسيون اختيار المدرسين من قبل السلطان مساسا بنظام مؤسسات الحماية، ومخالفا للمبادئ التي تركز عليها السياسة الفرنسية بالمغرب فتعيين المعلمين ومراقبتهم من قبل المخزن يعتبر خطوة أولى نحو إنشاء مصلحة خاصة بالتعليم الإسلامي تحت مراقبة المسلمين، ومن شأن ذلك التعريض باختصاصات الإدارة الفرنسية¹¹، وفي خضم هذه الردود تدخل السلطان الذي نظم اجتماعا وزاريا تحت رئاسته في 3 ربيع الأول عام 1362 / 1943م حضره كل من: الصدر الأعظم، ومندوب السلطان بطنجة، ووزير العدلية، ووزير الأحباس، ورئيس المحكمة الابتدائية العليا، والمندوب المخزني في التعليم، والرئيس المساعد للتشريفات، وخليفة رئيس المجلس العلمي، ورئيس جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف، ورئيس جمعية قدماء تلاميذ مراكش، ومفتش المدارس القرآنية... وبعد نقاش طويل استقرت الآراء على مجموعة من المقترحات تتمحور جميعها حول تنويع تدرّس الفتاة بالشهادة الابتدائية، على أن يتراوح سن ولوجها للمدرسة ما بين 5 و7 سنوات، وأن تغادرها نهائيا في سن 12 أو 13 سنة¹². ويتضمن برنامج الدراسة: القرآن الكريم، واللغة العربية، واللغة الفرنسية، أما اختيار المدرسين فيختلف حسب المدن، فبمدينة فاس يشرف على هذه العملية المجلس العلمي للقرويين، وبمراكش علماء اليوسفية والقضاة بالنسبة لباقي المدن. قبل أن يقوم السلطان في مرحلة لاحقة بتعيينهم بشكل نهائي رفقة ثلاثة مفتشين يشرفون على هذه المدارس¹³. وشكلت هذه المقترحات في مجملها الظهير المنظم لتعليم الفتيات الصادر في 17 نونبر 1943م موافق 18 ذو القعدة 1362هـ¹⁴.

وشهدت سنة 1947م حدثا هاما ودالا لأول مرة إذ ظهرت الأميرة للا عائشة وعبرت في خطابها التاريخي عن رغبة عاهل البلاد في النهوض بوضعية المرأة حتى تستطيع القيام بواجبها تجاه وطنها وعائلتها ونفس الدعوة تكررت أثناء الزيارة الملكية لطنجة، وقد كان للحدث أثر كبير في الأوساط الوطنية التي حفزتها هذه الخطوة للمضي قدما إلى دعم كل ما من شأنه انخراط المرأة المغربية في معركة البناء.

لقد انعكست دعوة محمد الخامس إيجابا على إقبال الفتاة المغربية على التعليم، أكثر من ذلك أصبحت الفتاة المغربية تتابع دراستها العليا بالجامعات الفرنسية فما بين سنتي 1957 و1958م، تم التحاق حوالي عشر طالبات بمختلف الكليات الباريسية في الطب والصيدلة والحقوق والآداب.

11 - Ibid, Rapport confidentiel du Directeur du CMI, 19, mars 1943, p. 2.

12 - A.D.N Série D.I.P., carton, 85, Procès-verbal du Conseil des Vizirs au sujet de l'enseignement des fillettes musulmanes, 10 Mars 1943, Confidentiel 3022 I, P. 3t, 15 avril 1943, p. 1

13 - Ibid., p. 2.

14 - Paye (L.), Introduction et Evolution de l'Enseignement Moderne au Maroc Imprimerie Rissalat Rabat, 1992, p. 330..

ومن العلامات البارزة في المسيرة الإصلاحية للعاهل المغربي إقدامه على تنظيم التعليم بجامعة القرويين، وإسناد أمر إدارتها في الأربعينيات إلى محمد الفاسي وهو من أول المتخرجين المغاربة من جامعة السوربون الباريزية. وفي ذلك إقدام لم يكن لينم إلا عن جرأة المؤمن النقي التقي المطمئن إيمانه المشبع بالروح التقدمية. المدرك لمعنى العلم الصحيح الذي إما أن يتقمص دواعي العصر وينفتح على آفاق المستقبل الرحب فيؤتي أكله وإما أن يبقى جاثما على ما يتصوره من الموروثات فيجتري ولا ينتعش ويدوس التراب ولا يتقدم.¹⁵

2 - استحداث منصب مدير القرويين:

كان لتعيين عالمين من مراكش سنة 1940م وهما على التوالي: مولاي امبارك العلوي في منصب الرئيس، والحاج أحمد بوسنة في منصب مراقب الجامعة، أثره الكبير في إثارة العديد من العلماء والطلاب الذين لم يرق لهم هذا التعيين، حيث «أشيع أن إدارة الحماية والباشا الكلاوي كانا من وراء هذا التغيير... وكيفما كان الحال فإن ضغط طلبة وعلماء القرويين ومعهم بعض أهل فاس أدى إلى إبعاد الإدارة المراكشية وإرجاع الإدارة الفاسية»¹⁶ مع تغيير جديد تم بمقتضاه إحداث منصب مدير الجامعة. وأثار هذا التعيين معارضة قوية من قبل العلماء لعدم تدرج المدير محمد الفاسي في سلك الدراسة بالقرويين ولعدم ممارسته التعليم بنفس الجامعة، فانعكس ذلك سلبا على مشاريعه الإصلاحية عندما حاول تبني المناهج البيداغوجية المتبعة بالمؤسسات التعليمية الفرنسية وبال ثانويات الإسلامية «كتسجيل الطلبة خلال الشهر الأول من السنة الدراسية وإجراء امتحانات دورية بدلا من امتحان نهاية السنة بالإضافة إلى استعمال السبورة، وأخذ النقط»¹⁷. كما عمل محمد الفاسي على خلق معهد لدراسة الفتيات سنة 1949م¹⁸ يؤدي الطالبات إلى شهادة العالمية حيث بلغ عددهن سنة 1953 حوالي 100 طالبة بالسلك الابتدائي¹⁹.

وكان للخلاف والصراع بين التنظيمين السياسيين بين الحزب الوطني والحركة القومية أثره الكبير في تواجد حركة معارضة للمدير الجديد، حيث عبر الطلبة القوميين عن عدم رضاهم عن هذا التعيين بحكم انتماء محمد الفاسي للحزب الوطني، وطالبوا بإسناد المنصب إلى شخصية محايدة، وانعكس

15 - بوطالب إبراهيم، مرجع سابق، ص 717.

16 - الدفالي (معروف)، « القرويين والصراعات السياسية في مغرب الحماية » مجلة أمل، عدد 2 س 1 1992م، ص: 85. ج.

17 - Paye (L.), Introduction et évolution ..., op. cit. p 455.

18 - حسب «باي» فإن هذا التاريخ يعود لسنة 1948م، ص. 456.

19 - Paye (L.), Introduction et évolution ..., op. cit., p. 456.

هذا الموقف سلبا على البرنامج الإصلاحي للمدير الذي لم يحظ بالإجماع وخاصة القوميين «الذين صوروه دائما رجلا ميالا إلى المحافظة أكثر من التجديد رغم ثقافته العصرية ملتقيا مع محافظي علماء القرويين في عدد من ممارسات الحياة اليومية والسلوك والتصورات»²⁰. فبقدر ما حاول أنصار الحزب الوطني استغلال هذا الانتماء لمصلحتهم بقدر ما وقف القوميون في وجه ذلك مشكلين معارضة أحصت أنفاس المدير وحاشيته باللسان والقلم على كل شاذة ومن بين انتقادات واتهامات القوميين:

- التدخل في مباراة إدارة الأساتذة في سلك التدريس عن طريق الاستبداد بجمع النقط والتحكم في إعطائها لمن لا يشايعه.

- توجيه أعضاء المباراة حسب مبتغاه.
- الزبونية والمحسوبية في سلك التدريس دون مباراة، وفي مناصب إدارية لأنهم من أبناء العمومة.
- تطبيق مقاييس غير علمية ولا موضوعية في الترقيات.²¹

وفي ظل هذه الانتقادات، وحرصا من السلطان على تشجيع المدير الجديد، صدر بلاغ عن القصر الملكي في 7 نونبر 1949م تضمن استنكار العاهل، «من اشتغال بعض الصحف بنقد ذلك النظام الذي ليس للقائمين بتسييره، والإشراف عليه إلا تنفيذ الضوابط المقررة فيه لا غير، بل إنهم يستحقون الشكر على قيامهم بالواجب في سبيل السير بالجامعة إلى الأوج اللائق بها»²².

قد يطول الحديث عن المنجزات التعليمية للمغفور له السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، فما تم تناوله لا يعدو أن يكون غيضا من فيض لشخصية آلت على نفسها بذل الغالي والنفس لمواجهة المستعمر وأذنا به، وبناء دولة حديثة.

لقد اختار الوفاء لوطنه وشعبه وربط النضال بالفكر لتحقيق الجهاد الأكبر بعدما تم تحقيق الجهاد الأصغر بزوال عهد الحماية والاستعمار وبزوغ فجر الحرية والاستقلال.

20 - أبو طالب (عبد الهادي)، «ذكريات وشهادات ووجوه»، الحلقة 69، جريدة الشرق الأوسط، عدد 28-08-1989م، أورده الدفالي في: «القرويين والصراعات...» مرجع سابق، ص. 96.

21 - الرأي العام عدد 23 دجنبر 1949م، أورده الدفالي في «القرويين...»، مرجع سابق، ص. 97.

22 - النازي (عبد الهادي)، جامع القرويين، المسجد، والجامعة بمدينة فاس دار الكتاب اللبناني بيروت، 1972م، ص. 765.

الزوايا بالريف وارتباطها بالعرش العلوي المجيد

• ذ. وسام شهير

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة

مثلت الزوايا بالريف جانبا مهما من جوانب الارتباط الوثيق بين أهل الريف والعرش العلوي المجيد، حيث شكلت على امتداد ما يربو عن ثلاثة قرون مركزا متقدما للدفاع عن حوزة الوطن، عبر الانخراط الفعلي في المشروع الوطني للدولة العلوية الشريفة القائم على توحيد البلاد، وتحصين حدودها، حيث تصدت الزوايا لهذه المهمة على امتداد الجبهة الشمالية للمملكة، ويمكن التمثيل لهذا الانخراط من خلال العديد من النماذج، لعل أبرزها زاوية أولاد حمامة، وكذا الزاوية الحنصالية.

النموذج الأول تمثله زاوية أولاد حمامة من خلال انخراط أبنائها في بناء الدولة العلوية الشريفة عبر تشكيل فصيل عسكري خاص ضمن الجيش الإسماعيلي الذي تكلف بحراسة وحماية السلطان، إضافة إلى مهمة حماية الحدود، واسترجاع الثغور المحتلة.

أما النموذج الثاني فيتمثل في الزاوية الحنصالية بالريف الشرقي ممثلة في الشريف سيدي محمد أمزيان، الذي قام بدور مركزي في الدفاع عن السلطان وسلطته بالريف عبر محاربته للروكي الجيلاي الزرهوني، إضافة إلى صده للتدخل الإسباني بالمنطقة إلى حدود استشهاده في 12 ماي 1912م.

1 - زاوية أولاد حمامة:

كرونولوجيا؛ تعتبر هذه الزاوية أول جهة بالشمال المغربي أعلنت ولائها للعرش العلوي المجيد، مسهمة في توطيد دعائم الحكم للأسرة العلوية الشريفة، حيث كانت عمدة جيش المولى الرشيد ثم المولى إسماعيل في بداية حكمه مكونة من أهل الريف أولاد حمامة¹؛ من خلال عدة قادة؛ أبرزهم الشيخ عمر بن محمد الحمامي، الذي كان من المناصرين البارزين للمولى الرشيد في المنتصف الثاني

1 - عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992م، ص 63.

من القرن السابع عشر ميلادي 1664م/ 1075هـ بسهل أنكاد²، وكذا في صراعه مع القائد محمد بن عبد الله أعراس، حيث ساهم الشيخ الحمامي في إنهاء حكم بالريف؛ وضم المنطقة إلى مجال نفوذ المولى الرشيد سنة 1665م/ 1076هـ³. ولم يكن الشيخ الوحيد ضمن الجيش الرشيدي العلوي بل ضم قادة آخرين بارزين من أبناء الأسرة الحمامية من قبيل القائد حدو الحمامي وابنيه أحمد وعمر⁴، وكذا أخيه عبد الله الحمامي وأبنائه؛ وعلى رأسهم علي بن عبد الله الذي من نسله تولى عدد منهم باشوية طنجة وحكم أجزاء من المنطقة الشمالية.

الشيخ عمر بن محمد الحمامي: بعد وفاة السلطان عبد الله بن الشيخ المامون السعدي سنة 1623م / 1033هـ، أعلن القائد أحمد أعراس تمرده بتنصيب نفسه حاكما للريف، على غرار باقي المناطق والجهات المغربية في ظل انهيار السلطة المركزية⁵، فامتد نفوذه ليشمل الريفين الأوسط والشرقي، إلى حدود ظهور المولى الرشيد الذي تحالف مع الشيخ عمر الحمامي، بعد أن أعلن ولاءه ومبايعته له، حيث هاجم المولى الرشيد مواقع القائد أعراس في كل تافرسيت والمزمة، فهدم قصبة تافرسيت سنة 1663م/ 1074هـ، واستولى بعد ذلك على عاصمة إمارة أعراس المزمة وأمر بهدمها، ليفر القائد أعراس لقصبة اسنادة طالبا الصلح والأمان مقابل مصاهرة المولى الرشيد إليه في ابنته «طامة» وتسريح ابنه عبد العزيز الذي كان فيمن احتجزهم المولى الرشيد في حملته على المزمة. غير أن أحمد أعراس لم يتأخر مرة أخرى عن إظهار خلافه بمجرد وصول المولى محمد إليه، والزحف نحوه لمحاصرة حلفاء المولى الرشيد من أولاد حمامة. وحينما قتل المولى محمد سنة 1664م/ 1057هـ، توجه المولى

2 - في هذا الإطار يورد الإفرائي في كتابه «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي»: «...فتقوى «المولى الرشيد» بذلك عضده وتوافر جمعه وتناقل الركبان حديثه، ولما انتهى خبره لمولاي محمد، تخوف منه لما يعلم من صرامته، فتوجه لمقاتله والقبض عليه، فلما التقى الجمعان كانت أول رصاصة في نحر مولاي محمد رحمه الله، فوافته منيته وقضى نحبه يوم الجمعة التاسع من المحرم فاتح خمسة وسبعين وألف. فأسف مولانا الرشيد رحمه الله على قتله، وأظهر الحزن عليه. ولما قتله رحمه الله انحشرت جموعه برمتها لأخيه المولى الرشيد، ودخلوا تحت طاعته أجمعين، وتقوى أمره في الحين، والأمر لله وحده يوتي الملك من يشاء. انظر: محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998م، ص 426.

3 - «... ثم دخلت سنة ست وسبعين وألف فتوجه إلى الريف بقصد أبي محمد عبد الله أعراس الثائر به، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه إلى أن قبض عليه في رمضان من نفس السنة فعفا عنه واستبقاه...». أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1997م، ص 34.

4 - في عدة الراوين: «وتولى بعدهم القائد حدو الحمامي التمساني الريفي، وأقام مدة فتح فيها أصيلة والمهدية والعرائش...». انظر: أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية 2001م، ص 45.

5 - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب 1977م، ص 363.

الرشيد نحو قصبة أولاد أعراص بتلا بادس، وتمكن من هدمها، والتجأ أحمد أعراص إلى صخرة بادس تحت حماية الإسبان، بينما فر أتباعه إلى القائد لخضر غيلان، ولم يلبث أحمد أعراص أن نزل عند رغبة ابنه عبد العزيز لقبول الصلح ثانية، وهو ما تم سنة 1665م/ 1076هـ⁶. ليتم بعد ذلك إصدار عفو عام عن أسرة أعراص ليكونوا سنداً للشيخ عمر الحمامي في أعماله العسكرية ضمن الجيش الريفى، حيث شارك هذا الأخير في الزحف على فاس وضمها للسلطة العلوية سنة 1664م/ 1076هـ، وكذا مراكش سنة 1668م/ 1079هـ.

وقد أسهمت مكانة الشيخ ضمن الجهاز الرشيدى في تقلد أبناء الأسرة الحمامية مناصب سياسية بارزة، حيث أسندت الوزارة لابن عم الشيخ عمر عبد الكريم الحمامي. كما تعززت هذه المكانة والحظوة في العهد الإسماعيلي من خلال المصاهرة بين الشيخ عمر والمولى إسماعيل، حيث ارتبط السلطان بأخت الشيخ الحمامي، ليجعل منه ذلك أبرز شخصيات البلاط السلطاني⁷.

عمر بن حدو الحمامي: ابن القائد حدو الحمامي⁸، انخرط عمر بن حدو بالجيش الرشيدى في جملة أولاد حمامة الذين هم تحت رئاسة الشيخ عمر بن محمد، ابتداء من المشاركة في حصار فاس ومطاردة كل من أحمد بن محرز عن تازة، والخضر غيلان من إقليم الهبط. وبمجرد مقتل هذا الأخير عينه السلطان عاملاً على المنطقة الواقعة بين طنجة والقصر الكبير سنة 1679م الموافق لـ 1084هـ.

ظهرت المهمة الرئيسية التي ألقاها المولى إسماعيل على عاتق عمر بن حدو منذ بداية ولايته في العمل على استعادة مدينة طنجة من قبضة الأنجليز. وإن لم يتحقق له ذلك، فقد واثته الفرصة لاسترجاع المعمورة من يد الإسبان⁹. وحينما عين القائد الحمامي عاملاً على إقليم الغرب كله، ونائب السلطان به، اهتم بمشاكل مراسي الثغور الساحلية الواقعة بين طنجة وسلا. ووجه عمر بن حدو معظم جهوده

6 - عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم، م س، ص 64.

7 - احتفظ الشيخ عمر التمساني بمكانته في البلاط المخزني، كأحد رجال الجيش البارزين، خلال السنوات الأولى من حكم المولى إسماعيل. وفي أغلب الاعتقاد أن ميله بدأ يتحول منذ ثورة فاس عام 1667م/ 1083هـ. انظر: عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم، م س، ص 123-211.

8 - رئيس أهل الريف على عهد المولى إسماعيل، ولده أحمد وعمر اللذان جاهدا وقتاً طويلاً بمدن الشمال الغربي، ولعبت العائلة دوراً كبيراً بالمنطقة. انظر: أحمد بن محمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، م س، ص 134.

9 - ويعود علمنا بأولى الحركات الجهادية، إلى ما أخبرنا به موييت Mouette في مذكراته عن تاريخ المولى إسماعيل، حيث أخبر أن القائد عمر بن حدو حاصر برجين هما: كندال Kendal وهنريتا Henrietta وذلك ما بين 6 و16 يناير 1678م، مما يوافق 13 و25 ذي القعدة من عام 1089هـ.

انظر:

G Mouette, Histoire, de mulay Rachid et Mulay Ismail. S.I.H.M. France, 2^{ème} Série, 2 : 63-115.

إلى طنجة منذ توليته إلى أن باعته الوفاة في الثاني من نونبر 1681م الموافق لـ 18 رمضان 1092هـ، أثناء زيارته لمدينة مكناس.

اشتغل القائد عمر أيضا بحل مشاكل القرصنة، إذ أن المولى إسماعيل أضاف إلى مهامه السهر على شؤون الثغور الواقعة بالغرب، وفي مقدمتها مدينة سلا التي تشكت من الحصار البحري المفروض عليها من أسطول فرنسي مكون من عشر سفن، يقودها الفارس «شاتو رونو» Chateau Renault منذ يوليوز 1680م الموافق لجمادى الثانية - رجب 1091هـ، والغاية من ذلك جر المغرب إلى عقد اتفاق يرضى عنه لويس الرابع عشر¹⁰.

أعلنت وفاته بمكناس جراء إصابته بالوباء، وذلك في 18 رمضان عام 1092/ 02 نونبر 1681م. ودفن بضريح سيدي عبد الله بن محمد، خارج المدينة، وتولى مكانه أخوه أحمد وابن عمه القائد علي بن عبد الله الريفي.

أحمد بن حدو الحمامي: ابن القائد حدو الحمامي وأخ القائد عمر بن حدو الحمامي، عرف كذلك بالقائد أحمد الريفي، عظم موقعه بعد القضاء على نفوذ أولاد النقسيس بتطوان عام 1673م / 1084هـ¹¹، حيث تولى قيادة الشمال الغربي إلى حدود وفاته.

ساهم في تحرير العديد من الثغور المحتلة منها:

- مدينة طنجة: بعد أن قاد عملية حصار المدينة نجح القائد أحمد الريفي في تحرير المدينة شهر مارس من سنة 1683م الموافق لربيع الأول من سنة 1095هـ.
 - مدينة العرائش: قام بمحاصرتها كذلك إلى حدود تحريرها من الاحتلال الإسباني في الثاني من نونبر 1689م الموافق للثامن عشر من شهر محرم سنة 1100هـ.
 - مدينة أصيلة: قام بمحاصرتها كذلك إلى حدود تحريرها من الاحتلال البرتغالي سنة 1690م / 1101هـ.
- كما قاد القائد أحمد الريفي حصار ثغر سبتة منذ سنة 1695م / 1107هـ.

10 - كلف المولى إسماعيل قائد الغرب وثغوره البحرية ببدء المحادثات، حيث اشترط عمر بن حدو على الفرنسيين تزويد البلاد بالبارود لقاء ما يحصلون عليه من المراسي، وهو أهم ما ألح عليه السلطان المولى إسماعيل، كما اشترط معاملة السفن المغربية المتجولة بين مراسي الدول بنفس المعاملة خلال الأجل المحدد الذي سينتهي يوم 25 أكتوبر 1680م. وبعد انقضاء ذلك الأجل تابع الفرنسيون البحث للتوصل إلى عقد الهدنة منذ نهاية شتبر 1681م الموافق لـ 17 رمضان 1092هـ، حينما بعثوا سفينتين الواحدة إلى تاهدرات والثانية إلى سلا وعلى ظهرهما عدد من يهود مدينة أمستردام الهولندية.

11 - أسرة حكمت تطوان وناحياتها لمدة قرن من الزمن 1578 - 1673م / 985 - 1084هـ.

علي بن عبد الله الحمامي: تولى مهمة قيادة المجاهدين المحاصرين لمدينة سبتة من قبل السلطان المولى إسماعيل إلى جانب ابن عمه القائد أحمد الريفي، منذ سنة 1695 م / 1107 هـ، إلى وفاته في 28 غشت 1713 م الموافق للسادس من شعبان 1125 هـ. كما اضطلع القائد علي الحمامي بأدوار دبلوماسية نيابة عن المولى إسماعيل للتفاوض في الشؤون البحرية والتجارية مع الأجانب.

2 - الزاوية الحنصالية

برزت هذه الزاوية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث جاء تأسيسها بهدف دعم الحركة الجهادية لتحرير مليلة، عبر مساهمة شيخها الفقيه المرابط أحمد بن عبد السلام في الحصار الذي ضرب على المدينة على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبحضوره، ما بين التاسع من دجنبر 1776 م والسادس عشر من مارس 1775 م¹².

أما عن أبرز أعلام هذه الزاوية فيعتبر الشريف سيدي محمد أمزيان؛ رمزا للوطنية والوفاء والولاء للعرش العلوي المجيد من خلال تتبع سيرته، التي نستخلص منها العديد من المواقف التي أبان فيها الرجل عن حسه ووعيه الوطني.

صد التمردات وتجديد البيعة والولاء للعرش العلوي الشريف:

برز الشريف محمد أمزيان في فترة شهدت أوج ضعف للسلطة المركزية بداية القرن العشرين، حيث عرفت مختلف مناطق البلاد مجموعة من الثورات والتمردات، أبرزها ثورة الروكي الجليلي الزرهوني «بوحمارة»، الذي جعل من مدينة سلوان عاصمة لإمارته، وسعى بكل الطرق لاستمالة أعيان المنطقة لتدعيم حكمه¹³، غير أن حركته جوبهت بمقاومة شديدة بزعامة الشريف المجاهد سيدي محمد أمزيان، الذي رفض كل إغراءات الروكي؛ متمسكا ببيعته الشرعية للسلطان العلوي المولى عبد العزيز¹⁴، متصديا لمهمة الدفاع عن سلطة المخزن عبر حشده همة قبائل الريف، حيث شارك في تنظيم جيش من أهل الريف لمحاربة الروكي والقضاء على دعوته، وأسس مع أبناء قلعية الراضين لوجود

12 - منذ احتلالها في 17 من شتنبر 1496 م، تعرضت مدينة مليلة للعديد من محاولات الحصار قصد استرجاعها إلى حوزة الوطن، وبقى الحصار الأكبر الذي شهدته المدينة هو الذي قام به السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنتي 1774 و 1775 م يوم تاسع شتنبر من السنة الأولى بمهاجمة مليلة وسبتة معا.

13 - تلقى الروكي الجليلي الزرهوني أول بيعة من أعيان الريف سنة 1903 م بسوق الأربعاء زبوجة بمنطقة قبيلة بني سيدال لوطا.

14 - يعتبر الولاء للسلطان من أهم المبادئ التي قامت عليها الزاوية الحنصالية بالريف، والتي شرب من منبعها الشريف محمد أمزيان وأجداده، حيث حظيت الزاوية بظواهر توقيير واحترام من طرف سلاطين الدولة العلوية، ومنها ظهور السلطان الحسن الأول لشيخ الزاوية محمد المقدم والد المجاهد الشريف سيدي محمد أمزيان الذي برز نشاطه النضالي والسياسي بشكل جلي مع دخول الجليلي الزرهوني منطقة الريف.

بوحمارة رباطا ناحية مدشر «إزنودن» ببني بوغمارن، ثم توجه بعد ذلك إلى كبدانة وشارك مع الجيش العزيزي ضد جيش بوحمارة¹⁵. وهو ما جلب عليه غضب الجيلالي الزرهوني الذي أمر أتباعه بمهاجمة مقر الزاوية، فقاموا بنهبها وتخريبها سنة 1906م¹⁶. رغم ذلك ظل الشريف سيدي محمد أمزيان متشبثا بالبيعة الشرعية التي في عنقه، مستمرا في حشد همم الأهالي للدفاع عن حوزة الوطن، حاملا مهمة إبقاء التواصل بين السلطة المركزية والأهالي، كما استمر في علاقته مع ممثلي السلطان بالمنطقة عبر مراسلات يجدد فيها بيعته وولاءه للعرش العلوي¹⁷.

وللإشارة فقد راسل المولى عبد الحفيظ أهل الريف بقلعية مهنتا إياهم بطرد بوحمارة.

مقاومة الاحتلال الإسباني تحت لواء السلطان:

يمكن الوقوف على عزم الشريف سيدي محمد أمزيان مقاومة الاحتلال الإسباني تحت راية السلطان من خلال التنسيق بينه وبين المحلات المخزنية بالمنطقة، عبر العديد من المراسلات مع الممثل السلطاني بالريف الشرقي البشير بن سناح¹⁸، ومنها المراسلة المرفقة والمؤرخة بتاريخ 8 دجنبر 1909م الموافق لـ 25 ذي القعدة 1327هـ، والتي يورد فيها المجاهد سيدي محمد أمزيان عزمه على مواصلة الجهاد والثبات عليه، وهذا نموذجها:

15 - ورد في رسالة القائد المخزني إبراهيم بن بوزيد إلى نائب السلطان وبطنجة محمد الجباص بتاريخ 18 ربيع الأول 1325 هـ الموافق لـ 7 ماي 1907 م، ما يأتي: «وبعد؛ فيكون في علمك أن المحلة السعيدة أقيمت بمجملها قرب البرج، وركبت فوارسها البارية قاصدة إعانة البركانيين من شيعة المخزن أعزه الله فقطعت تلك الأوعار المساة بباية خندق، ووقع بينهم بارود خفيف، قتل من الفسّاد سبعة أنفس، وجرح ثمانية ومات فرس للشريف سيدي محمد أمزيان، وجرح آخر لقلعية، ورجعوا في الساعة العاشرة من الليل..»

16 - Telegrama Del Rif. 16 de Diciembre 1906.

17 - من ضمن هذه المراسلات رسالته إلى الحاج محمد طوريس النائب السلطاني بدار النيابة بتاريخ 11 صفر عام 1326 هـ الموافق لـ 13 مارس 1908م وكان موضوعها إيصال النائب السلطاني الوفد الريفي إلى السلطان مولاي عبد العزيز، جاء فيها:

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
الفقيه الأنجد الفارس الأرشيد السيد الحاج محمد طوريس سلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا أيده الله. وبعد، فيرد عليك صاحب الشريف السيد محمد أمزيان الكلعي، وطلب من سيادتك أن تمكث في الأمن ومن معه للأعتاب الشريفة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، فأحسن معنا في ذلك أحسن الله إليك حتى يسهل عليهم الأمر بتوسلهم لمقاصدهم بحضرتك السعيدة لأنه قصدنا فيك أن لا تهمل كلامنا بذكرناه، وعلى الخدمة الشريفة والسلام، 11 صفر الخير عام 1326 هـ. الشريف محمد أمزين وفقه الله».

18 - البشير بن سناح من جيش شراكة الذين بقصبة عيون سيدي ملوك ووجدة، استدعاه السلطان إلى فاس ومن هناك تم تعيينه قائد المحلة الحدود بقصبة فرخانة، ليضطلع بعد ذلك بمهمته الجديدة ممثلا للسلطان منذ بداية التجاء الجيلالي الزرهوني بوحمارة إلى قصبة سلوان.

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

محبتنا الأَرْضِي السيد محمد بن العربي الطريس سلام عليك ورحمة الله وبركاته عن خير سيدنا أيده الله ونصره.

وبعد، مما يجب إعلام به لك على قبلة قلعية وينتظرون عند مداد سيدنا أعزه الله وأما المحلة الشريفة فيبيعون خيلهم وبغالهم، ولا يسمعون كلامنا لأنه محمد [الفرخاني القلعي] هو سبب فسادها وكل يوم يقرأ عليهم كتاب مولانا، والنظر عند كلامك العزيز وجعله، لا بد لك ترد لنا جوابك لأنه يريد القدوم لحضرتك بعد وصول كتابنا هذا إليك، ودمت بخير والسلام في 27 صفر المفرد عام 1326. الشريف محمد أمزيان»

ورسالة أخرى موجهة للممثل المخزني على الريف القائد البشير بن سناح في تاريخ 20 أكتوبر 1909م الموافق لـ 05 شوال 1327هـ، جاء فيها تجديد البيعة والولاء والعزم على الجهاد للذود عن حدود البلاد تحت راية ولي أمر العباد ومما جاء فيها:

«الحمد لله وحده: وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما

إلى حضرة من أيده الله بالنصر، وألبسه ملابس العز والعناية سَدَّدك الله ووفقنا وإياك لما فيه رضاه، وسلام عليك ورحمة الله بوجود سيدنا نصره الله.

أما بعد؛ محيِّين تجديد العهد بك، بلغ أعزُّ كتابك واجتمعوا على قراءة مضمينه جميع قبائل الريفية، وما أضيف إليهم على رؤوس الشهداء كخطبة العيد، وما فيه أمرنا الله من الاستعداد بربط الخيل والقوة طاعة الله وطاعة مولانا رسول الله والأمير نحن مدعنين، في رقة الجميع بيعة الأمير... قول مولانا رسول الله: الفتنة نائمة، نحن على تلك النية والجار الصبنيولي هو الذي أوقدها.

.. والآن ها هم القبائل ينظرون لجوابك وما به تشير عليهم من سديد نظرك ورأيك وعلى صحبتك والسلام في خمسة أيام من شوال عام سبعة وعشرون وثلاثمائة وألف.

عن إذن كافة قبائل الريف المجاهدين في سبيل الله يدفعون على أرضهم وأولادهم لا أحرمهم الله من أجر الدفع وفقهم الله».¹⁹

الخلاصة التي نختم بها هذه المقالة للعدد المخلد لذكرى ثورة الملك والشعب المجيدة؛ هي طرح أفكار مقتضبة، بعدما سبق من توضيح الدلالات ووضع الإشارة على الارتباط الوثيق بين أهل الريف والعرش العلوي المجيد:

• القراءة الأولى للعنوان تحيل إلى أن موضوع المقال طويل من حيث الفترة الزمنية من جهة أولى، وعريض من حيث صعوبة تصريف المادة التاريخية من ناحية ثانية، مما لا يسعه سوى حجم الأطروحات الجامعية. ورغم ذلك فإننا نصر على اقتحامه بهذه الصورة المذكورة، على أمل أن نجعل منه درسا أوليا وعاما في شجرة الولاء للعرش العلوي الشريف.

• المدى الزمني لهذا الموضوع يمتد من المنتصف الثاني للقرن السابع عشر ميلادي؛ وهي فترة تأسيس الدولة العلوية الشريفة، إلى المنتصف الأول من القرن العشرين ميلادي؛ الموافق لمولد الحركة الوطنية، التي انتهت أدوارها بالخطوة المباركة المتميزة بما اصطلحنا عليه بثورة الملك والشعب المجيدة.

• الغاية من هذه المقالة توسيع مداركنا وبيان تعلق الريف بالعرش العلوي المجيد، والتأكد من ارتباط الزوايا الريفية بالوعي الوطني المناهض للثورات والتمردات وللوجود الأجنبي، الذي هو ميزة تاريخ المنطقة الريفية. وينطبق هذا على أسرة الشرفاء الحمامين وكذا على منتسبي الزاوية الحنصالية، موضوع هذه المقالة.

• ثورة الملك والشعب التي نحتفل بها ببلادنا من أقصاها إلى أقصاها، هي من المناسبات التي تغري الباحث والمؤرخ على السواء لإفاضة الحديث واستجلاء مكارم المناسبة وعبراتها، فهي مثال يعز نظيره في تاريخنا المعاصر.

الحركة الوطنية المغربية بين خطاب الإصلاحات وخطاب الاستقلال

• ذ. عبد اللطيف الحفار

أستاذ باحث من فاس

من الطبيعي أن يكون المعنى الأول الذي يحضر إلى الذهن، حين الحديث عن ذكرى عيد الاستقلال المجيد، هو النضال التحرري الذي خاضه الشعب المغربي من أجل استعادة استقلاله المسلوب، تحت قيادة وطنية عملت على رسم الأهداف وتسطير البرامج لتنفيذها. إننا ونحن نحتفي بهذه المناسبة الذهبية، نستحضر بعضا من دروس معركة التحرير المجيدة التي أثمرت هذا الإنجاز التاريخي، أملا في استيعاب ما تكتنزه من معان جليلة وعبر كفيلة بأن تنير لنا طريق النضال من أجل استكمال وحدتنا الترابية. وانسجاما مع ذلك، فإن تركيز الحديث عن الحركة الوطنية يأتي اعتبارا لكونها الرقم الثاني في معادلة الاستقلال بعد السلطان، الذي وجد فيها سبيلا ودعامة أساسية لإخراج المغرب من قيود الاحتلال.

إن الغرض الذي يحكمنا في اختيارنا هذا الموضوع هو محاولة الإمساك بالخيط الناظمة لتاريخ الحركة الوطنية وتطورات فعلها النضالي، إضافة إلى التطرق لأهم مرتكزات خطابها طيلة فترة الحماية الذي تراوح بين خطاب الإصلاحات وخطاب الاستقلال. لقد ارتأينا لتحقيق هذا الغرض تقسيم هذا المقال إلى قسمين:

❖ **القسم الأول:** نتناول فيه موضوع الحركة الوطنية ومطالبها الإصلاحية إذ سيتم الحديث فيه عن سياق بروز ونشأة الحركة الوطنية ومرتكزات أسلوبها النضالي المبني على المطالب الإصلاحية.

❖ **القسم الثاني:** نتعرض فيه إلى المطالب الاستقلالية للحركة الوطنية والسياقات الداخلية والخارجية المتحركة فيها.

لنتمكن في الأخير من تعميق فهمنا للوطنية المغربية الجديدة التي نمت وترعرعت في أحضان مغرب الحماية، وكيف ساهم منطق المرحلة في التحكم في ممارساتها النضالية سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي.

أولا: الحركة الوطنية وسياق البحث عن الشرعية النضالية

1 - الحركة الوطنية: مرحلة إثبات الذات

منذ إعلان عقد الحماية المشؤوم، لم يتردد المغاربة في الإعلان عن رفضهم لمضامين المعاهدة عبر قيامهم بخوضهم العديد من المعارك على شكل مقاومة في البوادي والجبال. ردُّ فعل المغاربة هذا، كان هاجسه حمل السلاح والمواجهة الميدانية مع المحتل قصد طرده، تؤرخ لذلك مجموعة من المعارك ظلت راسخة في سجل تاريخ نضال المغاربة منذ فرض نظام الحماية سنة 1912م.

إلا أن هذا الكفاح المسلح لم يستطع عبره المغاربة إيقاف الزحف الاستعماري نظرا للفوارق التقنية واللوجستكية الموجودة بين المحتلين والمغاربة، حيث استطاعت سلطات الاحتلال محاصرة المقاومة المسلحة بالجبال، خصوصا بعد أن تم القضاء على مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

بعد انتهاء حرب الريف وكنتيجة للأوضاع التي فرضتها هذه الحرب، كان لزاما التفكير في تغيير أسلوب الكفاح في المغرب ضد سلطات الاحتلال الفرنسية والإسبانية، فقد ترسخت قناعة المغاربة في كون أن الاستعمار استطاع تقويض المقاومة المسلحة والتمكن من حصارها في مناطق مختلفة من الأطلس، رغم ما امتازت به من بسالة وشجاعة أربكت، في كثير من الأحيان، الفعل الاستعماري في المغرب¹.

أمام هذه الوضعية، اقتنع المغاربة أن التجديد في الفعل النضالي بات ضرورة مرحلية، استدعت إلزامية امتصاص الصدمة التي نتجت عن فشل المقاومة العسكرية في المغرب وتجاوز حالة اليأس التي أصابت عامة الشعب المغربي². وهو ما راهن عليه مجموعة من الشباب المثقف المتشبع بروح المقاومة السلمية والتي لا تعطي السلاح المقام الأول في كل معركة، وأبدت بشكل ظاهري أو باطني نوعا من الاهتمام بالسياسة، خصوصا وأنها كانت تعقد مجموعة من الجلسات السرية عبرت من خلالها عن

1 - زنيبر محمد، «صفحة من المقاومة المغربية إثر حرب الريف»، أعمال ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار 1904-1955م الجذور والتجليات، منشورات كلية الآداب أكادير، الهلال للطباعة والنشر، 1997م، ص 169.

2 - زنيبر محمد، صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1990م، ص 159.

مواقفها الراضية للاحتلال وأساليبه. لكن هذه المجموعة الشابة، لم تكن لها من الإمكانيات والتنظيمات ما يعطيها قيمة حركة وطنية منظمة، إلا أنها كانت موجودة وتقوم بواجباتها في دائرة إمكانياتها³.

وموازاة مع النجاحات الكبيرة التي حققتها سلطات الحماية أمام المقاومة المسلحة، أقدمت الحماية الفرنسية على استصدار الظهير البربري في 16 ماي 1930م، الذي كان بمثابة محاولة للتقسيم، أراد بها الفرنسيون تفكيك أسس الوحدة الوطنية والتماسك الديني والاجتماعي، وتضمن هذا الظهير مقتضيات عديدة تخرج القبائل الأمازيغية للمغرب من سلطة الملك ومن نفوذ القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية⁴.

وبمقابل ذلك، فقد كان الظهير وراء ارتفاع درجة حرارة الرفض الشعبي، فأضحت مواجهة تنزيلة قضية حياة أو موت، كما اصطدم هذا المرسوم بجيل بكامله الذي استغل هذه المواجهة لإيقاظ النزعة التحررية، مع التركيز على توظيف المجال الديني في معركته ضد ما حمله من إجراءات⁵. وهو ما وفر للقضية الوطنية حشدا جماهيريا كبيرا، شمل مدنا عديدة سواء بمنطقة الحماية الفرنسية أو منطقة الحماية الإسبانية. هذه الوضعية وجد فيها المستعمر نفسه في مواجهة مباشرة مع حركة وطنية آخذة في التكون.

لا يخفى على كثير من دارسي تاريخ المغرب المعاصر، أن الظهير البربري شكل نقطة تحول مفصلية في عقلية الوطنيين الشباب ومعهم سائر الشعب المغربي، حيث وجدت هذه الطاقات الشابة نفسها مرغمة على الالتفاف في تنظيم وطني كفيل بلملمة شتات الوطنيين المغاربة وتوحيد خطاب المقاومة لديهم، خصوصا أمام وضعية التقسيم الذي فرضه الاستعمار الفرنسي والإسباني فكانت النتيجة أن تم تأسيس كتلة العمل الوطني سنة 1933م، كأول تنظيم حامل لعناصر مشروع سياسي حاول انتشار الأهالي وتأطيرهم ضد السياسة الاستعمارية وتنوير الرأي العام، وبث روح الوعي فيه بشكل سيُمكن من توفير الأرضية المناسبة لاستنبات نضال وطني شامل⁶.

3 - واتروري جون، أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة، بيروت، 1982م، ص 48.

4 - لقد كان الظهير البربري محاولة للتقسيم أراد بها المستعمر إخضاع الأمازيغ إلى قانون المحاكم العرفية والفرنسية إن اقتضى الحال والعرب للمحاكم الشرعية. وتعود الجذور الأولى لهذا الظهير لسنة 1914م حيث صدر آنذاك الظهير الذي أقر احترام النظام العرفي الجاري به العمل في القبائل التي توجد بها المحاكم الشرعية.

5 - من مظاهر استنكار الوطنيين للظهير البربري ترديدهم في جميع المساجد ما يعرف باللطيف «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البربر».

6 - القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011م، ص 586.

2 - الحركة الوطنية والمطالب الإصلاحية

انتظم الوطنيون في دائرة الكتلة لتنسيق الحركة الوطنية وتوجيهها، وبذلك أخذت البلاد تشهد ألوانا من الاحتجاجات لم تعهدها من قبل. كما عززت الكتلة تحركاتها بتأسيسها لمنابر صحفية تنطق بلسانها وتعمل عبرها على شرح القضية المغربية والتعريف بها فأست جريدة الشعب بالمنطقة الفرنسية ومجلة السلام بالمنطقة الإسبانية، وغيرها. وعلى النقيض من ذلك، كان رد فرنسا هو إصدار قانون إلحاق المغرب بوزارة المستعمرات في فبراير 1934م، والذي أفقد المغرب ما تبقى من شخصيته السياسية⁷.

ونتيجة لذلك، وفي سابقة لم تتوقعها سلطات الحماية، فاجأت الحركة الوطنية الرأي العام الوطني والفرنسي والإقامة العامة بتقديمها لدتر مطالب الشعب المغربي (المطالب الإصلاحية) في دجنبر 1934م، متجاوزين العقم الذي وصفهم به الفرنسيون من كونهم لا يملكون برنامج عمل سياسي واضح. وقد قدمت المطالب إلى سلطان المغرب والإقامة العامة بالرباط والحكومة الفرنسية⁸. وجدير بالذكر، أن مقدمة هذا البرنامج الإصلاحي خُصصت لتحليل آراء القانونيين ورجال السياسة حول مفهوم الحماية الذي يُقر باستقلالية الشخصية المغربية. وهو إجراء يؤكد على أن الحركة الوطنية الفتية بدأت تستوعب أدبيات النضال السياسي المبني على أسس قانونية تبرر بها خطاباتها. كما أن تقديم هذه الإصلاحات إلى السلطان والإقامة العامة والحكومة الفرنسية يُظهر رغبة الحركة الوطنية في البحث عن الشرعية وعن مكان لها في المشهد النضالي المغربي الذي كان عنوانه الأكبر هو المقاومة العسكرية. ويُلزم الإقامة العامة والمتربول بالاعتراف الضمني بهذا المولود الجديد الذي سيملاً الفراغ السياسي الذي أنتجته الحماية بالمغرب.

إن جوهر ما تضمنه برنامج الإصلاحات هو مناشدة فرنسا بتطبيق معاهدة الحماية وإلغاء كل مظاهر الحكم المباشر مع الحفاظ على الوحدة الإدارية والقضائية. ولعل منطق المرحلة الذي يفرض ضرورة الحصول على تأييد خارجي وشعبي، جعل الحركة الوطنية تلجأ إلى خطاب الود والمهادنة، تضمن به شروط الاستمرارية خصوصا في ظل التعسفات المستمرة لإدارة الحماية.

استمرت الحركة الوطنية في مطالبتها الإصلاحية وبدأت ترسم لنفسها مساراً نضالياً يركز على الاحتجاجات والعرائض التنديدية ضد السياسة الاستعمارية مواصلة انفتاحها على القواعد الشعبية عبر تأسيس فروع جديدة للكتلة. كل هذا لم يمنع من بروز مشاكل تنظيمية داخلها خصوصا مسألة

7 - المريني عبد الحميد، الحركة الوطنية من خلال شخصية الأستاذ علال الفاسي، مطبعة الرسالة، الرباط، 1978م، ص 52.

8 - القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المرجع السابق، ص 589.

القيادة، مما أدى إلى انشقاقات في صفوف الحزب كانت نتيجتها بروز حزبين جديدين على أنقاض كتلة العمل الوطني، عزّزا المشهد السياسي المغربي⁹ وتتمثل في:

• **الحزب الوطني لتحقيق الإصلاحات المغربية:** بزعامة علال الفاسي الذي تأسس في أبريل 1937م، ويُعد امتدادا لكتلة العمل الوطني برجالها وأفكارها وأطرها وعقيدتها، استأنف الحزب عمله بعد حصوله على اعتراف الحماية مؤسسا فروعاً له في سائر المناطق المغربية. لكن فرنسا أصدرت في أكتوبر قرار حل الحزب واعتقلت زعماءه ونفت علال الفاسي إلى الغابون خصوصاً بعد أحداث واحتجاجات بوفكران الدامية.

• **حزب الحركة القومية:** الذي أشرف على تأسيسه حسن الوزان، إلا أن استمرار دعمه وتضامنه مع الحزب الوطني، بعد عمليات القمع الذي تعرض لها، جعل الحماية تُقدم على اعتقاله ونفيه إلى الجنوب الشرقي للمغرب وهو ما قضى على الحركة القومية.

نفس الحركة السياسية عرفت المنطقة الإسبانية، ببروز أحزاب تحت قيادات قوية أبرزها:¹⁰

• **حزب الإصلاح الوطني:** تحت قيادة عبد الخالق الطريس، الذي تأسس في 18 دجنبر 1936م، وظل على صلة بالحزب الوطني وأحدث جريدة الحياة باللغة العربية، كما تميز بتبنيه لمواقف مرنة من النظام الإسباني بزعامة فرانكو.

• **حزب الوحدة المغربية:** ظهر في 3 فبراير 1937م بزعامة المكي الناصري المنشق عن حزب الإصلاح وأصدر جريدة الوحدة المغربية.

إن هذا المشهد السياسي العام الذي امتاز بالمد والجزر بين حركة وطنية فتية وبين سلطات الحماية الرافضة لأي عنصر يُقوض من فعلها الاستعماري بالمغرب سيأخذ منحاً آخر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث سيصبح خطاب الاستقلال هو العنوان الأبرز للحركة الوطنية أثناء وبعد الحرب والذي حل بديلاً عن خطاب الإصلاحات التي اقتنعت الحركة باستحالة إنجازها بعيداً عن وضعية الاستقلال.

9 - داهش محمد علي، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2004م، ص 133.

10 - القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المرجع السابق، ص 593.

ثانياً: الحركة الوطنية ورهان مطلب الاستقلال

1 - سياق بروز مطلب الاستقلال

كانت الفترة الممتدة ما بين 1930م و1940م، فترة مخاض عسير في حياة الحركة الوطنية احتاجت فيه إلى جهد وعمل كبيرين لإثبات وجودها في الساحة المغربية كمناضل وحيد عن الشعب المغربي خصوصاً أمام الحصار الشديد الذي مورس على السلطان. لكن ظروف الحرب العالمية الثانية، شكلت بداية التمرد الحقيقي للسلطان، الذي أصر على ممارسة أدواره الحقيقية كاملة والتحرر التدريجي من الرقابة المفروضة عليه منذ تعيينه، وكان ذلك استجابة للمطلب المقدس للحركة الوطنية والشعب المتمحور حول استقلالية السلطة المغربية تحت ظل صاحب الجلالة السلطان محمد بن يوسف¹¹.

وعموماً، فقد غيرت ظروف الحرب العالمية الثانية طبيعة الحركة الوطنية سواء في مطالبها أو في أساليبها النضالية وأصبح رهان الاستقلال هو المطلب الوحيد والأوحد للسلطان والحركة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجموعة من العوامل ساعدت الحركة على طرح هذه الرؤية الجديدة للعمل ولعل أبرزها¹²:

- أحداث الحرب العالمية الثانية والانتصارات التي حققتها دول المحور التي أدت إلى سقوط فرنسا في يونيو 1940م.
- الميثاق الأطلسي الذي التقطت فيه الحركة الوطنية إشارة برغبة أمريكا في تجريد أوروبا من شروط قوتها المتمثلة في المستعمرات.¹³
- مؤتمر أنفا الذي كان بمثابة فرصة أمام السلطان والحركة لتدويل القضية الوطنية.
- بروز هيئة الأمم المتحدة بمبادئها الداعية إلى التحرر والاستقلال.
- نجاح الحركات التحررية السورية واللبنانية في الحصول على الاستقلال من فرنسا سنة 1946م.
- خطاب طنجة الشهير الذي شكل منعطفاً حاسماً في تاريخ الحركة، حيث إن مطلب الاستقلال، الذي أصر عليه السلطان، سيمنح شرعية لخطاب الاستقلال الذي تبنته الحركة الوطنية.
- التنظيمات الحزبية الجديدة التي رأت النور خلال وبعد الحرب العالمية خاصة بعد رفع الحصار

11 - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط 6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006م، ص 391.

12 - القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية (1941-1946م)، ج 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م، ص 229.

13 - عياش ألبير، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، ط 1، دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985م، ص 393.

على القيادات الحزبية والسماح بعودتها من منفاها. ولعل أبرزها حزب الاستقلال الذي تأسس على أنقاض الحزب الوطني، وحزب الشورى والاستقلال الذي تأسس على أنقاض الحركة القومية وتزعّمه محمد حسن الوزان، إضافة إلى المولود الجديد المتمثل في الحزب الشيوعي الذي تأسس في شتنبر 1943م الذي كان دوره بارزا خصوصا في صفوف النقابات العمالية¹⁴.

إن التأمل في المشهد السياسي والنضالي الذي عرفه المغرب غداة الحرب العالمية الثانية، سمح بالقول إن ثقل الحركة الوطنية تركّز في نشاط حزب الاستقلال¹⁵، الذي أصبح القوة القائدة في الحركة والسّبق في مختلف الأشكال النضالية التصعيدية، وأصبحت له قاعدة شعبية في مختلف فئات الشعب والحركات النقابية. لكن ذلك لا يحجب الدور الكبير الذي قامت به باقي الأحزاب الوطنية الأخرى، كحزب الشورى والاستقلال، وحزب الوحدة المغربية، وحزب الإصلاح الوطني بشمال المغرب اللذين استطاعا توقيع الميثاق الوطني الذي تبنى، من خلاله الحزبان، مطلب الاستقلال واعتباره سبيلا للإصلاح، إلا أن الأكيد في ذلك، هو قدرة هؤلاء الوطنيين على ربط جسور التواصل مع جميع الحركات التحررية العربية، الإفريقية والعالمية، وإيصال القضية المغربية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة والجامعة العربية.

إن الوقوف عند هذا الإصرار على تدويل القضية المغربية يبرز كيف أن الحركة الوطنية خاطبت المستعمر بلغة ذكية ورؤية متبصرة تجعل من الشرعية الدولية دعامة أساسية لخطابها؛ فبيان الجامعة العربية ومؤتمر أنفا ومستوى التنسيق العالي بين الحركات الوطنية ومثيلاتها العربية والإفريقية كلها دعائم شرعن خطاب الحركة ومنحته قوة للتأثير على قرارات الإقامة العامة الفرنسية والإسبانية.

لقد كان بيان 11 يناير 1944م الذي تقدمت به الحركة الوطنية بزعامه حزب الاستقلال¹⁶ ترجمة جديدة لرؤية الحركة، خاصة وأنها كانت حريصة على إطلاع السلطات على البيان قبل تقديمه إلى سلطات الحماية، حيث سيشكل البيان بداية العد التنازلي للظاهرة الاستعمارية في المغرب، خصوصا وأنه أكد على ضرورة الإسراع بإعلان استقلال المغرب ضمن حدوده الطبيعية تحت قيادة السلطان مع التأكيد على أن الحركة الوطنية لا تفكر في استعمال العنف للوصول إلى هدفها.

14 - نفسه، ص 398.

15 - داهش محمد علي، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 163.

16 - دياب فؤاد، المغرب الأقصى بين الماضي والحاضر، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ص 46.

هذا الالتزام بعدم استعمال العنف هو ترسيخ لمبدأ الخيار السلمي في التفاوض، الكفيل بقطع الطريق أمام أي مبرر تشرعن به فرنسا قراراتها التعسفية تجاه المغاربة شعبا وقيادة، كما يعكس نجاعة الدبلوماسية الموازية كآلية ضغط أخرى تزكي عمل القيادة العليا للبلاد.

وكعادتها، واجهت فرنسا وإسبانيا هذه المطالب بسياسة متشددة ترمي إلى تهيب الوطنيين وقطع الطريق أمام جميع محاولات التنسيق بين السلطان والحركة، هذه الأخيرة استمرت في نضالاتها عبر احتجاجات وإضرابات في المدن وتكثيف التواصل مع القوى والحركات الخارجية، ودائما ما تصر على أن يكون السلطان هو الرقم الأول في معادلة الاستقلال والضامن الوحيد لوحدة البلاد ومركز مطالبها استشارة وتنفيذا¹⁷.

هذا التأكيد الدائم لأعضاء الحركة في جميع اللقاءات والتظاهرات الداخلية والخارجية على التشبث بمبدأ الملكية تحت قيادة السلالة العلوية، وأن أي خطاب خارج دائرة هذا المبدأ يعد تكريسا لظاهرة الاستعمار، قد أكسبها تأييدا شعبيا كبيرا.

شكل خطر التنسيق هذا، حافزا للسلطات الفرنسية للتدخل بغرض إيقافه، خاصة بعد أن أقدم السلطان على خطوة جريئة تمثلت في امتناعه عن توقيع الظهائر، وهو ما اعتبره المقيم العام جوان شكلا من أشكال العرقلة المرفوضة التي لا يمكن رفعها إلا بالقضاء على المقاومة الوطنية وخلع الملك. وفي سنة 1951م، تم توجيه إنذار للملك كي يضع حدا لإضرابه عن التوقيع ويتبرأ من الحركة الوطنية أو التنازل عن العرش¹⁸.

بين هذا وذاك، ظلت فرنسا تساوّم وتفاوض كل الأطراف، تارة تسعى إلى كسب عطف أحدهم على الآخرين، وأحيانا التعامل بصرامة مع الجميع. وكان ذلك بهدف التمهيد لتبرير موقفها في عزل الملك¹⁹، حيث بدأت تستعين بعملاء محليين وفي مقدمتهم التهامي الكلاوي صاحب النفوذ الكبير في المغرب، الذي استطاع عقد العديد من اللقاءات مع القادة الفرنسيين وشيوخ القبائل بكل من مراكش وفاس، كان الغرض منها، محاولة إصدار بيانات ضد الملك لإيهام الرأي العام بأن هناك هيآت دينية تعارض الملك، أبرزها العريضة الموقعة من قبل 270 باشا وقائدا تتهم الملك محمد الخامس بأنه أصبح سلطان الحركة الوطنية ولم يعد سلطانا للمغرب، وطالبوا بخلعه، فتم دفع القبائل للتظاهر مطالبين

17 - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، المرجع السابق، ص 381.

18 - واتروري جون، أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية في المغرب، المرجع السابق، ص 94.

19 - القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المرجع السابق، ص 597.

بسقوط الملك²⁰. هذه المناورات انتهت بإعلان الكلاوي وأنصاره لابن عرفة ملكا جديدا على المغرب في 15 غشت 1953م، وبعد خمسة أيام من هذا الإعلان، حاصرت قوات الحماية القصر الملكي بالرباط وأجبرت الملك على التنازل عن العرش.²¹

2 - الحركة الوطنية، وثورة استعادات الشرعية

انطلقت أصوات المعارضة الحاشدة بقيادة وتوجيه من الحركة الوطنية، مباشرة بعد نفي السلطان، خاصة وأن سلطات الاحتلال بدأت تشن حملات اعتقال واسعة في صفوفها. ووسط هذا الإرهاب البوليسي الذي خيم على المغرب كله، اقتنعت الحركة أن العمل السياسي أصبح عقيما ويات الوضع يحتم توسيع نطاق النضالات لتشمل العمل العسكري، وهو الخيار الذي أجمعت عليه قيادات الحركة الوطنية، وشرعوا في تكوين خلايا فدائية سرية واجهت الإرهاب الفرنسي بمقاومة مشروعة. ولعل من أبرز أحداثها البطولية، محاولة علال بن عبد الله اغتيال ابن عرفة في 11 شتنبر 1953م.

وعموما فقد توسعت دائرة العمليات الفدائية لتشمل جميع المناطق المغربية مدنا وقرى²²، هذه الأخيرة، قامت فيها الساكنة بالاحتجاج ضد القواد ورفض تأدية الضرائب والامتنال لأوامرهم بشكل ساهم في زعزعة ثقة المعمرين والجالية الفرنسية في المغرب في مفهوم العيش الآمن.

وتتويجا لهذه المقاومة، أعلنت الحركة الوطنية عن تأسيس جيش التحرير الذي رفع من إيقاع العمل المسلح ضد سلطات الحماية والمتعاونين معها واعتمد على أسلوب التنسيق مع المقاومين بشمال إفريقيا²³ والمشرق العربي ليصبح الهدف المشترك هو القضاء على الاستعمار في جميع شمال إفريقيا. وبذلك استطاعت قوات جيش التحرير السيطرة على الأقاليم الشمالية والوسطى في منطقة النفوذ الفرنسي، فحاولت فرنسا التصدي للوضع القائم عبر إرسال قوات إضافية لقمع نضال الشعب المغربي، إلا أن هذا الدعم زاد من إصرار المغاربة على الحرية وزيادة العمليات الفدائية خصوصا بعد اتساع دائرة التنسيق بين المقاومة المغربية وجبهة التحرير الجزائرية.

انتهت هذه الثورة العارمة برضوخ فرنسا لمطالب المغاربة ودخولها في مفاوضات مع الوطنيين المعروفة بمفاوضات إكس ليان في صيف 1955م، ليكون أول المطالب وقبل الحديث عن أي من صيغ

20 - نفسه، ص 598

21 - الفيلاي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج12، ط1، شركة تاس للطباعة، القاهرة، 2006م، ص 331.

22 - عياش ألبير، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، المرجع السابق، 406.

23 - القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المرجع السابق، ص 601.

إنهاء معاهدة الحماية بين المغرب وفرنسا هو عزل السلطان البديل وعودة السلطان الشرعي إلى عرشه، ثم التفاوض معه على تفاصيل الاستقلال²⁴.

لم تحسم هذه المفاوضات في مسألة استقلال المغرب ولا في تحديد طبيعة العلاقات الفرنسية المغربية، بل إن ذلك لم يجر إلا في 02 مارس 1956م من خلال التصريح المغربي - الفرنسي المشترك. ويبقى الأكيد، أن ضغوط الثورة المغربية دفعت بفرنسا إلى إرسال وفود للتفاوض مع السلطان في منفاه، انتهت بعودة السلطان إلى أرض الوطن في 16 نونبر 1955م، ليعلن يومين بعد ذلك عن استقلال المغرب.

ومحصلة القول إن ملحمة استقلال المغرب تضع على عاتقنا مسؤولية مواصلة الوفاء لأرواح شهداء التحرير والوحدة والثبات على المبادئ التي سقتها دماء رجالات الحركة الوطنية وجيش التحرير وباقي الشعب المغربي؛ ملحمة لم تكن لتحقيق بدون حركة وطنية نجحت في نسج خيوط التكامل والتناغم بين فاعلية التدافع السياسي وجسارة الكفاح المسلح، حيث حرصت الحركة الوطنية على ألا تبقى حبيسة شكل نضالي بذاته وإنما عمدت إلى تجديد وتنويع أساليبها بهدف تشديد الخناق على المستعمر والذي وجد نفسه أمام واجهات نضالية اختلفت باختلاف تطورات المرحلة.

لقد راهنت الحركة بذلك على تعزيز المكانة الرمزية للسلطان وجعله محور خطاباتها ما أكسبها فاعلية أكبر وتأثيرا أوسع مكنها من تحقيق شرط الامتداد الشعبي.

24 - الفيلاي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 170.

لائحة المراجع:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط 6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006م.
- الفيلاي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج 12، ط 1، شركة تاس للطباعة، القاهرة، 2006م.
- القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية (1941-1946م)، ج 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م.
- القبلي محمد، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011م.
- المريني عبد الحميد، الحركة الوطنية من خلال شخصية الأستاذ علال الفاسي، مطبعة الرسالة، الرباط، 1978م.
- داهش محمد علي، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2004م.
- دياب فؤاد، المغرب الأقصى بين الماضي والحاضر، الدار القومية للطباعة، القاهرة.
- عياش ألبير، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، ط 1، دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985م.
- زبير محمد، «صفحة من المقاومة المغربية إثر حرب الريف»، أعمال ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار 1904-1955 الجذور والتجليات، منشورات كلية الآداب أكادير، الهلال للطباعة والنشر، 1997م.
- زبير محمد، صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1990م.
- واتربوري جون، أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة، بيروت، 1982م.

دور فقهاء المغرب في تحرير البلاد من خلال ثورة الملك والشعب المجيدة

• ذ. محمد دامي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية - المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه، أما بعد:

العلماء وأمانة الكلمة الوطنية الصادقة:

لا شك أن الشرع الحنيف قد أولى لعلماء الشريعة وفقهاء الملة منزلة سامقة ومرتبة سامية؛ فمرتبهم لا تعدلها مرتبة، بل نظر إلى قضيتهم على أنها منبعثة من صلب العقيدة الدينية؛ فقد أشهد الله تعالى العلماء الراسخين الصادقين في البلاغ الصادعين بالحق على وحدانيته، وقرنهم بشهادته عز وجل وشهادة الملائكة الكرام، وعدهم من شهود الحق، والقائمين بالقسط فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾¹. وقال - عز وجل -: ﴿وَيَرَى الْكَافِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِلَّا قُلُوبُهُمْ مُخَيَّلَةٌ وَهُمْ فِي الْكُفْرِ أَذًى وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكَ لَفُتْنَا فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾². وجعل عقل الأمور، وتدبر أحوال الخلق، ومعرفة وجه الصواب فيما يختلف فيه الناس لأهل العلم فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزِفُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾³. وقد كان المنصب العلمي غير منفصل عن منصب القيادة السياسية في حياة المسلمين؛ فكانوا يحملون أمانة التبليغ، ويأمرون الولاة بإقامة العدل، والذود عن حياض الأمة، ومحاربة الظلم والعدوان، وكبت الطغيان.

1 - سورة آل عمران، الآية 18.

2 - سورة سبأ، الآية 6.

3 - سورة العنكبوت، الآية 43.

وهذه المسؤولية التي تحملها علماء الأمة الربانيون طوال تاريخ الإسلام كانت بمثابة السور الآمن الذي حمى الأمة من عواصف الانحلال والفساد، ودافعوا به عن أمن بلاد المسلمين، وحموا ثغور الأمة المرابطة من الأعداء، لا جرم كانوا ورثة الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العامة كفضل القمر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»⁴.

وقد ضرب العلماء والفقهاء المغاربة في القرن المنصرم (القرن العشرين) أروع الأمثلة وأصدق النماذج في استقلال الأمة، وجمع كلمتها، وتقويتها على نيل الحرية ومعانقة الأمل المنشود، وهو إخراج المستعمرين الفرنسي والإسباني من المملكة المغربية الشريفة.

وكان الفقهاء موقنين أنه لا يتم استقلال الأمة إلا بتحرير العقول من الوهن والتخلف والجهل، وغرس الروح الإسلامية والوطنية الأبية فيها، وتثبيت البيعة الشرعية للملك المجاهد محمد الخامس طيب الله ثراه.

وقد أعلنوها عن بكرة أبيهم ثورة وميلادا، ثورة ضد الظلم والطغيان، وميلادا للحرية والرخاء، واستكمالاً لمسيرة الصمود والانتصار، وتعزيزاً للأبعاد التلاحم الذي تبنى به الأوطان، وتشيد به الأركان؛ فكان لا بد للعلماء الغيورين على حفظ ميراث النصر وتضحيات الشهداء أن يقفوا أقراناً للأبطال في ساحات المواجهة الجهادية، ويكونوا الجناح الآخر للنصر الفكري والثقافي؛ لأنهم أصحاب البصائر الذين يقضون بها ويعلمونها الناس.

وإذا كانت أجنحة الشر والمكر ممثلة في نموذجين: الأول: المستعمر الذي يمني النفس بالعبث الفكري بالثوابت الوطنية، وهي الله الوطن الملك، وذلك قصد تسويق العدوان الاستكباري، والحملات المسعورة؛

والثاني: الفكر الانغلاقي التكفيري الذي يبدع العلماء، ويكفر عامة المسلمين.

وهذان الجناحان قد اشتركا في العمل على تمزيق أواصر الأوطان والمجتمعات، وتشويش صورة الانتماء الحقيقية، وتقديم مزيج مسموم من الأفكار التي توهم الشعوب بالتنافر والتنافي بين العقيدة من جهة والانتماء للوطن والمجتمع من جهة أخرى.

4 - رواه بتمامه أبو داود، والترمذي وأحمد في المسند وغيرهم من رواية أبي الدرداء وصححه ابن حبان، وابن الملقن في آخرين. لينظر: «البدر المنير في تحريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير»، لسراج الدين ابن الملقن (7/ 587).

ومع ذلك فإنّ أرباب الفكر السليم وفقهاء المنطق القويم المطلعون على أسرار الشريعة المنيفة والعارفون بواقعهم والتحديات المنوطة بأمّتهم كانوا ولا يزالون يقفون بالمرصاد لمحاولات تشويه مفاهيم الوطنية والتعايش والانتماء، المتناغمة مع روح الإسلام المحمدي الأصيل.

وحتى لا ينسحب بساط البحث من بين أيدينا في الورقات العجلى، لابد أن نضع الهناء مواضع النقب في الكشف عن دور الفقهاء في ترسيخ الوحدة الترابية ومقاومة الاستعمار، وإبراز الوظيفة الريادية التي خلدوها في الثورة المجيدة التي أذنت عن قرب بعودة الملك المعظم الفقيه أبي الحسن وأبي الوطنية الصداقة مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه إلى أرض الوطن لتنتلق أمجاد الاستقلال.

وقبل ذكر بعض النماذج الوضاعة والمُثل المشرقة في ذلك لابد من تسجيل النقاط التالية:

أ - أن المملكة المغربية الشريفة كانت دائما محط استهداف القوى الأمبريالية؛ بسبب الموقع الاستراتيجي المحسود عليه الذي يتنعم به بلدنا، ولله الحمد، ويضاف إلى ذلك أن المغرب كان آخذا على مسؤوليته -فضلا عن حماية أرضه وخيراته- حماية جيرانه شرقا وجنوبا، وعلى ما ذكرته أدلة لا تنكر، فأدى ذلك إلى أن حمل المستعمر الغاشم الأحقاد والأضغان على بلدنا ملكا وشعبا، فحرص على الانتقام من المغرب بسبب دوره الريادي في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ب - أن العلماء كانوا في طليعة المقاومين المجاهدين المتشبثين بالبيعة الشرعية؛ ولهذا كان من أغراض المستعمر التي باءت بالخسران المبين قتل العلماء والفقهاء وتعليق رقابهم في المشانق، أو على الأقل نفيهم وتهجيرهم إلى أماكن مقفرة موحشة تمنعهم من أداء مهمتهم كما سيأتي في بعض النماذج.

ج - أن العلماء خدمة لبلادهم ولدينهم قدموا أروع الجهود في نشر الإسلام في بلاد أوروبا، وتقديم النموذج الأمثل له؛ لأنهم يؤمنون بأن الوطنية الحقيقية ليست مجرد شعارات أو كلمات تموت على الشفاه، بل هو حب وإخلاص وفداء وتضحية، فقيمة الأوطان ترتقي الشعوب وبصلاح الأوطان تسعد البشرية، ذلك أن الوطن في مفهومه الواسع والشامل هو الأرض التي أمرنا الله عز وجل بإعمارها في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا﴾⁵.

د - أن الحرية الفكرية وتحرير الأوطان أمران متلازمان لا ينفكان، فالأرض المحتلة المستعبدة للأجنبي لا يحررها الأذلة المستعبدون الذين لا تخرج آرائهم من رؤوسهم؛ والأصل في العلماء أن يكونوا أحرارا في كلمتهم يسمون بمعاني العزة والكرامة، ويملكون الإرادة، ويتدثرون بالمسؤولية،

ويقترحون على المبادرة والإبداع، ويجأرون ناطقين: حرية البلاد مبدأها حرية العباد، وحرية الأوطان بتجديد رؤى الإنسان.

هـ - أن ثورة الملك والشعب التي خلدها المغاربة ملكا وشعبا لا تموت أبدا بل خلدت في قيمها وغاياتها ومبادئها أرواح الشهداء الأبرار الذين أثبتوا أن الاستقلال ليس هبة أو منحة أو هدية مجانية، وإنما جاء بفضل نضال مستمر ومنظم، وبفضل الدماء الطاهرة التي شهدت على حسن بلاء المجاهدين، ورجال الأمة المغربية الأفاض.

تخليد ذكرى الفقهاء في ذكرى ثورة الملك والشعب:

لئن كان من مآثور خطاب العرب: « ما فني من بقي ذكره »؛ لأن:

بقاء الذكرى حياة الأبد وحب الخلود أطمع لقمان في لبّد

فإن ممن تعطر بأريجهم الزمان، وسارت به الركبان، ووجب على أجيالنا نشر رداء الشاء عليهم، والاعتباط بمآثرهم، وبسط أفضالهم وأيادهم التي أعد منها ولا أعددها، ومدح -صادقا مقتصدا- محاسنهم؛ لأنهم حملة الفقه، وأمناء الشريعة، وقد قال من جلت قدرته: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾⁶ أي: شرفكم، فمن الشرف الباذخ أن نذكر ببعض الفقهاء الوطنيين الذين أغنوا ساحة المقاومة في الثورة المجيدة، ثورة الملك والشعب في 20 غشت 1953م، التي هي محطة بارزة ومعلمة ظاهرة في ملحمة الكفاح الوطني من أجل الحرية والاستقلال.

ومن أولئك الأعلام نذكر:

الشيخ الفقيه العلامة محمد العتابي: الذي هو أحد كبار رواد الحركة الوطنية ضد المستعمر الفرنسي الغادر، وهو أحد علماء القرويين المنحدرين من قبيلة آيت عتاب الأصيلة بإقليم أزيلال والتي كان لها نشاط ظاهر في عمليات المقاومة.

قد كان كاتباً في ديوان الشيخ العلامة أبي شعيب الدكالي وزير العدلية في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، ولما تم إقصاء المولى عبد الحفيظ ثارت ثائرة الفقيه العتابي منددا بهذا العمل، ولم يكتف بذلك بل رحل إلى المشرق سنة 1913م فحجّ ودخل الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، داعياً قادة الفكر الإصلاحية إلى تحرير الأوطان الإسلامية الخاضعة للمستعمر تحت ظل الجامعة الإسلامية، وفي مقدمتهم الأمير شكيب أرسلان، والوطني التونسي علي باشا حامية وغيرهم من أعيان الإصلاح في

6 - سورة الأنبياء، الآية 10.

الشرق؛ فسهل له مأمورية الاتصال بالجهات الرسمية هناك، لمساعدة المغرب على الاستقلال وإخراج فرنسا منه، بل دعا إلى عقد مؤتمر إسلامي يهدف إلى إخراج بيان يقر ويعترف باستقلال المغرب، ولما بلغت أخباره السلطات الفرنسية عبر وسائل الإعلام، حوكم غيابيا في المحكمة العسكرية الفرنسية، وحرم عليه العودة إلى بلده المغرب، وتجريده من أملاكه، ورغم ذلك ففي سنة 1917م نجح في استصدار مصادقة المؤتمر الذي انعقد بستوكهولم، وقد مثل فيه الفقيه العتابي بلاده أروع تمثيل، وتوصل إلى اتخاذ القرارات التالية:

• استقلال المغرب الأقصى الذي لم يعرف الاستعمار قط استقلالاً تاماً؛

• رد شنقيط (موريتانيا) للمغرب الأقصى؛

• مطالبة الدول المحايدة بالمساعدة على الحصول على هذا الاستقلال.

ولم يكتف الشيخ محمد العتابي بذلك بل جعل من قضية استقلال المغرب مسألة رأي عام، وأوصل صوت المغرب إلى الشعوب الإسلامية الشرقية، بل وإلى الشعوب الأوربية، ودعاهم إلى مساعدة المغرب في نضاله ضد المستعمر وطالب باستقلال المغرب استقلالاً كلياً.

ولعل قائلًا يهتف فأين دوره في ثورة الملك والشعب التي هي رهينة البحث؟.

فالجواب: أنه على أكتاف الشيخ الفقيه محمد العتابي وإخوانه من المناضلين الأوائل الذين رفعوا شعار استقلال المغرب أمام المحافل الدولية، قامت حركة المقاومة الوطنية في ربوع المملكة، بل عده كثير من الباحثين أباً للحركة الوطنية⁷، وعلى يديه تخرج العديد من أهل الفكر والفقه والصحافة الذين أعلوا من شأن القضية المغربية منذ اللحظات الأولى من تواجد المستعمر الفرنسي بالمغرب (1913م) إلى أن وافته المنية في الخمسينات⁸.

ولهذا قال عنه الزعيم الوطني محمد الحسن الوزاني: «أسهم الفقيه العتابي باسم المغرب والنخبة الواعية المخلصة من رجاله في جميع حركات النهضة الإسلامية والسياسية في المشرق خاصة لصالح قضية الحرية... وبهذا خلد ذكره في سجل التاريخ واستحق تقدير وطنه والأجيال المغربية التي عاصرتة أو جاءت من بعده... أوذي في سبيل الله والواجب الأقدس، فحكم عليه قضاء الاستعمار بالتغريب والمصادرة عقاباً واقتصاصاً»⁹.

7 - مقال إبراهيم بوطالب في هيسبريس تمودا، العدد: XLVI، 2011م، ص 37-39.

8 - محمد حجي، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا (20/ 5976).

9 - محمد الحسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (1/ 226-232).

شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي الفيلاي (1884م - 1964م)¹⁰: هو أحد أبرز الوجوه العلمية المغربية التي أفرزتها إرهابات القرن العشرين، الذي تزايدت فيه الأطماع الاستعمارية الفرنسية فأدت إلى احتلال البلاد، نتيجة للضغوط العسكرية والسياسية، والمالية، والفكرية، والتجارية التي مورست على النخبة الحاكمة في المغرب، من قبل الدول الأوربية الطامعة في خيرات الوطن.

حديثنا عن هذا الشيخ الفقيه هو حديث عن الابتلاءات المتلاحقة التي تعرض لها وأثبتت وطنيته الراسخة وانحيازه المطلق لشعبه ومملكه، ومن مظاهر وفائه وحبه وإخلاصه للسلطان سيدي محمد بن يوسف، معارضته لتأسيس «مجلس المحافظة على العرش» بعد انسحاب ابن عرفة، بل كان -رحمه الله- أول من يرجع إليه الملك المعظم محمد الخامس ويستشير بنصحه في أكثر المواقف شدة. وقد سجل التاريخ أن شيخ الإسلام كان الرائد الصادق الملهم الذي أصلح الله به المغرب الأقصى ملكا وشعبا مدة حياته.¹¹

ومن الصفحات المضيئة في حياته أنه وبصفته العضو البارز في جمعية علماء المغرب؛ قد فضح -بعد رجوعه من المنفى-؛ الخطة المكيافيلية الفرنسية، التي قام بها ضابط فرنسي سامي مكلف بالاستعلامات العامة لدى الإقامة العامة الذي كان يجس النبض لدى محمد بن العربي، ليجعله في جناح الخونة المتعاونين مع المستعمر الفرنسي، فقد عرض عليه الضابط الماكر سلطة دينية مطلقة شريطة بيانه «الموقف المخزي للسلطان ابن يوسف تجاه الفرنسيين!!»، فأجاب الفقيه محمد بن العربي الضابط النكرة بلغة صريحة وقوة بأس: «إن كل من استولى على مكانة السلطان ابن يوسف سيتعرض إلى الخيانة المكشوفة وإلى التعاون المقيت مع الاحتلال، ويستحق الشنق بعد طرده من حظيرة الأمة الإسلامية». ولما اقتنع الضابط الفرنسي بالإجابة الواضحة للشيخ العلوي، نقلها حرفيا لرؤسائه الذين كانوا يتمنون أن يكون الشيخ بجانبهم، ففرضوا عليه الإقامة الجبرية نظرا لكبر سنه (72 سنة). ولما نفى السلطان محمد بن يوسف إلى جزيرة كورسيكا وقف الشيخ محمد بلعربي العلوي الرجل الوفي رافضا بشكل قطعي التوقيع على عقدة تنصيب السلطان الجديد الذي نصبه الفرنسيون، وهو عميلهم محمد ولد عرفة، فنفي إلى قرية هامشية بتيزنيت.

10 - له ترجمة حافلة في: إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، لعبد السلام بن سودة (2/ 583)، وسل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، له أيضا (ص 195)، وموسوعة أعلام المغرب، لمحمد حجي (9/ 1384).

11 - عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، شركة ناس، القاهرة، ط. الأولى 2006م، (7/ 10).

تقول الأستاذة ثريا برادة: «كان الفقيه بلعربي هو العالم الوحيد الذي لم يوقع على بيعة ابن عرفة، ويحكى أنه حينما طلب منه التوقيع؛ نزع عمامته من فوق رأسه قائلا: هل بعد أن شاب شعري أقوم بتوقيع ما أعتبره غير الحق، وأخون ملكي وبلدي؟؟ لن أوقع حتى ولو قطعتم يدي»¹².

ونادى بالجهاد في سبيل الله، وأفتى بعدم شرعية مبايعة ابن عرفة انطلاقا من المذهب المالكي الذي يقضي بأنه إذا بوع إمامان يقتل الثاني. كما رفض أن يشارك في فتوى وقعها عدة علماء تدين المقاومين بالسلاح، وتبيح الحكم عليهم بالإعدام، فقامت السلطات الاستعمارية بنفيه من جديد إلى ترنيت¹³.

ولإبراز أهمية هذا الشيخ ودوره في خدمة بلده، أورد الباحث محمد الوديع الأسفي في كتابه "السلفي المناضل محمد بن العربي العلوي" شهادات لشخصيات وزعامات وطنية أخرى، تشيد بالشيخ ابن العربي العلوي، وتجمع كلها على إخلاص الرجل وحبه لوطنه، وتسخير علمه لمحاربة الخونة والمشعوذين، ورد كيد المستعمر الغاشم. ومن بينهم مجموعة من تلاميذه ومحبيه كالأستاذ علال الفاسي، والفقيه محمد المختار السوسي، والمقاوم عبد اللطيف بن جلون، والأديب المقاوم محمد زياد وغيرهم. هي شهادات المفكرين والزعماء الوطنيين، تجمع كلها على عظمتهم وتضحياتهم الكبيرة، وفكره النير، وعمله الدؤوب من أجل الإسهام في تحرير البلاد والعباد، ولا أنسى أن أشير إلى أن السمة التي طبع بها فكر الشيخ محمد بن العربي هي عدم الفصل بين النضال ضد الجهل والخرافة، والكفاح ضد القوى الاستعمارية المعادية للمغرب، وأنهما وجهان لعملة واحدة.

العلامة الفقيه والشاعر المفوه محمد القري (1900 - 1937م): كان فقيها ومسرحيا وطنيا، ينحدر من قرى بني قري إحدى فروع صنهاجة الظل بحوض ورغة (تاوانات) نصير المرأة والداعي إلى تحريرها من ربقة الجهل والاستعباد، والداعي إلى ضرورة تعليمها، والمنافح عن اللغة العربية، التحق بالقرويين مع أول فوج للنظام الجديد بها، ومنها حصل على شهادة العالمية، وقد أخذ العلم على جماعة من الأعلام منهم: أحمد بن الخياط، ومحمد بن العربي العلوي، وأبو شعيب الدكالي، وعبد السلام السرخيني وأضرابهم.

وقد شارك هذا الغيور على وطنه في مظاهرات أكتوبر 1937م التي اشتعل أوارها في فاس ومكناس وغيرها لمناهضة السياسة الاستعمارية الطاغية، وظل ملتصقا بوطنه مدافعا عن الوحدة الترابية إلى أن تم اعتقاله، فعذب عذابا لم يعذبه أحد، حيث ساقه الجنود الفرنسيون إلى السجن وفي الطريق انهالوا عليه

12 - معلمة المغرب (18/ 6167).

13 - نفس المصدر السابق. لينظر: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي لعلال الفاسي (ص: 154).

ضربا بالعصي حتى كسروا ظهره، ثم أخذوا يوقفونه بوضع العصي تحت عنقه وذقنه حتى إذا استوى واقفا سحبوا العصي فسقط على الأرض لا يستطيع أن يقف فقاموا بهذا الجرم مرارا وتكرارا، فلما عجز عن الوقوف نهائيا وطئه الجنود بأحذيتهم وضاعفوا الضرب والركل إلى أن فاضت روحه رحمه الله¹⁴.

لقد ساهم الفقيه محمد القري في صفوف الحركة الوطنية منذ انطلاقة بوادرها الأولى في نشر الوعي بحركة الاستقلال الوطنية، وتنشيط خلايا الحركة في المدارس والأحياء، وفي صفوف الحرفيين. وكذلك كان من أوائل شعراء الحركة الوطنية الشابة الشعراء الذين أتحفوا الجماهير بالقصائد الرنانة المعبرة في أول مرة يحتفل المغرب فيها بذكرى تتويج الملك محمد الخامس على عرش أسلافه في 18 نونبر سنة 1933م، إذ نظمت الحركة الوطنية بفاس مهرجانا وطنيا بمناسبة الاحتفال المذكور جمع لفيفا من العلماء والطلاب وعامة الناس ليشكل فرصة ذهبية للفقيه القري للتعبير فيها عن تعلق المغاربة ببيعة السلطان الشرعية، وكذا تحميس الشباب وتحريضهم على الجهاد في شتى الميادين لدحر المستعمر الفرنسي.

روى أحمد بن سودة في ذكرياته أحداث هذا الحفل، فكان مما قال: «وذهبنا إلى جنان السبيل، ففوجئنا بأن المقهى كان غاصا بالقادة الوطنيين، الذين كانت تحيط بهم هالات نورانية من الإعجاب والتقديس، وكذلك بطلبة القرويين، و«كوليج» مولاي إدريس. وكان من بين القادة الحاضرين الأستاذ الشهيد الشاعر محمد القري، وكانت الحاجة ماسة إلى شعار ما، أو نشيد يردده الحاضرون يعبر عن الشعور الجماعي، ويقوي أواصر الانتماء الوطني بينهم، ويبرز المطلب الأعلى للأمة، فهي كلمات بسيطة واضحة، فتوجه الحاضرون إلى الشاعر القري، وطلبوا منه نظم نشيد للمناسبة، فقال في شبه ارتجال:

مليك البلاد عليك الأمل ... يعلقه الشعب بعد العمل
فحقق له فيك ما يرتجي ... يحقق لك الله كل أمل

ولحن المجاهد مولاي علي الإدريسي، النشيد في ذات اللحظة، وكأن عزيمة الجماهير الحاضرة تقمصتها. ولم تمض إلا لحظات حتى ارتفعت به الأصوات إلى السماء، وتجاوبت معه الأرجاء، وانسجمت معه ألحان الطبيعة الغناء، فكان ذلك أول احتفال بعيد العرش.

14 - وقد وصف هذه المحنة بتفاصيلها رفيقه فيها البحاث رائد الفكر الإسلامي بالمغرب محمد إبراهيم الكتاني في كتابه: «ذكريات سجين مكافح في عهد الحماية الفرنسية البغيض أو أيام كولميا»، ط. الرباط، 1977م، (ص: 145)، ومقال الأستاذ عبد الرحمن القباج الموسوم بـ: «القري أول شهيد للحركة الوطنية بالمغرب»، مجلة البحث العلمي، الرباط، ع: 47، 2001م، (ص: 116)، ولينظر: معلمة المغرب (ص: 6616).

وفي الذكرى الثانية لعيد العرش بفاس سنة 1934م، رددت الجماهير الحاضرة أشعار الفقيه محمد القُرِّي المعروفة بـ «نشيد الشبان» التي ألهمت حماس السامعين، وأشادت بالملك المظفر جاء في مطلعها:

أيها الشبان هبوا ... إنكم روح النشاط
ولتحيوا في سرور ... وابتهاج واغتيال
ملكاً يحيي البلاد

وكان لنشيد القُرِّي صده الذي يردد في مدن أخرى كالرباط وسلا وغيرها، يقول الوطني المجاهد أبو بكر القادري الذي عايش تلك الفترة: «إنني لا أنسى ذلك اليوم في حياتنا الوطنية، فلقد لبسنا ثيابنا الوطنية الجديدة وأخذنا تلامذة المكتب الإسلامي وهو مدرسة النهضة الآن إلى المكان الذي أعدناه للاحتفال وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، ويتغنون بأعجاد العرش العلوي، ومن جملة ما كانوا ينشدونه في ذلك اليوم نشيد كان وضعه الأستاذ الشهيد السيد محمد القري رحمة الله عليه»¹⁵.

والجدير بالذكر أن قبر الفقيه محمد القُرِّي ظل مجهولاً إلى أن شيد في ظل الاستقلال، وعرف -رحمه الله- باسم «دفين الصحراء».

أستاذ الجيل الفقيه الشاعر السياسي المحنك علال بن عبد السلام الفاسي الفهري: (1910 - 1974م):
وهو أشهر من أن يعرف به، وبوطنيته، وبمواقفه الخالدة، ويكفي أنه إذا ذكر المغرب المعاصر فهو أحد رجالاته وزعمائه الأفاضل، بل هو رأس الفقهاء والمقاصدين الذين اطلعوا بعبء مقارعة الاستعمار الفرنسي ومحاربتة بكل الوسائل، وأهمها: نشر التعليم وتنظيم قطاعات الأمة للعمل الجماعي وخوض المعارك السياسية والتصدي لكل مخططات الاستعمار¹⁶، وتعرض من جراء ذلك للسجن والاعتقال مراراً، والنفي إلى عدة دول كالغابون والكونغو وغينيا الاستوائية¹⁷.

15 - أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940م، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط. الأولى سنة 1413هـ / 1992م، (1/ 160).

16 - مواقف الأستاذ علال الفاسي السياسية والعلمية والوطنية والدولية كثيرة لا يمكن حصرها في هذه العجالة، وقد وضعت فيها توافيق خاصة منها: علال الفاسي استراتيجية مقاومة الاستعمار، أسيم القرقي. دار أفريقيا العربية، الدار البيضاء، 2010م. وعلال الفاسي رائد التنوير الفكري في المغرب، المفكر السلفي المجدد والزعيم السياسي، أحمد بابانا العلوي، دار أبي رقراق، الرباط، 2010م. وأسرار وحقائق عن علال الفاسي، محمد السلوي أبوعزام، دار الرشد الحديثة، 1981م. وعلال الفاسي: ينبوع فكري متجدد، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط: 2001م.

17 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، (ص: 271).

وقد عارض علال الفاسي الاستعمار بقوة في مواقف شهيرة، فقاومهم حين أصدروا الظهير البربري لشق صفوف الأمة المغربية سنة 1930م فاعتقلته السلطات الفرنسية وهو طالب بالعالمية، ويعمل مدرّساً في المدرسة الناصرية، ونفته إلى بلدة (تازة) ثم عاد بعد الإفراج عنه إلى فاس سنة 1931م فمنعته من التدريس، فانصرف إلى جامع القرويين يلقي الدروس العلمية الليلية عن تاريخ الإسلام.

وهو أيضاً علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وداعية من دعاة المدرسة الإصلاحية، له كتب ودواوين منها: دفاع عن الشريعة، والسياسة البربرية في مراكش، والنقد الذاتي، والحركات الاستقلالية في المغرب العربي، والحرية، ودائماً مع الشعب، وأناشيد وطنية، والديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها، ودفاع عن وحدة البلاد. وكان أيضاً من ضمن الموقعين على وثيقة 11 يناير 1944م، التي دعا إليها الفقهاء والعلماء، لتتلوها ثورة الملك والشعب التي يعرف الجميع مقدار مساهمة العلماء فيها.

أما عن دوره في ثورة الملك والشعب؛ فإنه بعد نصف ساعة فقط من إقدام سلطات الحماية الفرنسية على نفي جلالة الملك المغفور له محمد الخامس والأسرة المالكة، وجه الأستاذ علال الفاسي من إذاعة صوت العرب من القاهرة نداء تاريخياً إلى الشعب المغربي، يدعو فيه إلى الثورة تحت قيادة الملك الشرعي للبلاد، وفيما يلي نص نداء القاهرة: «لقد قضى القضاء وبلغت الغطرسة بالفرنسيين إلى حد أن يبعدوا ملكنا الشرعي عن عرشه، نعم، لقد توجه الجنرال جيوم بعد الظهر إلى القصر الملكي بالرباط، محفوفاً بالجيوش والدبابات الفرنسية، وطلب من جلالة السلطان أن يتنازل عن العرش. لكن جلالته رفض بكل إباء وشمم. فما كان من ممثل فرنسا إلا أن نفذ الجريمة النكراء، فأسر الملك وولي عهده الأمير مولاي الحسن وأخاه الأمير مولاي عبد الله حيث نقلتهم طيارة حربية إلى منفى كورسيكا، الذي اعتاد الفرنسيون منذ القدم أن يعتقلوا بها (القرصان) المسلمين الذين يخطفهم لصوص البحر الفرنسيون، وكان الجنرال جيوم قد أصدر أمره بفض القبائل التي كانت واردة كالعادة للمعايدة مع الملك ومشاركة جلالته في حفلات عيد الأضحى المبارك. إن القوة الفرنسية قد عملت عملها ذلك ما كنا نتوقعه في كل وقت، لأن محمد الخامس أكبر من أن يظل على مرأى ومسمع من الجلادين الفرنسيين، وقد أقر ممثلو الجمهورية الفرنسية اليوم نظاماً يركز على قوة الحديد والنار، حيث أصبح كل مغربي مسجوناً في منزله، ومنعت إقامة صلاة العيد وحفلاته، وهكذا أصبح اليوم الإسلامي الكبير يوم حداد للمؤمنين في مراكش».

وقد نادى في محافل كثيرة بـ:

• انبعاث حق الشعوب في تقرير مصيرها؛

- المطالبة بالاستقلال والوحدة التامة لجميع مناطق المغرب؛
- تكوين نظام ديمقراطي شبيه بالأنظمة التي اتبعتها الحكومات الإسلامية يضمن حقوق سائر العناصر والطبقات التي تكونت منها الأمة المغربية¹⁸.
- ولم يكتف بما ذكرت بل ألف كتباً كثيرة في فقه المقاومة وآليات كبح العدوان، ومنها:
- "فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى"، طبع القاهرة سنة 1932م.
- «موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية: عرض وتحليل لتاريخ الاحتلال الأجنبي في المغرب، وكفاح الشعب المغربي للتخلص منه»، طبع بتطوان سنة 1946م. وقد ألحقت به بحوث ومقالات أخرى مترجمة.

وقد ظل الأستاذ علال الفاسي متنقلاً بين البلدان الأوروبية مدافعاً عن استقلال المغرب مطالباً الاستعمار بالرحيل مناضلاً بجانب إخوانه زعماء الوطنية إلى أن نال المغرب الاستقلال، ومنذ فجر الاستقلال قام مترجمنا بمهام سامية متنوعة، من خلال المناصب التي رشح لها وعين من لدن الملك محمد الخامس، والملك الحسن الثاني إلى وفاته سنة 1974م.

خلاصة وتوجيه؛

ما ذكرت في هذا المقال هي أمثلة وضاعة مبهجة للتلاحم القوي بين الملك والفقهاء في الأوقات العصيبة، كما أنه يبرز الدور المنوط بعلماء المسلمين ودورهم التاريخي في الصراعات وتحرير الشعوب وقيادتها نحو الحرية والمجد، كما أن الواجب هو وضع العلماء المسلمين أمام مسؤولياتهم تجاه شعوبهم ومجتمعاتهم لأنهم المحرك الرئيسي لأي عملية تغيير أو إصلاح في أي مجتمع.

إن ثورة الملك والشعب التليدة شكلت حدثاً بارزاً سيظل راسخاً في الذاكرة التاريخية المغربية الحية، باعتبارها الشرارة التي ولدت شعلة المقاومة والتي تمخض عنها إجلاء المستعمر وطرده من البلاد، وفيها انتفض الشعب المغربي انتفاضة عارمة يتقدمه الفقهاء والمفكرون وصناع القرار ضد المس بكرامة البلد والنيل من رمز سيادته.

وإذ نخلد ذكرى الفقهاء والشهداء؛ فإنني أستذكر هنا الكلمة الرائدة التي ألقاها صاحب الجلالة محمد الخامس (رحمه الله)، إبان خطابه التاريخي الأول، والذي ألقاه بعد عودته الميمونة المضفرة إلى أرض الوطن يوم الاثنين 12 محرم 1376 هـ الموافق غشت 1956م بالرباط بمناسبة الذكرى الثالثة لثورة الملك

18 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، (ص: 285).

والشعب، الذي نوه فيه بوفاء الشعب، وما قدم من تضحيات في سبيل العرش والوطن، وحث الشعب على الاستعداد للجهاد الأكبر، جهاد ضد الفقر والجهل والتخلف. وطالب الشعب بتكتيل الجهود من أجل الوقوف ضد الأخطار التي تهدد المغرب الفتى، ثم قال (رحمه الله): ”إن في أعناقنا لهؤلاء الشهداء الأبرار أمانة يجب علينا تأديتها تأدية تنال رضاهم. تلك هي تكتيل قوانا جميعا للوقوف في وجه كل خطر عدواني، ولحماية استقلالنا الفتى، وذلك بالاتحاد والتعاون والامثال وتطهير النفوس من أدران الضغائن والأحقاد، وعدم التراخي في القيام بالواجب“¹⁹.

الموقف الوطني والدولي حيال عزل السلطان الشرعي (1953-1955م)

• ذ. أنس الصنهاجي

أستاذ التعليم العالي مؤهل
بالمدرسة العليا للأساتذة- فاس

شكلت حقبة الخمسينيات من القرن العشرين مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب، باعتبار النضالات المثمرة التي خاضتها الحركة الوطنية بقيادة السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، والتي أسفرت بعد مخاض عسير عن أوبة السلطان إلى عرشه سنة 1955م.

من المعلوم أن العلاقات المغربية الفرنسية عقب الحرب العالمية الثانية دخلت في سلسلة من الصدمات المتتالية، خاصة في فترة ما بين سنة 1947 و1953م¹، والتي أرخت بكلكلها على الأوضاع الوطنية والدولية خلال هذه الفترة. وتكمن الخلافات المكثرة لصفو العلاقات، بالأساس في تبادل الاتهامات، حيث تتهم إدارة الحماية السلطان بدعم سياسة حزب الاستقلال والوقوف مع الحركة الوطنية، وإعاقة لمشروعات ترسي قواعد التحديث والديمقراطية بالمغرب، هذا علاوة على تدويل القضية المغربية، التي اعتبرتها سلطات الحماية قضية ثنائية بين المغرب وفرنسا، أما السلطان فيتهم إدارة الحماية بتصرفات دوغمائية تلغي شخصيته وتضغط بكل الوسائل للاستحواذ على جميع صلاحياته، وفي الوقت ذاته تدير ظهرها لكل المبادرات الإصلاحية المقترحة من طرف القصر بتنسيق مع الحركة الوطنية².

1 - Lorna (H. Hahn), «French North Africa : an American Problem», The Western Political Quarterly, vol.8, n° 2. (Jun, 1955) p. 186.

2 - بيضا (جامع)، «سيدي محمد بن يوسف: السلطان الوطني (1927-1961)» أصل هذا المقال منشور باللغة الفرنسية تحت عنوان «محمد الخامس» في المجلة اللندنية The Maghreb Review، الجزء 2، العدد 1، 2002م، ص ص. 22 - 34.

وقد بدأت فكرة خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف تنضج في ذهنية سلطات الحماية والمترربول، منذ أن طفق العاهل المغربي يمتنع صراحة عن إظهار الظهائر والمراسيم التي تخدم المصالح الفرنسية على حساب المملكة الشريفة، ويرفض بالمطلق إدماج المغرب في إطار «الاتحاد الفرنسي»³، ويساند في السر والعلن مواقف الحركة الوطنية المدافعة عن الحقوق المشروعة للشعب المغربي، ويمتنع تماما عن اقتسام السيادة مع الإقامة العامة، استنادا على الفصل الرابع من معاهدة الحماية.⁴ فما هي إذن الظروف والملابسات التي مهدت لمؤامرة خلع السلطان الشرعي للبلاد؟.

أولا - الظروف والملابسات التي مهدت لمؤامرة خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف

بدأ الفصل الأول من فصول المؤامرة تنسج خيوطها، منذ أن نصب «جوان» على رأس إدارة الحماية، حيث استهل حكمه بقمع كل المنتقدين لسياسة الحماية البراغمية، وفي هذا الصدد قام بطرد المندوب محمد الغزواني في التاسع من دجنبر سنة 1950م من مجلس الحكومة، بسبب وصفه لتدابير إدارة الحماية واستراتيجياتها السوسيو اقتصادية، بالإجراءات الديكتاتورية المبالغة في إقصاء المغاربة من الامتيازات التي يترقّل فيها الفرنسيون ورجال أعمالهم، وإثر ذلك انسحب المندوبون التسعة المغاربة المنتسبون لحزب الاستقلال، تضامنا مع زميلهم، وردا على فعل المقيم العام، وبعد ساعة من الحادثة كان المندوبون الممتعضون بين يدي السلطان، لتدارس المشكل، فما كان من «جوان» إلا أن اعتبر ذلك عداء له ومناصرة عليه، فعمل بداية على تأليب الأعيان بزعامة الباشا الكلاوي، وفي الوقت نفسه أمر المراقبين المدنيين باستدعاء كل قواد قبائل المغرب لمناصرة الكلاوي ضد السلطان والوطنيين، وفي السادس والعشرين من يناير سنة 1951م، زار المقيم العام السلطان في بلاطه، وطلب منه أن يوقع جميع الظهائر والمراسيم المعلقة، وأن يستنكر أعمال حزب الاستقلال، أو أن يتنازل عن العرش⁵، وعندما رفض السلطان، رد عليه بالقول «جواب جلالكم غير مقبول فإما أن تدينوه وإما أن تتخلوا عن العرش، وإلا خلعتكم بنفسي»⁶ وعندما عاد إلى القصر في الثاني عشر من فبراير سنة 1951م عقب زيارة قام بها إلى واشنطن، أعاد المطالب نفسها لكن هذه المرة مشفوعة بأخرى تطالب بعزل كل بطانته وحاشيته المتعاطفة مع الحركة الوطنية، وأن يوقع العقوبة بجميع الذين لم يمثلوا لإرادة الكلاوي، وأن يعلن رسميا خروج أعضاء حزب الاستقلال على الملة الإسلامية، وأمام رفض السلطان ذلك جملة

3 - Abdeslam Bekkali (Ahmed), **Mohammed V, premier résistant**, Imprimerie Dedico, Salé, pp.37-38.

4 - حركات (إبراهيم)، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، ط2، الدار البيضاء، 1985م، ص ص. 34-35.

5 - Jullien (André), **L'Afrique du Nord en Marche**, Paris, René Julliard, 1952, p.378.

6 - روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط2، بيروت-لبنان، 1980م، ص ص. 347-348.

وتفصيلاً، سارع المقيم العام «جوان» إلى دفع الكلاوي لشرعنة فعل الخلع عبر جمع توقيعات أفراد القبائل التابعة له، بصيغة يحث منطوقها على عزل السلطان وتكفير حزب الاستقلال.

ومن المعروف أن مجمل الموقعين كانوا أميين لا يعرفون موضوع هذه العرائض ولا فحواها⁷، أما المتعلمون فقد رفض الكثير منهم التوقيع.⁸ وللدرد عن هذه المؤامرة ودحض ادعاءاتها، حرّر القصر والحركة الوطنية عرائض مضادة أكثر توقيعا، معززة بشهادات المتراجعين والمغربين والمهددين ممن وقعوا في العريضة الأولى⁹، ورغم ذلك، فقد أبى المتآمرون إلا خلع السلطان، فجمعوا كل الفرسان المغرر بهم تحت إشراف المراقبين المدنيين، ووجهوهم صوب مدينتي فاس والرباط بحجة تطعيمهم من داء السل، وقيل لآخرين للمشاركة في احتفال كبير ونيل هدايا من السكر، وقد عضدت هذه الجموع المتقاطرة بالقوى المسلحة والدبابات والمدافع التي طوقت قصر السلطان وأبنائه بالرباط في الثالث والعشرين من فبراير سنة 1951م، وفي حمأة هذا الجو الملبد بغيوم المؤامرة والخيانة، بعث «جوان» إلى السلطان يخيره بين الامتثال لمطالبه أو خسارة عرشه، فما كان من السلطان إلا أن خضع عنوة لهذا الابتزاز تجنباً لسفك دماء شعبه في حرب أهلية بيت لها في ليل.¹⁰ ورغم قطع العلاقات مع حزب الاستقلال، فإن السلطان لم يكسر صيامه عن توقيع الظهائر التي تخدم مصالح إدارة الحماية.¹¹ في الوقت الذي حرص فيه على تدويل القضية المغربية، وذلك من خلال تسجيلها في أعمال الدورة السادسة للجمعية العمومية، ثم إدراجها بعد ذلك في الدورات اللاحقة،¹² هذا الموقف الوطني الشجاع من السلطان ارتأى فيه المقيم العام الجديد «غيوم» تهديدا كبيرا للمشروع الاستعماري، وإجراء يتطلب يدا من حديد تضرب بقوة على كل المناوئين لنظام الحماية، وعلى رأسهم السلطان وزعماء الحركة الوطنية، فسبك خطة شبيهة بمؤامرة سلفه، تعتمد على عملاء الاستعمار وآلة إعلامية مغربية وفرنسية متواطئة لتحويل الحقائق وتسويغ أفعالها وأعمالها، تقوم على أساسين: الأول يكمن في التنكيل بالحركة الوطنية وكسر شوكتها، بحكم أنها المساند الرسمي لمواقف السلطان، وظله في الأوساط الشعبية والدوائر السياسية والتمثيلية، والثاني استوجب خلع السلطان باعتباره أس المشكلة

7 - Jullien (Charles-André), *L'Afrique du nord en marche, nationalisme musulmans et souveraineté française*. Paris, 1952, pp. 379-380

8 - روم لاندو، تاريخ... م.س، ص. 351.

9 - برنار (ستيفان)، تاريخ الصراع الفرنسي - المغربي 1943-1956، ترجمة حسان المعروفي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014، ص. 131.

10 - روم لاندو، تاريخ... م.س، ص. 353

11 - برنار (ستيفان)، تاريخ... م.س، ص. 137

12 - عياش (ألير)، المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي، الدار البيضاء، 1985، ص. 411.

ورمزا لكل المناضلين المطالبين بالاستقلال، والمعرقل الحقيقي للاستراتيجيات الاستعمارية بالمغرب، وتنصيب آخر طبع وجاهل بالأمور السياسية، لا يعصي أمرا لإدارة الحماية، ولا ينس في أوامرها بنت شفة، وقد وجدت إدارة الحماية في الإضراب المستنكر لاغتيال فرحات حشاد مناسبة لأجراة الخطة الأولى، فصعدت من حملات المdahمات والاعتقالات في صفوف الحركة الوطنية، ولم ينج من هذه الانتهاكات سوى علال الفاسي وأحمد بلفريج اللذين كانا خارج المغرب،¹³ وأمام استنكار السلطان سماجة هذه الأفعال، علقت إدارة الحماية بعبارات الأسف لتبني العاهل المغربي لمواقف الوطنيين المتطرفة، وعن تدمير القبائل البربرية وحنقها على ذلك، وهو ما ينذر بانقسام الأمة إلى طائفتين، خاصة في ظل تثبيت السلطان بنظامه المعادي، ورفضه التوقيع على المراسيم والظواهر التي ترسي قواعد الإصلاحات الديمقراطية، الأمر الذي يجعل خيار خلع ضرورة ملحة لإشاعة السلم والوحدة والتقدم.¹⁴ وفي هذا السياق نشرت الجالية الفرنسية في الدار البيضاء -وهي أكبر جالية في البلاد-، بيانا أعربت فيه عن تأييدها التام للجنرال «غيوم»، واستهجانها لأعمال حزب الاستقلال، وكان على رأس هؤلاء «بونيفاس» حاكم الدار البيضاء، الذي كان من أشد المؤيدين لخلع السلطان، حيث صرح بذلك في حضور ابن الكلاوي الأكبر وعدد من القواد بالقول، «لن أترك منصبي قبل أن أخلع السلطان».¹⁵ وللإمعان في تضيق الخناق على سيدي محمد بن يوسف رحمه الله، تقدم «غيوم» إلى العاهل المغربي بمطالب على رأسها توقيع المراسيم التي لم يوقعها منذ سنوات، وتنازله عن سلطاته كلها للجنة فرنسية مغربية، وعندما رفض جلالته هذه المقترحات، هدد مرة أخرى بإسقاط حكمه ونفيه غير مأسوف عليه، وبالفعل ففي الثالث عشر من غشت سنة 1953م، تجمع حوالي إثني عشر ألف أهلي في مدينة مراكش، بإيعاز من الباشا الكلاوي، وبتنسيق مسبق مع إدارة الحماية¹⁶ لإسداد الستار على آخر فصل من فصول المؤامرة، وفي اليوم نفسه طوقوا القصر السلطاني بالرباط، ودخل عليه المقيم العام «غيوم» يخير جلالته للمرة الأخيرة ما بين تنحيته قسرا عن الحكم وإعلان ابن عرفة سلطانا على المغرب أو التوقيع على ثلاثة شروط أساسية مفادها:

- مصادقته على المشروعات التي تروم تحقيق السيادة الفرنسية، من خلال مشاركتها في المجالس البلدية بنسبة 50% مع منحها حق التصويت.

13 - حلمي محروس (إسماعيل)، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ج2، منشورات مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004م، ص. 623.

14 - روم لاندو، تاريخ... م.س، ص. 376-386.

15 - حلمي محروس (إسماعيل)، تاريخ... م.س، ص. 624.

16 - غلاب (عبد الكريم)، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء، ج2، مطبعة الرسالة، الرباط، 1987م، ص. 553.

- تنازله عن صلاحياته التي نصت عليها معاهدة الحماية لصالح رئيس الوزراء.
- إصدار بيان من قبله يؤكد فيه عدم اختصاص الأمم المتحدة النظر في القضية المغربية، لكونها قضية ثنائية بين المغرب وفرنسا.

غير أن رفض السلطان لهذه المطالب جعلت أضلاع المؤامرة يجتمعون في السادس عشر من غشت من السنة نفسها لمبايعة ابن عرفة سلطانا على البلاد والعباد، وفي الثامن من الشهر نفسه، خطب جلالة مطالبها شعبه التزام السكينة والتحلي بالصبر والانضباط، حفاظا على الأرواح.¹⁷ وفي العشرين منه دخل «غَيّوم» برفقة مدير الأمن وفرقة مسلحة على السلطان، وطلب منه التنازل عن العرش، وحين رفض، طلب المقيم العام من مدير الأمن اعتقاله، فتقدم ضابطان فرنسيان وقادا جلالة إلى سيارة عسكرية مصفحة، وبعد إلقاء القبض على الأميرين المولى الحسن والمولى عبد الله، اقتيد الجميع إلى معسكر السويسي، وظلوا هناك إلى حين نقلهم إلى جزيرة كورسيكا،¹⁸ وفي خضم ذلك تأكد للوطنيين أن العمل المسلح ضد الاحتلال صار خيارا استراتيجيا وضرورة لا مندوحة عنها ولا محيد، فالتعليمات الصادرة عن قادة الحركة الوطنية تفيد، أن الفرنسيين إذا وضعوا أيديهم بسوء على جلالة محمد بن يوسف، فيجب أن يقوم كل الوطنيين وسائر المغاربة برد فعل عنيف.¹⁹

فكيف إذن أسهم عملاء الاستعمار، وفي مقدمتهم الكلاوي والكتاني في حبك مؤامرة الخلع، والضغط على دوائر القرار الكولونيالية للتسريع من عملية الإطاحة بالسلطان الشرعي للبلاد؟.

ثانيا - دور الكلاوي والكتاني في حياكة مؤامرة الخلع

كان التهامي الكلاوي وعبد الحي الكتاني من أكبر خصوم السلطان محمد الخامس، ولكل منهما أتباع غفيرة²⁰، وكان المتآمران صنوين في نشاطهما العدائي ضد السلطان، حيث أوكل للكتاني تعبئة الطرق الدينية وإيغار صدرها، وللکلاوي جمع قواد القبائل والعناصر الزائغة من مختلف مناطق المغرب.²¹ وفي الوقت الذي كان فيه المتآمران يثيران الجموع الدينية والبربرية ضد السلطان، كانت إدارة الحماية تضغط عليه للتوقيع على عدد من المراسيم التي تجرده من سلطاته وسلطانه، وكان الكولونياليون الفرنسيون قد وظفوا نفوذهما وحقدتهما على السلطان في مآرب سابقة، وقد استهل

17 - الفاسي (علال)، حديث المغرب في الشرق، المطبعة العالمية، القاهرة، 1956م، ص ص. 168-169.

18 - روم لاندو، تاريخ... م.س، ص. 400

19 - مبارك (زكي)، محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، منشورات فيديرانت، الرباط، 2003م، ص. 133.

20 - العسة (أحمد)، المعجزة المغربية، دار القلم للطباعة، بيروت، 1975م، ص. 258.

21 - Richard (M), barce, Moricco Algeria, Tunisia new Now York, 1964, pp. 92-93

عبد الحي الكتاني في شن حملات العداء ضد السلطان سرا في نشرات كانت توزع منذ سنة 1948م.²² ثم شرع في الاتصال بعلال الفاسي قبل نفيه إلى الغابون بهدف حرمان السلطان من حلفائه وامتداداته داخل شعبه، وبالتالي إضعافه لتذليل سبل إقصائه عن العرش، وفي هذا السياق أرسل صهره وساعده الأيمن الكانوني إلى علال الفاسي لحثه على مشاركته مؤامراته ضد السلطان، مقابل أن يجعل نفسه ومريديه في خدمة أطروحات حزب الاستقلال وتوجهاته. لكن إخفاقه مع علال الفاسي جعله يعكف على استمالة ابن عرفة للانخراط في المؤامرة، عن طريق موافقته الجلوس على العرش بعد خلع السلطان الشرعي،²³ كما سافر إلى الجزائر لدعوة طرق شمال إفريقيا الصوفية لعقد مؤتمر في الرابع من أبريل سنة 1953م بمدينة فاس، حيث ترأسه بحضور الكلاوي ونحو عشرين قائدا، وضم هذا التجمع حوالي ألف مندوب مغربي يمثلون خمس عشرة طريقة دينية ومائتي زاوية وثلاثمائة مريد من الجزائر وبعض التونسيين،²⁴ وكان الغرض من ذلك، إصدار احتجاج موحد ضد السلطان، لشرعنة خلعه لأسباب دينية. ولكن الوزارة الخارجية الفرنسية خشيت العاقبة وأقنعت الكتاني بأن يحصر المؤتمر اتهامه لحزب الاستقلال فقط.²⁵ وبعد نجاح الكتاني وأحلافه في عزل السلطان قال «شكرا للنصر الذي أحرزناه مؤخرا، إذ ستجني البلاد بسببه ثمار السلم والهدوء والسعادة».²⁶

وبموازاة الكتاني كان الكلاوي من أكبر المتآمرين على السلطان، والمساهمين بقوة في عزله ونفيه، بسبب مساندته للحركة الوطنية التي كان الكلاوي يكره انتقاداتها له ولسلطات الحماية، فبعد القطيعة التي حدثت في دجنبر سنة 1950م، والكلاوي شغله الشاغل هو الانتقام من السلطان عن طريق عزله، ولما كانت إدارة الحماية تبادله نحو الإحساس تجاه السلطان، فقد تقاطعت المصالح، وحددت الغاية في تنحيته، حيث قام في فبراير سنة 1951م، بحشد الفرسان البرابرة أمام الرباط وخلف أسوار فاس للمطالبة بعزله، غير أن تدخل بعض الشخصيات الفرنسية من قبيل «روبير شومان»، أرغم الكلاوي وأنصاره على الرجوع إلى قواعد الانطلاق. وفي العشرين من مارس سنة 1953م، عقد في مراكش برأسته اجتماعا ضم نحو عشرين قائدا، وتم في أعقابه توقيع عريضة تطالب بإسقاط السلطان عن العرش وقد جاء فيها: «بما أن السلطان خرج عن جميع العهود الدينية والمواثيق الإسلامية، وأنه يظاهر أحزابا متطرفة جعلته يسير بالمغرب للهاوية، فإن الموقعين يطالبون بناء على ذلك من مقيم فرنسا العام

22 - جوليان (شارل أندري)، إفريقيا الشمالية، ترجمة المنحي سالم وآخرون، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر، 1976 م، ص. 369.

23 - الكلاوي (عبد الصادق)، أبي الحاج...، ص. 210.

24 - برنار (ستيفان)، تاريخ...، م.س، ص. 200-201.

25 - روم لاندو، تاريخ...، م.س، ص. 380-381.

26 - نفسه، ص. 416.

ومن الحكومة الفرنسية تنحية السلطان وإسناد الحكم لمن يستحقه²⁷، وسلمت العريضة رسمياً إلى المقيم العام بواسطة باشا مراكش يوم الواحد والعشرين من ماي من السنة نفسها. وكانت مذيلة بتوقيع مائتين وخمسين من الباشوات والقواد، وستة رؤساء دينيين، وواحد وثلاثين فرداً من الأعيان. وفي التاسع والعشرين من ماي من السنة نفسها، صرح الكلاوي في باريس للصحافة بالقول: «لقد تجلت إرادة الشعب من خلال ممثليه الشرعيين الذين قدموا من كل أرجاء المغرب، ليؤكدوا أنبيعة السلطان أمست لاغية، وإننا لنتظر واثقين مصادقة الحكومة الفرنسية على ذلك...»²⁸

وفي فاتح غشت سلم الكلاوي عريضة جديدة للإقامة، تندد بما أسمتهم بمتطرفي حزب الاستقلال، ولكل من يقدم لهم يد العون، ولو كان يحمل الأمانة العظمى في المغرب، ملتسمين من الأمة الفرنسية التدخل لمحق حزب الاستقلال وكل من يساعده.²⁹ وقد ذيلت هذه العريضة بتوقيع ثلاثمائة وثلاثين قائدا مغربيا...، وكانت هذه العريضة مشفوعة بتفويض يمنح كافة الصلاحيات في المجال السياسي لزعيم حركة المعارضة الباشا الكلاوي، وفي المجال الديني لعبد الحي الكتاني. وفي خضم ذلك كان العاهل المغربي سجين قصره تطوقه الدبابات والمدافع، وفرسان قبائل الكلاوي وأزلامه،³⁰ وهكذا توفق المتآمرون في إنجاح خطتهم المسمومة التي أفضت إلى خلع السلطان ونفيه خارج البلاد. فإلى أي حد أثار هذا الفعل الأرعن الأوساط الشعبية المغربية والضمير العربي والدولي؟

ثالثا - ردود الفعل الوطنية والدولية الرافضة لخلع السلطان سيدي محمد بن يوسف ونفيه

أ - ردود الفعل الوطنية

اعتقد المتآمرون أنهم بنفي السلطان وحل حزب الاستقلال، والزج برموزه وكوادره في السجون والمعتقلات، وتنصيب آخر على العرش، يجعل الطريق ممهدة لتنزيل كل المشروعات المزمع تنفيذها في المغرب دون ناقد أو شاجب، لكن خاب فآلهم، فقد بدأت حركات العصيان تشرئب برأسها، بعدما طفق الفلاحون يرفضون الامتثال لأوامر القواد الذين ولاهم عاهل غير شرعي، ويمتنعون عن تأدية الضرائب، وفي العام الثاني من نفي السلطان، عم تمرد في بلاد البربر وواد زم ضد القواد الذين نصبهم ابن عرفة بإيعاز من الكلاوي،³¹ حيث أسفر هذا التمرد عن قتل الكثير من المستوطنين الفرنسيين

27 - غلاب (عبد الكريم)، تاريخ...، ج 2، م.س، ص. 552.

28 - برنار (ستيفان)، تاريخ...، م.س، ص. 203.

29 - نفسه، ص. 205.

30 - روم لاندو، تاريخ...، م.س، ص. 397.

31 - Abitbol (Michel), *Histoire du Maroc*, Ed Perrin, France, 2009, p. 540.

وتخريب ممتلكاتهم، وبالموازاة مع ذلك بقي خطباء المساجد يرفضون الدعاء لابن عرفه على المنابر بالرغم من حدة الاعتقالات التي نهجتها سلطات الحماية ضدهم، ففي التاسع عشر من يونيو سنة 1954م، تم اعتقال ما ينيف عن أربعين خطيباً ومحاكمتهم،³² بل عزف الكثير من المصلين عن أداء صلاة الجمعة³³ لكي لا يسمعو الدعاء والتأمين لسلطان متآمر وخائن، كما كانوا يعتبرون هذا الحضور بمثابة مبايعة لابن عرفه واعتراف به، ولم يمض أقل من شهر على نفي السلطان الشرعي، حتى بدأ الشعب المغربي يوحد صفوفه لرفع مستوى التصعيد والنضال من أجل الاستقلال،³⁴ فخلع المولى محمد الخامس كان نقطة تحول كبيرة في مجرى الصراع من أجل الاستقلال،³⁵ حيث انطلقت العمليات الفدائية مباشرة بعد الإطاحة به، فما بين عشرين غشت إلى ثاني أكتوبر سنة 1953م، سجلت سلطات الحماية خمسة وأربعين اعتداء، منها ثمانية اغتيالات وتسعة حرائق ونحو اثني عشر تخريباً، وبعد مضي ثلاثة أسابيع فقط على وصول محمد الخامس إلى كورسيكا، نجى ابن عرفه بأعجوبة من اغتيال وهو في طريقه إلى مسجد أهل فاس بحي تواركة بالرباط لأداء صلاة الجمعة، ومن ثم ترادفت الاعتداءات ضد شخصيات فرنسية ومغربية على وتيرة منظمة، ففي ثالث نونبر من السنة نفسها، انفجرت قبلة في المدينة العتيقة بفاس، وفي السابع منه قام بعض الفدائيين بإخراج القطار السريع الرابط بين الدار البيضاء والجزائر المدينة عن سكتته، مما أسفر عن مقتل سبعة مسافرين. وفي الرابع والعشرين من شهر دجنبر تم تفجير قبلة في السوق المركزي بالبيضاء أدت إلى قتل ستين شخصاً، منهم ثمانية عشر قتيلاً من الفرنسيين كانوا يتبضعون بمناسبة أعياد الميلاد، وعلى إثر ذلك أعلن مكتب المغرب العربي بطنجة في بلاغ نشرته جريدة الجمهورية المصرية تحت عنوان: "انتقام أثناء احتفالات أعياد الميلاد"³⁶، قائلاً: في العشرين من غشت سنة 1953م «اختار الفرنسيون عيد الأضحى المبارك لنفي سلطان المغرب، وهاهي ذي فرقنا الفدائية ترد عليهم بتفجيرها لعدة قنابل بمدينة الدار البيضاء»،³⁷ وقد أدت هذه العمليات الفدائية التي لم تفتقر طيلة فترة نفي السلطان، إلى إغراق المغرب في معركة خاضها الفدائيون بقلب ميت ضد المستعمر والخونة والمتآمرين والمخبرين المدسوسين بين الأهالي، وفي العشرين من فبراير سنة 1954م نجى رأس المؤامرة الكلاوي بقدر من قبلة رميت عليه وهو يصلي صلاة

32 - داهش (محمد علي)، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوجودية في المغرب العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004م، ص. 139.

33 - Abitbol (Michel), *Histoire...*, op.cit., p. 540.

34 - جريدة صوت الأهالي العراقية، الشعب المغربي يتشبث بسلطانه الشرعي، العدد 41، تشرين الثاني 1953م، ص. 3.

35 - التازي (عبد الهادي)، الحماية الفرنسية بدايتها - نهايتها حسب إفادات معاصريها، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980م، ص. 193.

36 - Bulletin d'information du Maroc, n° 38, Janvier, 1954, p. 17.

37 - برنار (ستيفان)، تاريخ... م.س، ص. 246.

الجمعة بمسجد الكتبية بمراكش،³⁸ وفي الخامس والعشرين من ماي من السنة نفسها، أُلقيت قنبلة على الجنرال «غيوم» في مدينة مراكش، أثناء مراسيم وداعه، أودت بحياة جندي وخلفت عشرات الجرحى، وفي العشرين من يونيو سنة 1954م، جرح الجنرال «دوطفيل» رئيس ناحية مراكش العسكرية في محاولة لاغتياله، وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه قتل الدكتور «كلود تيفان» (Claude thivend)، مندوب الشؤون الحضرية بمدينة مراكش. وفي خضم ذلك استثمر الوطنيون الخلاف الحاصل بين فرنسا وإسبانيا للتكثيف من أسلوب الكفاح المسلح، والاستفادة من العمق الشمالي لتأمين قاعدة للعمليات الفدائية.³⁹ وقبل نهاية شهر يونيو، بدأت العرائض تتزاحم على الإقامة العامة، مطالبة بعودة السلطان الشرعي للبلاد.⁴⁰ وقد اضطلع مكتب المغرب العربي في القاهرة بالدور البارز في استنفار همم المغاربة للنضال ورص الصفوف، لتجاوز المحنة وتحقيق الغاية، إذ وجه علال الفاسي من خلال إذاعة صوت العرب في القاهرة، نداء إلى الشعب المغربي، يطالبه فيه بالثورة ضد المحتل ورموزه.⁴¹ كما دعا محمد بن عبد الكريم الخطابي كل الشعب المغربي في شتبر سنة 1953م، إلى رفع شعار (الاتحاد - النظام - العمل) ضد نير المستعمر الغاشم، ومن جانب آخر أعلنت الأحزاب الوطنية في المنطقة الخليفية في الثامن عشر من نونبر من السنة نفسها، عن احتجاجها لخلع السلطان ونفيه، وبالمناسبة ألقى عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح كلمة أكد فيها أن محمد الخامس هو السلطان الشرعي للبلاد، وأن ساكنة المنطقة الخليفية ما انفكت تحتفل بعيد العرش المجيد للتعبير عن وفائها لجلالته واعتراف به كرمز للأمة والضامن لوحدها وكرامتها.⁴² فإذا كان الشعب المغربي بكل فئاته وإثنياته أقام الدنيا ولم يقعدا عقب نفي السلطان الشرعي للبلاد، فما موقف الدول الشقيقة والصديقة حيال ذلك؟

ب - ردود الفعل العربية والإسلامية

طرحَت القضية المغربية للنقاش، مع إقدام السلطات الفرنسية على نفي السلطان محمد الخامس طيب الله ثراه، حيث تحركت الدبلوماسية العربية من جديد عن طريق إرسال مذكرة مستعجلة إلى الهيئة الأممية، استنادا إلى البند الأول من الفصل الخامس والثلاثين من ميثاق المنظمة. حيث اعتبروا ذلك خرقا لاتفاقية الحماية وإجراء يهدد السلم والاستقرار العالميين،. وفي هذا الشأن أكد المقترح

38 - الكلاوي (عبد الصادق)، أبي الحاج...، م.س، ص. 222.

39 - مظفر الأدهمي (محمد)، محمد الخامس وموقف الرأي العام العراقي من الإبعاد إلى العودة 1953-1955م، الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، ص. 244.

40 - برنار ستيفان، تاريخ...، م.س، ص. 270.

41 - جريدة الحوادث العراقية، علال الفاسي يستنفر الشعب المغربي لإذكاء الثورة ضد المستعمر الغاشم، العدد 3193، أيلول 1953م، ص. 2.

42 - الفاسي (علال)، نداء القاهرة، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1953م، ص. 3-4.

العربي - الآسيوي في هيئة الأمم المتحدة، على ضرورة الاعتراف الدولي بالحقوق المشروعة للشعب المغربي في تقرير مصيره، وطلب في الوقت ذاته فتح تفاوض جاد مع ممثليه للوصول إلى حل حاسم، كما أوصى المقترح بأن تتخذ خطوات لضمان رقي هذا الشعب في غضون خمس سنوات، مع ممارسة كامل حقوقه السيادية في ظل استقلاله. وكانت باكستان من أكبر المدافعين عن قضية المغرب، ومن أشد المنتقدين للسياسة الفرنسية الاستعمارية وإجراءاتها.⁴³ وقد ترك تضامن مختلف الدول العربية والإسلامية مع قضية المغرب وفضيحة نفي السلطان، صدى واسعاً في المحافل الدولية، إذ بقيت مطالب دول الجامعة العربية والكتلة الأفروآسيوية، تخرج المجتمع الدولي وتضغط عليه، لإيجاد السبل الكفيلة لحل القضية المغربية في أقرب وقت،⁴⁴ ففي العراق احتج المتضامنون على سوء معاملة السلطان وأسرته في منفاه، وأجمعوا على خيانة الكلاوي لسلطانه، وحملوه المسؤولية الكبرى على ما يجري في المغرب من أحداث دامية، كما استنكر المتظاهرون غطسة رموز الاستعمار وأذئابهم في مسألة الإقدام على خلع السلطان ونفيه، ومن الجانب الحكومي رحب أعضاؤها بعقد مؤتمر شعبي عربي في عمان لحلحلة الوضع القائم في المغرب. وفي الخامس والعشرين من غشت سنة 1953م، أوصت دول الجامعة العربية بتقديم السلاح اللازم للمقاومة المغربية، وفي الوقت نفسه حثت الحكومة العراقية شقيقاتها العربية على ضرورة أخذ مواقف حاسمة، والعمل على إحباط المؤامرات الفرنسية.⁴⁵ وفي الخامس عشر من يوليو من السنة نفسها، التقى وزير الخارجية العراقي محمد فاضل الجمالي بالرئيس الأمريكي إيزنهاور في البيت الأبيض، والتمس منه مساندة القضية المغربية، والعمل على إعادة السلطان إلى عرشه، وفي غمرة حديثه عن الموضوع شجب بشدة التصرفات الفرنسية المعارضة للمواثيق الدولية، كما وجه الجمالي رسالة إلى علال الفاسي من القاهرة أكد فيها تضامن العراق حكومة وشعباً مع الأمة المغربية، حتى نيل الاستقلال وعودة سلطان البلاد ظافراً منتصراً،⁴⁶ فضلاً عن تخصيصه هبة مالية قدرت بربع مليون دينار للشعب المغربي، عبر جمعية الهلال الأحمر العراقية، كما قدمت هذه الحكومة المال والسلاح كدعم للمقاومة المغربية عن طريق علال الفاسي.⁴⁷

43 - El Machat (Samya), *Les Etats-Unis et Le Maroc, Le choix stratégique 1945-1959*, l'Harmattan, Paris, 1996, p.125.

44 - برنار (ستيفان)، تاريخ...، م.س، ص ص. 237-239.

45 - جريدة الحوادث العراقية-تصريحات حكومية، العدد 3277، 16 كانون الأول، 1953م، ص. 4.

46 - مظفر الأدهمي (محمد)، محمد الخامس وموقف الرأي العام العراقي من الإبعاد إلى العودة 1953-1955م، الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، ص. 279.

47 - أبو القاسم (سعد الله)، صورة الملك محمد الخامس من بعض الصحف الجزائرية الوطنية 1951-1956م، الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، ص ص. 372-379.

أما مصر فكانت من أبرز الدول المنددة بتنحية محمد الخامس ونفيه إلى كورسيكا ومدغشقر، حيث اعتبرت ذلك منافيا للمواثيق والأعراف الدولية، وتأسيسا على ذلك قامت بتقديم كل الدعائم المادية والعسكرية واللوجستية والإعلامية الممكنة للمقاومة المغربية لمساندة خياره النضالي، كما أصدر شيخ الأزهر محمد خضر حسين فتوى تفسق الكلاوي ومناصريه عن ملة الإسلام، لأنهم خانوا العهد والأمانة ورفعوا السلاح في وجه إمامهم الشرعي. ولم تتوان الجارة الجزائر عن استهجان مؤامرة خلع السلطان على لسان حزب الشعب الجزائري، حيث أعربت عن تجريمها لهذا الإجراء، الذي لم يزد الشعوب المغاربية إلا تكافلا وتعاضدا ووحدة حتى نيل الاستقلال، وفي هذا الشأن أفتى علماء الجزائر بأن محمد الخامس هو السلطان الشرعي للمغرب، ونبهوا على لزوم طاعته.⁴⁸

وفي الأردن نظمت مجموعة من المظاهرات شاركت فيها جميع فئات المجتمع الأردني، للتنديد بخلع السلطان، وفي شهر شتنبر سنة 1953م، انعقد المؤتمر الشعبي الأردني، وناشد متدخلوه إخوانهم المغاربة العاملين في الجيش الفرنسي، الانسحاب بشرف، والالتحاق بصفوف جيش التحرير المغربي، كما طالب من الجامعة العربية الانسحاب من هيئة الأمم المتحدة، إذا لم تعالج قضية المغرب بشكل عادل.⁴⁹

أما سوريا فقد كانت من الدول السبابة إلى شجب مؤامرة نفي السلطان والتنكيل بالوطنيين، ففي الثامن والعشرين من غشت سنة 1953م، سلم المندوب السوري في الأمم المتحدة إلى ممثل فرنسا، مذكرة احتجاج، موضحا فيها ضرورة إعادة السلطان إلى عرشه، وفتح مفاوضات مع ممثلي الشعب المغربي لحل الأزمة.

والموقف نفسه اتخذته المملكة العربية السعودية تجاه المؤامرة، فهي لم تكتف باستنكار أفعال سلطات الحماية في المغرب فحسب، بل رفضت حتى دخول بعثة ابن عرفة إلى الحجاز، وذلك تضامنا مع إرادة الشعب المغربي وموقف الجامعة العربية الراض للاعتراف بابن عرفة سلطانا على المغرب.⁵⁰ فإذا كانت معظم الدول العربية والإسلامية، والكثير من الأمم الأخرى استنكرت بشدة عزل السلطان وتصفية الوطنيين المطالبين بالاستقلال؟ فما الاعتبار التي جعلت الدول الكبرى تشيح بوجهها عن مساندة قضية المغرب وأخرى تقف بجانبها؟

48 - جريدة الحوادث العراقية، إخوة حتى الموت، العدد 3187، 28 آب 1953م، ص. 3.

49 - جريدة اليقظة العراقية، القضية المغربية وأساليب التسوية، العدد 1957، 26 تموز، 1954م، ص. 2.

50 - غلاب (عبد الكريم)، تاريخ...، ج2، م.س. ص. 585.

ب - ردود الفعل الدولية

إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا قد غضتا الطرف عن عزل السلطان الشرعي بسبب مصالحهما الاستراتيجية مع فرنسا، فإن إسبانيا شجبت بشدة هذا الإجراء من قبل السلطات الفرنسية، وسمحت في الحادي والعشرين من يناير سنة 1953م، بتنظيم تظاهرة كبيرة حضر فيها زهاء ثلاثين ألف مغربي في تطوان، تحت إشراف المندوبية السامية الإسبانية، وقد قرئت على هامش هذه التظاهرة وثيقة وقعها أربعمئة وثلاثون من الباشاوات والقواد وكبار الأعيان،⁵¹ منطوقها يستنكر نفي السلطان، ويرفض الاعتراف بسلطة ابن عرفة على الشمال،⁵² كما طالب الموقعون فصل المنطقة الإسبانية مؤقتا، حتى تتغير الأوضاع السياسية المستبدة، ثم خطب الجنرال «فالينو» (Falino) في الحضور مؤكدا مشروعية هذه المطالب، وأنه سيعمل على نقل كل الملتزمات إلى الجنرال فرانكو (Franco)،⁵³ لمساندة القضية المغربية. وفي التاسع من فبراير من سنة 1954م، يّم وفد من أعيان مدينة تطوان وجهه صوب العاصمة الإسبانية مدريد لتقديم وثيقة الاستنكار الآنفه الذكر إلى الجنرال «فرانكو»، وقد ألقى هذا الأخير بالمناسبة خطابا أمام الوفد المغربي، أعرب فيه عن أسفه للمؤامرة التي أطاحت بالسلطان، والتكيل الذي يسام للحركة الوطنية. وفي معرض حديثه، أكد أن المنطقة الخليفية ستبقى وفيه لسلطانها الشرعي، تحت إدارة خليفته الحسن بن المهدي.⁵⁴

وقد ظل الموقف الإسباني تجاه الأزمة، يعرض بفرنسا في كل المحافل الدولية والتصريحات الرسمية، ويتهمها بارتكاب أخطاء جسيمة، يكمن كنهها في نهجها لسياسة الحديد والنار ضد الوطنيين المغاربة، والسلطان الشرعي للبلاد.⁵⁵ هذا الموقف الإسباني من الأزمة المغربية، دفع حزب الإصلاح الوطني، بالتنسيق مع حزب الاستقلال، إلى تطوير العلاقات وتعميق انفتاح إسبانيا على العالم العربي، واستثمار خلافها مع فرنسا لتقوية وضع الملف المغربي في الأمم المتحدة، وكسب تعاطف ترويك الدولية، وفي هذا الصدد صرحت إسبانيا رسميا لجامعة الدول العربية على استعدادها منح الاستقلال الذاتي للمنطقة الخليفية، والمساعدة في تكوين حكومة مغربية في المنفى يكون مركزها الرسمي مدينة تطوان، والسماح بتنظيم عمل مسلح، لتحرير المنطقة السلطانية من الاحتلال، كما أرسلت إسبانيا إلى دول أمريكا اللاتينية التصريح بموقفها الناقد لسياسة فرنسا في المغرب، حيث اتهمت فيه فرنسا بخرق

51 - روم لاندو، تاريخ...، م.س. ص. 431.

52 - نفسه، ص. 581.

53 - داهش (محمد علي)، دراسات...، م.س. ص. 116.

54 - نفسه، ص. 166.

55 - جريدة صوت الأهالي العراقية، أوضاع على صفح من نار، العدد 29، 15 تشرين الأول، 1953م. ص. 2.

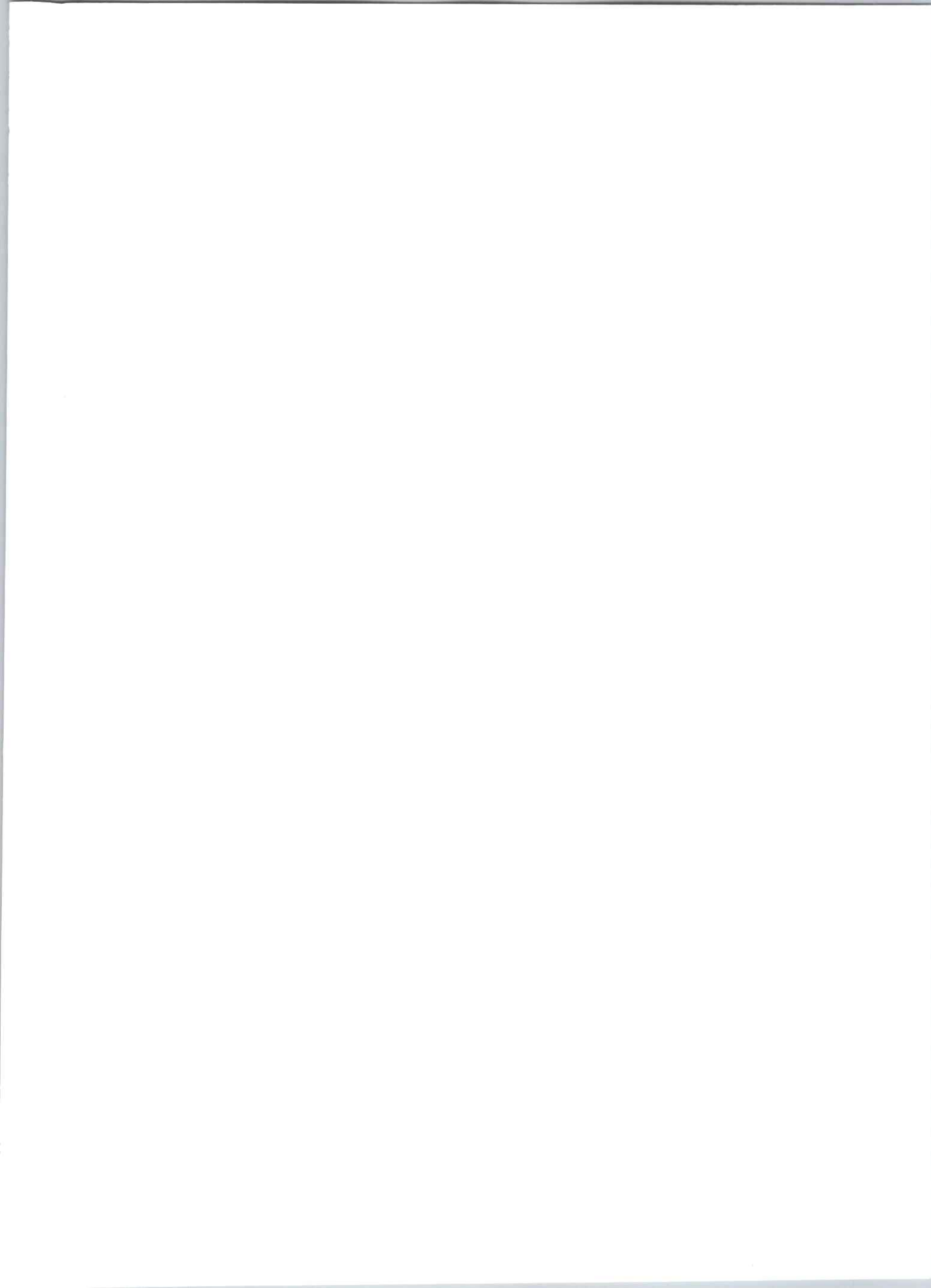
معاهدة الجزيرة الخضراء، وذلك بمسها لشخصية السلطان الشرعي للبلاد.⁵⁶ وهكذا غدت المنطقة الخليفة مركزا مهما لتنظيم نشاط المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي،⁵⁷ وملجأ لاستقبال الوطنيين المتابعين من قبل جهازه الأمني.⁵⁸

صفوة القول، لقد أسهمت الملحمة البطولية للمغاربة سلطانا وشعبا، والمواقف العربية والدولية، في دعم قضية المغرب المشروعة في الدوائر الفرنسية والمنظمات الدولية والإقليمية، وفي إعلاء صوت المطالبة بالاستقلال، تحت قيادة السلطان المجاهد سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، الذي عاد منصورا مبشرا بالاستقلال التام، في جمع غفير عز نظيره وقل مثيله، في السادس عشر من نونبر سنة 1955م.

56 - غلاب (عبد الكريم)، تاريخ...، ج 2، م.س، ص. 581.

57 - الجمالي (محمد فاضل)، «المغرب العربي ومؤتمر باندونغ»، المجلة التاريخية المغربية، العدد 2، تموز 1974، ص ص، 118-119.
58 - Abitbol (Michel), *Histoire...*, op.cit., p. 542.





أنشودة العودة

● الأستاذ الشاعر أبوبكر اللمتوني

- * قل لمن لأملك أو من عدلك
- * وتعهّد فلك العيش يد
- * وانشر الرحمة، فينا، إنما
- * وادع بالرضوان للشعب فما
- * مهر العودة بالروح وما
- * قد تلقى السهم حتى جازه
- * فمشى يحدو المنايا ماله
- * لم يحاول مستميت صده
- * آية العاهل أن يحيى به
- * سل أبا الفتنة عن أيامه
- * حلكت أيامه حتى جرى
- * أنت كالشمس وهل ألفى امرؤ
- * كيف يخفى عن عيون الشعب من
- * من رضى شعبك عما جئته
- * لحت في مكتمل البدر له
- * دع أناسا زعموا أن الهوى
- * كان لي حمد السري أم كان لك؟
- * فلقد عطل مذ غبت الفلك
- * حمل الرحمة ركب حملك
- * خيب الرحمن فيه أملك
- * كانت الروح لتجزى عملك
- * واستساغ الضيم حتى وصلك
- * مثل يضرب إلا مثلك
- * عن حياض الموت إلا وهلك
- * أمة صرعى وشعب ممتلك
- * هل صفا يوم له مذ عزلك
- * يتفادى بمحيّاك الحلّك
- * بدل الشمس ليلفوا بذلك
- * يجتليه الشعب أيان سلك
- * يوم صنت العهد فيها خولك
- * فرأى منزل صدق منزلك
- * سحر الأعين حتى خيلك





افتتاحية

5

ملف العدد

ذكرى ثورة الملك والشعب أبعاد وأبعاد

9

د. إبراهيم الوافي (رئيس المجلس العلمي لإنزكان أيت ملول).

الخطط الناظم في ذكرى ثورة الملك والشعب

15

د. أحمد الشكري (أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس، الرباط).

أحداث طنجة يوم 30 مارس 1952م: محطة خالدة في التلاحم بين العرش والشعب من أجل الاستقلال

27

د. محمد الأندلسي (أستاذ باحث بتطوان).

ثورة الملك والشعب: ذكرى ملأى بالدلالات والعبر

45

د. إدريس الزعري المباركي (أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة بفاس).

خطاب ثورة الملك والشعب: قضايا وأبعاد

51

د. طامو آيت مبارك (أستاذة التعليم العالي بجامعة محمد الخامس بالرباط).

جوانب من أسباب نفي السلطان محمد الخامس (ت 1961م)، ورد فعل الشعب المغربي دفاعا عن العرش واستقلال البلاد

61

د. أحمد الأزمي (أستاذ باحث بفاس).

دور الشبيبة المدرسية في مواجهة الاستعمار، تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس: من قاعات التحصيل إلى فضاءات المقاومة

73

د. جواد الفرخ (أستاذ باحث بفاس).

- 95 أهمية التعليم في المسيرة الإصلاحية للسلطان سيدي محمد بن يوسف
 ✍ ذ. محمد اليزيدي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس).
- 103 الزوايا بالريف وارتباطها بالعرش العلوي المجيد
 ✍ ذ. وسام شهير (كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة).
- 113 الحركة الوطنية المغربية بين خطاب الإصلاحات وخطاب الاستقلال
 ✍ ذ. عبد اللطيف الحفار (أستاذ باحث من فاس).
- 125 دور فقهاء المغرب في تحرير البلاد من خلال ثورة الملك والشعب المجيدة
 ✍ ذ. محمد دامي (أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية).
- 137 الموقف الوطني والدولي حيال عزل السلطان الشرعي (1953-1955م)
 ✍ ذ. أنس الصنهاجي (أستاذ التعليم العالي مؤهل بالمدرسة العليا للأساتذة - فاس).

ديوان العدد

أنشودة العودة 153

✍ الأستاذ الشاعر أبوبكر اللمتوني

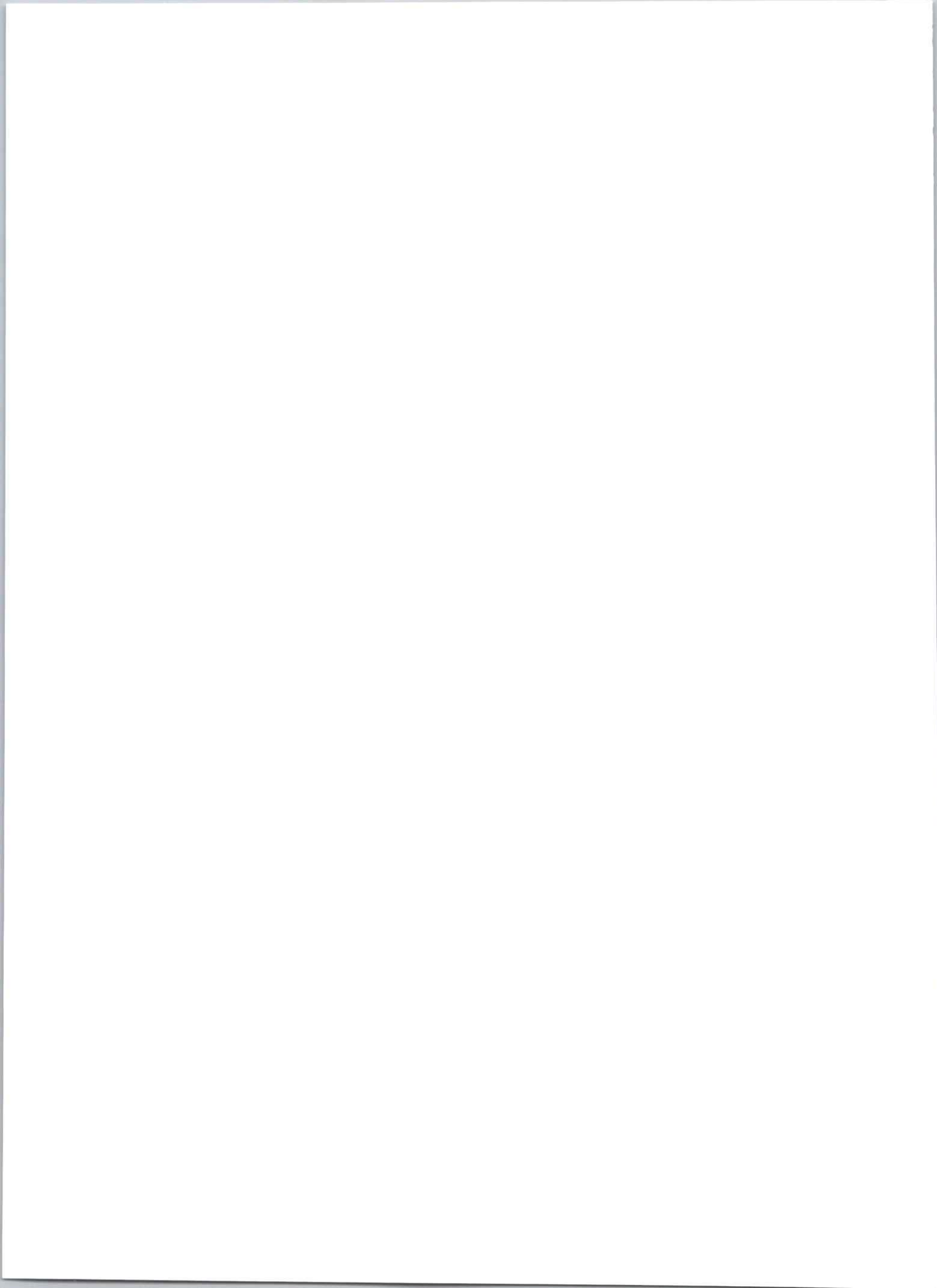
شروط النشر بالمجلة

- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- ✓ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
 - ✓ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
 - ✓ التقيد التام بكتابة الآيات القرآنية وفق المصحف المحمدي.
 - ✓ الاعتناء التام بعلامات التقييم، والالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تحرير البحوث والمقالات.
 - ✓ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
 - ✓ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
 - ✓ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
 - ✓ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
 - ✓ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وصفته وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
 - ✓ البريد الإلكتروني هو: alamihamid49@gmail.com
 - ✓ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
 - ✓ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
 - ✓ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
 - ✓ تصنيف البحث أو المقال وتنسيقه تنسيقاً جيداً.
 - ✓ هوامش التوثيق والإحالات والمصادر والمراجع تدرج في أسفل الصفحات وليس في آخر البحث أو المقال.
 - ✓ يكتب البحث أو المقال بخط Simplified Arabic مع التقيد بالمقاسات الآتية: 14 في النص، و10 في الهامش، و01 ما بين السطور.

ملف العدد المقبل

تدعو إدارة مجلة **دمعة الحق** السادة الباحثين إلى الكتابة في الموضوع الآتي:

- جهود علماء المغرب في خدمة الحديث النبوي الشريف.





دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالمراسم الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية